رواية

غراب البين

عباس مدحت البياتي

غُرابِ البَيْنِ

غُراب البَيْن

رواية

عباس مدحت البياتي

إهداء

أهدي رواية غراب البين إلى الغراب والعصفور ، وإلى القارئ العزيز.

ملاحظة : - الأحداث العامة في الرواية هيَّ حقيقة، إلا ما خص جانب الاحداث من تلك التي تتطلب الوضوح والتوسع والخيال والتعمق والإثارة في الفكرة وطريقة العرض والمشاهدة؛ فتلك هي من تخيلات المؤلف، وذلك من أجل التشويق وتلهيف القارئ وإعطاء صفة أدبية للرواية إلى جانب صفة السردية الضرورية لإنارة جوانب الرواية.

الشاهد: أنا لم أكتب هذه الرواية لأنني أحببت الحكاية... بل لأنني كنتُ هناك، حين أُسدلت الستارة الأولى، وحين فاحت الرائحة التي لم تكن عطرًا قدر أن تكون قيحا فقط، بل وعدًا... وادّعاء.

لم أكن البطل، ولم أكن الراوي... كنت مجرد رجل جلس في منتصف المسرح تلمس الحدث بقلبه وعينه ويده، فعرف من كذب ومن أدعى ومن جنى على نفسه، لكنه آثر أن يُصغي حتى النهاية.

أنا الشاهد وهذ شهادتي.

الفصل الأول

1- قاعة الاختبار

في صبيحة يوم الاربعاء 03\06\1992 كانتْ قد كسرت الجرة التي كنت أعتني بها وأنظر لها بزهو وهي تبرق أمام عينيَّ كأصيص تراثي بعيدا عن أعين المغرضين والمتلصصين، تلك التي صنعتها بنفسي وقدرت القها بقدري وسلوكي وتعليمي وثقافتي، بانكسارها تبدى مائها وخر خبرها بين الملأ على حين غفلة من أمري، أضحت قصتها شائعة على السن الناس والمعارف، أضحت قصتها الماركة والعلامة الفارقة في جدول أعمالي الحياتية دون تخطيط مسبق...

في ذلك اليوم الأشَر، شديد الإثارة في حياتي، والذي لم يكن اعتياديًا بأي حال من الأحوال، وقع ما لم يكن بالحسبان في مجرى علاقتي بالأستاذ حسن وإدارة متوسطة خانقين التي كنتُ منتسبًا لها. ذلك الحدث الجلي فرقع فرقعة أزعجتني وأربكت المحيطين بي دون موعد، لما خلّفته من زيف وتظاهر استقطب اهتمام كل من حولي من زملاء وأصدقاء وطلبة ومعارف، وبالذات لما حملت الحادثة من أبعاد اجتماعية وسياسية ودينية وإشكالات نفسية غير متوقعة، جاءت دون تخطيط أو استعداد.

وما زاد الطين بلّة، كنا نُشرف حينها على قاعة امتحانات البكالوريا للصف الثاني عشر (السادس العلمي)، حين امتد أثر الفوضى التي خلّفها ذلك التصرف الأرعن من رجل الأمن إلى أروقة الثانوية ذاتها، ومنها إلى الشارع، فالمدينة، فالمحافظة كاملة.

الهالــة التــي خلقتهــا تلــك الحادثــة، بمــا فيهــا مــن لغــط وســخط، جعلتنــي صــوتًا مســموعًا دون أن أتكلــم، ومعروفــا علــى مســتوى الشــارع والمدينــة دون أن أبــذل جهــد معــين. حينهــا كنــت كبــاقي المدرســين مهمــوم بســير الامتحانــات كمراقــب للتلاميــذ، تــوهج صــيتي فــي مجــالس جلــولاء، وخــانقين، والســعدية معًــا، لمــا للحــدث مــن ثِقــل ومعنــى، وحُمــق ورعونــة، علــى المســتوى الشخصي، والنفسي، والاجتماعي.

كــان يومًــا عبثيًّــا فــي كــل تفصــيل مــن حيثيّاتــه، يومًــا فــائق الغرابــة، لا يُشــبه مــا قبلــه ولا بعــده. فيــه ظهــر ذاك المــارد الأغبــر وعبثيــة ســلوكه المَبنــي علــى العجرفــة التــي اســتقاها مــن وظيفتــه – ذلــك الأرعــن، الفــظ، بطولــه الفــارع وســلوكه المتهــور دخــل مبنــى المدرســة يبحــث عنــي بصــوته الجهــوري الخشــن، حــاملاً بــين ثنايــا صــراخه قــدرًا مغــلا لــن أتوقعــه. تقصــدني بــه، وهــا هــو الآن يخرجــه مــن طيّــات ظنّــه، ومــن ذاكــرة دائــرة الأمــن، ومــن عقــل غراب البين ليسود به وجهي علنا أمام الجميع.

كــان مــأمورًا بإيصــال رســالة مســتعجلة، لكنّــه اختــار أن يحملهــا دون ورق، بــل بفجاجــة. دخــل فظًّــا، جلفًــا، لا يعــرف للدبلوماســية معنــى، ولا للــذوق حــدودًا. لــم يــراعِ مقــامي بــين الطــلاب، ولا احتَــرَم كينــونتي كمــدرّس بــين الجــدران التــي عرفَتنــي قبــل أن يعرفني هو. لذا سلمني رسالته كبوق أعلم الجميع بمضمونها.

كــان دخولــه الفــض فرقعــة... لا، كــان اجتياحًــا، وتصــرّفه أقــرب للهمجية منه للمهمّة المكلف بها.

لـن أنسـى أبـدًا تلـك اللحظـة التـي اقـتحم فيهـا بوابـة المدرسـة دون استئذان، كقذيفـة طائشـة حطّـت وسـط قاعـة الامتحـان وهـو ينـادي بصـوته الرنـان باسـمي وبـأعلى صـوت، مثيـرًا انتبـاه الجميـع، مـن أساتذة وطلبة، كأن قدري أن أكون في العلن دون تحذير.

كنـت واقفًـا بجانبـه، أراقـب بهـدوء سـير اختبـارات الصـف السـادس العلمـي فـي القاعـة الأولـى تحديـدًا، كانـت المـادة اللغـة الانجليزيـة، حينهـا لفـظ اسـمي بصـوتٍ عـالٍ، مـزق بـه جـدار الأناقة والسكينة. كأنه إعلان رسمي يخص الجميع.

حضـر أشـبه بالمـارد، قـادم مـن خرافـة مظلمـة؛ لطولـه الناشـز، ولسـلوكه الأرعـن، ولوجهـه الكـالح المشـوّه بنـزق السـلطة وتعاليهـا، يبـدو قصـة مـن حكايـات الـف ليلـة وليلـة. دخـل متهكمًـا، فظًـا، يحمـل فـي نبرتـه غطرسـة مـن اعتـاد أن تُفـتح لـه الأبـواب دون إذن.

كـان ينتعـل نعـلًا إسـفنجيًا مشـدودًا بسـيرين، ويرتـدي قميصًـا ناصـع البيـاض بأكمـام مـزررة بـأزرار كريسـتالية سـوداء، وبنطلونًـا بلـون السـماء الفـاتح... الملابـس منكمشـة علـى جلـده وعطـن رائحـة الخمـر تفـوح مـن شـدقيه، تشـي بفوضـى ليلـة لا تـزال تـدور أحـداثها فـي رأسـه. ربمـا كـان نائمـا بملابسـه، سَـكَرَ حتـى ادركـه الكـرى فانكمشـت عليـه ملابسـه. فـي لحظتهـا شـعرت أن الهـواء كـش مـن حـولي، وسـقط شـيء مـا بـداخلي. كـأنّ هـذا اللقـاء القصـير كـان معـد لـه مسـبقا، حيـث دون أسـمي فـي قائمـة من اختيار المعد دون أن أعلم.

ربما قضى ليلته ساهرًا في الواجبٍ، الرهق نهش جسده، ملامح وجهه الجهمة غلب عليها الأرق، سلبت منه هناءة الصباح، كان مبهدلا وخاصة شعر رأسه المنفوش ولحية مقترنة بمحياه دون تنسيق وترتيب. قميصه الأبيض متجعّد، وبنطاله السمائيّ منكمش، أزرار الكريستال تلمع على أطراف أكمامه كأنها تعتذر عن وجودها فوق هذا الجسد المهان المنهك. وجهه شاحب، كأنه سقط منه بريق النهار....

كأنّ الرجولة عنده تُقاس بالفوضى. ربما أضاع بهجته بين كؤوس الخمر، أو ربما قست عليه نوبات الليل، أو لعله ببساطة، كان مهووسًا بسلطةٍ يظن أنها تُمنَح له الهيبة، لذا تجده يجد صورته في وجوه الناس من باب السلطة والهيبة التي لا أساس لها. أنه مجرد شرطي أمن، ولكن تخلفه الثقافي صور له اشياء تعد من الخيال.

ربما كل تلك الاحتمالات جمعت فيه... وكلّها واردة.

ربما لعجالة الأمر المكلف به دفعته إرادته إلى أن يأتي للمدرسة باكرا وهو غير مكترث بشياكته، غير مبالٍ بغبرة الأرق المتجهمة في وجهه، كأنه لم يغسل أرق النوم عن وجهه. كان قد دخل قاعة الاختبار برعونة كالسيل الجارف حمل بمجراه فكر الاساتذة والطلاب وذلك السكون الطاغي على قاعات الاختبار، كان عازما على إيصال الرسالة المكلف بها في أوانها بطريقته الخاصة التي يعرفها، والتي تنطبق عليه وتركب سلوكه، فمعظم رجال الأمن يتصرفون بعبثية مدجنة لا يحترمون بها المواطن، لشعورهم في واقعهم

بـالنظرة الفوقيـة التـي تـدربوا عليهـا دون أن تكـون فـي الحقيقـة لأنهـم جميعـا لـم يكملـوا الدراسـة التأسيسـية، وربمـا يطلـب مـنهم استخدام هذا الاسلوب الوقح ليرهبوا البسطاء من الشعب.

المهـم جـاء دون أن يهـتم بقيافتـه لثقتـه التامـة بـأن لا أحـدا يسـتطيع أن يوجـه لـه نقدا. ربمـا لـم يـرَ ذاتـه فـي المـرآة، لـو شـاهد صـورته فـي المـرآة لذكرتـه المـرآة بـالقرف المـتجهم فـي وجهـه، لنبهتـه علـى تهلهـل قيافتـه، لقالـت لـه أغسـل وجهـك يـا غثيـث، أزل عنـه العبـث المتـراكم، مشـط شـعر رأسـك لتبـتهج ببهجـة الصـبح!.... لقـد حـل بيننـا بشـاربه الغلـيظ وصـلعته الجانبيـة اللماعـة كملـك المـوت، جـاء ليفجـر قنبلتـه فـي وسـط القاعـة ومـن ثـم يغـادر بهـدوء وسـلالة دون أن يلتفـت خلفـه. دون أن يرعـى مشـاعر التلاميـذ والأسـاتذة ومشـاعري أنـا بالـذات. حـلَّ فـي الوسـط كقـدر لـم يقـدر الكلفـة التـي كلـف بهـا، لـذا كسـر الجـرة دون أن يراعـي الذوق والكياسة في سلوكه.

حـين دخـل القاعـة، لـم يكـن أحـد ينتظـر دخولـه. انفـتح البـاب علـى مصـراعيه، تجمـد الهـواء لحظـة، وكـأن القاعـة تلفّظـت أنفاسـها الأخيـرة. توقعتُـه ولـي أمـرٍ مضـطرب، جـاء مشـفقًا علـى ابنـه، يحمـل فـي عينيـه قلقـاً أبويـاً ويبحـث عـن بصـيص طمأنينـة. لكـن دخل كالثور للقاعة، داهسا البروتوكول والاحترام تحت نعليه.

شـكله الباهـت المقـرف لـم يخـفِ شـيئًا مـن فوضـى روحـه. كـان قـد خـرق صـمت القاعـة بعبـث، ذلـك الطنطـل الـذي كنـا نهابـه ونحـن صـغارا فـي ليـالي الشـتاء المظلمـة، حـين كنـا نهجـس بظلـه يتحـرك علـى جـدران الحيطـان ونحـن نلعـب فـي المحلـة فـي الليـالي المظلمـة – هكـذا علمونـا أهالينـا، كـي لا نبتعـد عـن حـدود

البيت، وهكذا حل ذلك المارد بيننا دون موعد متوهج ككابوس يلاحقنا.

يا إلهي... لقد عاد، لكن ليس في الحلم ولا على جدران البيت، بل في مؤسسة تربوية ذات لوائح. جاء وتجاهل الإدارة والمدير والمعلمين، لا بطاقة تعريف، لا سؤال، لا احترام. مجرد اقتحام ومشهد يحطم هيبة المكان، يزرع القلق في صدور التلاميذ، ويوقظ أسئلتي أنا التي حسبتُ أنني كبرتُ على الخوف من الطنطل.

من الثابت في منهج وزارة التربية في العراق بأن يوم 3\6 من كل عام هو يوم اختبارات مرحلة البكلوريا للصفوف المنتهية (التاسع والثاني عشر) في جميع أنحاء العراق من كل عام، وكانت مدرستنا قد كلفت بمراقبة طلاب ثانوية السعدية للبنين في مدينة السعدية. وكنت خلال المراقبة مكلف بمراقبة القاعة الأولى، الكائنة في مقدمة الممر قرب مدخل الباب الرئيسي لمدخل المدرسة.

كباقي المدرسين كنت منشغلا بمراقبة القاعة الإمتحانية، والموزعة طاولاتها في عراء الممر لتجاوز شدة حر الصيف، وزعت الطاولات على صفين يفصل بينهما ممر بعرض متر، فيما كان عرض الممر الكلي بحدود مترين.

بناية المدرسة تتكون من طابقين على شكل حرف L الإنجليزية، تحيط بها من الجهة الخلفية بساتين النخيل وأشجار الفواكه الحمضية من برتقال وليمون ورمان، تلك المتدثرة

بظلال النخيل الباسقة، فيما من الواجهة الأمامية يمر الشارع الرئيسي المتجه إلى بغداد.

كان الاختبار قد بدأ للتو، الأسئلة وُزعت منذ دقائق، والسكون كان قد خيّم على أرجاء المدرسة كأنه اتفاق غير معلن بين البشر والجمادات. حتى الهواء بدا وكأنه توقف عن التنفس احترامًا لقدسية اللحظة. ساد الأجواء صمت عام وهدوء تمسك به الجميع، حتى الهواء كان قد هدأ وسكن لوجل الاختبار، فلم نسمع لاغية ولا حفيف شجر، الكون كله كان ينصتُ لهمسات التلاميذ وهم يحاولون تفسير عقد الأسئلة. السكينة طاغية، كست الجدران بحلي الصمت، لا يُسمع فيه سوى همسات أقلام تخطّ على الورق، ونبضات قلوب توشك أن تُسمع من فرط التوتر. لم يكن ذلك الصمت عاديًا، بل كان من النوع الذي يجعل كل حركة محسوبة، وكل زفير مشكوك فيه.

وفجأة انفتح الباب دون طرق، ودخل رجل كأنه خرج تواً من المقبرة. لم يكن أستاذاً، ولم يحمل هيئة ولي أمرٍ، بل اقتحم المكان بنظرات لا تعبأ بمكان أو زمان. دخل كمارد متسلل من أصل حكايات اسطورية قديمة، كطنطل أُفلت من ظلال الجدران ليخرق نظام المدرسة وطمأنينة الطلبة، قطع تلك اللحظة المقدسة – لحظة الامتحان – بفعله الأرعن.

كانت الأوراق ما تزال ناصعة، تعكس وهج الترقّب، والأقلام تتهجّى الأفكار بخجل. سكن كل شيء؛ الهواء تلاشا تماما، والنوافذ انكمشت كي لا تصر أزيزها المعتاد. لم نسمع رفرفة طير ولا صفير ريح، كأنّ الحياة توقفت على محراب قاعة

الاختبار، عرفانا بهيبة الامتحان. ألم يقل نابليون ألف معركة "ألف ساحة معركة ولا قاعة امتحان". المدرسة التي لطالما كانت مزيجاً من الضجيج وصراخ أجراس الصباح أصبحت الآن معبداً للصلاة، كل شيء فيها بات ينصت لخلجات قلوب التلاميذ، وهم يخطّون إجاباتهم كما يخطّ القدر كلماته.

لا جلبة في الممر، لا خشخشة أوراق، لا زعق صرير كما تعودنا في الأيام العادية تخطرنا. حتى الصخب الذي كان يُحلق بين الجدران في الصباحات المعتادة غادرنا. وحدها عنعنة العجلات تجيش في الشارع العام، كانت تمرّ بعيدًا، تلك التي ضجيجها يكسر طوق ذلك الصمت بشيء من البله. لكن ضجيجها لم يفسد السكون بل أكّده.

الكل كان منصتا لهمسات ذاته، مجتهدا في عمله، منشغلا في أنهاء مهامه بالوقت المناسب، وبالذات هؤلاء الطلبة. هؤلاء الذين كانوا منشغلين في تفسير ماهية الأسئلة، منشغلين في تسلق صعوباتها وتفسير حيثيات فكرتها، لينالوا أعلا درجات التشريف التي تؤهلهم دخول الجامعة التي يتأملوها.

الكل مشدودة أعصابه لأنهاء واجبه على خير. الطلاب، الإدارة، المدرسون، عمال الخدمة، المنظف، الحرس، الكل كان يجهد في أضفاء جو الهدوء والسكينة على سير الاختبار، حتى نسائم الصبح قدرت الظرف وتوارت خلف حاجز الاحتراس والسكون، في حينه لو سقطت ورقة توت من غصن شجر لاستشعرنا بها.

كنت أهجس بالزمن قد توقف عن الجري تماما، حيث بثُ أسمع شهيق وزفير التلاميذ لشدة الانضباط والتركيز الدائر من قبلهم على ورقة الاختبار، إضافة لحسن إدارتنا لسير الامتحان، لتمضي الاوقات دون تعقيدات ومشاكل.

كنتُ أهجس بهسيس القلق وهو يندلع في دواخلهم، يربد مشاعرهم الفيّاضة وهم يحاولون سبر أغوار الأسئلة كمن يفك طلاسم خريطة قديمة ليؤكد الاتجاه. لم تكن لغة الامتحان صعبة فحسب، بل لغة الخوف والتأويل، مهما كان الطالب واثقا من نفسه فلابد من أن يرتبك وتهتز ثقته بنفسه. كانت حرارة النفوس تطفو في الهواء، بثُ اسمع دردرة القلوب وهي تجد، ورجفة الأصابع حين تكتب ثم تتردد.

كنا غارقين في سكينة مهيبة، لا صوت يعلو فوق ارتجاف الأقلام وهي تبحث عن الكلمات بين أغوار الفكر. لا حركة سوى همسات الذهن المتوجسة من تفسير أسئلة اللغة الإنجليزية. كانت اللحظة مشدودة كوتر، مشبعة بالترقّب، حتى أنفاسنا خفتت كي لا تُربك صفاء الأذهان.

وعلى حين غفلة إنهار ذلك الصرح حين دخل الشيطان وسطنا. دخل من المدخل الرئيسي، القريب من القاعة التي أشرف عليها، تراءى لي بهيئة الباعة المتجولين أو صيادي السمك وهم خارجون من البحر. كان مجرد من الشياكة، أحالته الطبيعة لفلاة قاحلة بحساسية أعمالهم التي تتطلب السرية. بعنجهيته؛ كأنه ود سد ثغرات النقص المشعبة بها شخصيته، أشعر بهؤلاء مساكين، كمرضى نفسيين فرضوا

على المجتمع، همهم في عملهم كسب ثقة أسيادهم ليس إلا. طبيعة أعمالهم ملاحقة الأخرين دون مراعاة الجوانب الإنسانية والنفسية والأدبية والاجتماعية والثقافية، تهجس بهم كالكلاب المسعورة منزوعي الرحمة، يمتازون بوفاء أعمى ومطلق لأسياده..

باختصار كان ذلك الشبح هو رجل أمن مكلف من قبل دائرة الأمن بإيصال رسالته لي، دخل القاعة بعنجهية واضحة، مناديا بأعلى صوته الجهوري، وكأنه ينفخ بقربة ليتضخم ذلك الصوت حتى يصل الجميع، مناديا بأعلى صوته:...

– من هو الأستاذ عصام؟

توقفت الحياة للحظة. انقطعت خيوط التركيز، تبعثرت العقول على الأرض كأوراق ممزقة، تحولت الحالة من سكون ثابت لعبث وفوضى، أثر بسلوكه على الجميع بما فيهم التلاميذ الذين انقطعت سلسلة أفكارهم بتحولهم من موقف التركيز إلى موقف الفوضى، بعقدة لا تخصهم ليتبعوا ما يدور في جوفها وحولها، صاروا ينظروا إليّ نظرة استفهام، كأنَّ شيئًا جللًا وُلد أمامهم وجزل اصغائهم.

بعد استفساره بأسلوبه الفض فلابد من لاحقة ما تتبع استفساره، وخاصة عملية الاستفسار المتشنجة تهجس خلفها أمر هام، فيه شيء من الأهمية، شيء من التشعب والإرباك والغموض، لذا الكل سعى إلى تتبع تلك اللاحقة بشغف وفضول وبالذات أنا، أنا المقصود من تلك اللاحقة، أنا

صاحب تلك الفتنة التي أولعت النار في عيون الجميع لمعرفة ما خفي من الحكاية.

كان قد انتبه عليه الجميع بضمنهم مدير المدرسة الأستاذ محمد، الذي كان يتابع عملية الأشراف في القاعة الثانية القريبة عني أنتبه على شرطي الأمن، عندها أجبته بنبرة حادة مستفسرا:...

- خيرا أخي لماذا تصرخ؟ أنا الاستاذ عصام ما الأمر؟

أجاب بنبرة مرصوفة بالغرور، بنبرة الواثق وبهدوء، كأنَّ وقوفه لا يحمل رسالة فقط، بل استعراضًا مخزيًا للسلطة، ورسالة مبطّنة مفادها: اصغي لي واتبع ارشادي، لسنا في حقل التربية، قال لي:....

- أخي الكريم أنت مطلوب في دائرة أمن ديالى قبل الساعة الثانية عشرة ظهرًا. وما على الرسول إلا البلاغ.

وما أن أنهى رسالته حتى هجست بحالتي قد أفرغت جبروتها ومحتواها من جَهْد وحَيَوِيَّة وحِذْق ودَأَب وسَعْي ونشاط وألق، انقلبت أحوالي رأس على عقب، وكأنه قد طعنني بنصل الغدر فأفشى طاقتي كلها كبالونة شكتْ بدبوس فزفرت محتواها، لقد أمتص حيويتي تماما كأني لم أكن هناك..

قلت له باستغراب شديد وكأنَّ الخوف قد خزق القلب وشلَّ المخ والأطراف:.....

- أنا؟؟؟؟.. لِمَ؟؟؟...

سطت الدهشة على وجهي، حيرة صماء كبلتني، صنبور الفزع تفجر في أوتار صوتي، الرهبة سرحت بنظرات عينيَّ، ما عدت أتحرك عن موضعي، الضعف والهوان ماجا كالدم في عروقي، شنجتْ الأعصاب، جعلني أتخبط في سلوكي، بان عليَّ الاستهجان من صعقة الخبر المر، كجريح بات يلملم أطرافه. طرأت علامات الاستفهام والاستهجان بشكل واضح على ملامح وجهي، تحولت بلحظة من حالة زهو وألق لحالة فظة، سمجة، متشنجة، كمن لونَ وجهه بصبغة الكركم والزعفران...

شعرت بطعنة غدر، لذا خرجت نغمة الاستفسار من فمي متهتكة، باردة، وكأنَّ في كلماته سم لاح جسدي، أطفأ النور بذاكرتي وقلبي. فقلت له:...

- أنا ....لماذا؟ ... ماذا فعلت؟....ماذا جنيت؟..

بذلك الدبوس كانه قد خزق عالم السكون والصمت داخل قاعة الاختبار، فانبرى الجميع يستفسر في داخله عن حجم الكارثة التي افتعلتها، ليأتي ذلك الرجل الفض يفضح سري أمام الاساتذة والتلاميذ. علما خوفي كان طبيعيا جدا، حيث من يدخل دائرة الأمن حتى لو زائرا؛ ربما لن يخرج منها إلا ميتا أو معوقا أو مغثوثا. ذلك هو سبب الرهبة.

بمجرد أن أنهى مأموريته، خرجتُ من دائرة الصمت لعالم الفوضى والاستهجان، صرت أرى كم الاستفسارات تفيض

فـي العيـون المتحدجـة بـي، بعـض النظـرات فيهـا ريبـة وشـك بقوام سلوكي. كأني افتعلتُ جناية ما ولا أعرفها.

بكلماتـه المسـمومة أراق حفيظتـي مثلمـا أراق حفيظـة الآخـرين، كـان ممكـن أن يكـون أفضـل سـلوكا ممـا كـان، يكـون أسـهل تعـاملا، أرقـى سـدادا.. كـان ممكـن أن يبلـغ مـدير المدرسـة بكـل هـدوء، ومـن ثـم يسـتدعيني لغرفـة الإدارة ويبلغنـي عـن أصـل العقـدة والمشـكلة، وبـذلك يحفـظ كرامتـي وكيـاني مـن سـخط الألسـن والعبثيـة التـي أضـحت تلاحقنـي، كـان بإمكانـه أبعـادي عـن دائـرة الشـك التـي نكلـت بمصـداقية سـلوكي أمـام الجميـع مـن معارفي واصدقائي.

بهدوء الواثق رد على استفساري وهو صاعر الخد قائلا:----

- ما عليَّ إلا البلاغ.. لا تتأخر.

أخبرنـي بـذلك الأمـر ثـم غـادر المدرسـة تاركـا الـذهن يغـرق فـي معمعـة التفكيـر والتحسـب، بحيـث صـرت أجمـع واطـرح شـتات الأفكـار دون أن أصـل لنتيجـة تشـفي غليلـي. إذاً كـان هـذا الشـخص هـو رجـل أمـن، مهمتـه إيصـال رسـالة عاجلـة لـي، جـاء يبلغنـي بأخطـاء أو خطـأ مـا قـد ارتكبتـه دون أن أعلـم نـوع الخطـأ، أو قـد أكـون أخطـأت ونسـيت خطئـي دون أن أتـذكر شكل الواقعة التي جنيتها.

هـذا الرجـل لـن يـأتي مخطئـا ولا جزافـا ببلاغـه دون أن يكـون متأكـدا مـن ذلـك، دون أن تكـون هنـاك شـرارة خطـرة أحـدثتها بنفسـي تمـس أمـن الدولـة، لـن يـتكلم إلا مـن خـلال مصـدر

موثوق، مهمة الأمن هو الحفاظ على أمن الدولة من العابثين، حيث هم يعرفوا تفاصيل حياتنا اكثر مما نعلم، يتبعون اخطائنا بتجسس وتحسس وترنم دقيق.

في لحظة، انقلب كل شيء. ما عدتُ واقفًا في قاعة الامتحان، ولا مشرفًا على تلاميذ يطاردون المعاني في نصٍ إنجليزي صعب؛ بل وجدت نفسي منفصلًا عن المكان، أنزلق بصمتي إلى داخل رأسي باحثا عن سر العقدة. غادرتُ القاعة إلى متاهة داخلية موحشة، أبحث فيها عن غلطة قديمة، عن ثغرة نسيت أن أسدّها، عن كلمة قلتها في غير وقتها، عن همسة حرة سُجّلت في عيون لا ترحم.

فتّشتُ في رفوف ذاكرتي كمن يُقلب دفاتر حساباتٍ قديمة، يبحث عن سطر مهتزّ، عن فتنة غير مقصودة. لم أجد سوى هواجس ليس لها محل في العقدة. وأمام ذلك الغريب البليد، الذي اختار أن ينفض رماد الشك على رؤوس الجميع، شعرت أنني مكشوف... عارٍ في ساحة المدرسة.

هو لم يُبلغني فحسب، بل سلّمني للريبة علنًا. سُحبت من بين زملائي دون فرصة للشرح، أمام عيون الطلبة التي انطفأ فيها احترام اللحظة، وتحول التركيز إلى رعبٍ جديد لا وجود له في ورقة الامتحان. إذا المسألة ليست عابرة، ولا يمكن الاستهانة بها، ولن يكون مشتبها بي، أو ظل طريقه أو أخطأ في تحديد الهدف..

لا أحد يجهل طبيعة المكان. دائرة الأمن ليست مكتب بريد ولا مركز خدمات المواطنين؛ إنها المؤسسة التي لا يُزار بابها إلا خلف نداء مريب، ولا يُفتح ملفها إلا ليُغلق على صاحبه بإحكام.

من يدخلها، يترك خلفه اسمه، وشخصيته، وظلّه. وقد لا يخرج منها سليمًا، لا ذهنيًا، ولا جسديًا. البراءة فيها ليست نجاة، بل تأجيل للعقوبة. وإن أثبتت براءتك، فإن أقل ما تناله عاهة في ركبتك، أو ندبة لا تنسى في روحك... ثم يقال لك، بهدوء ساخر:....

نعتذر عن الخطأ.

هكذا ببساطة. بعد الجلد، والتعليق، ومحاكمة صامتة لا وجود فيها لمحامٍ ولا لضمير. أما إن تجرأت على ما لا يُقال - همسة عابرة، رأي، أو حتى نكتة لا تعجب السادة - فذلك جرم لن يُغتفر. سبّ الرئيس ليس رأيًا في قاموسهم، بل إعدام مقنّع بغطاء من القانون المشوَّه.

القضية ليست في الجُرم... بل في من يراه جُرمًا.

ما إن نطق المارد بعبارته الثقيلة: - أنتَ مطلوب في دائرة أمن ديالى. حتى شعرتُ أن الأرض انسحبت من تحت قدمي. تلك اللحظة لم تكن مجرد استدعاء... كانت إعلانًا خفيًا عن نقلي من الحياة إلى القدر الآتي.

هُزِزتُ من جذوري. شعرتُ بأن ذهني تشظى، راحت تتناثر في دروب الماضي، أبحث بينها عن ثغرة، كلمة، هفوة، حتى صدفة عابرة. أيّ شيء يوصلني إلى يقين: لماذا أنا؟ لماذا الآن؟

صارت ذاكرتي دفاتر مفتوحة تقلبها العاصفة، أقلبها بنهم مذعور، أفتّش عن جملةٍ نسيتها، عن غلطة تخطيتها، عن ومضة اعتقدت أنها سحر... فلم أعثر على يقين يجيلني إلى غيي.

الجسد تخاذل، الأطراف تراجعت عني، غزاني شعور أشبه بسكب قطران من الصديد الحارق على قفا رأسي، تسلل حتى صدري. لم تعد قدماي لها علاقة بالجسد، ولا اسمي يخصني... أصبحت فجأةً متهمًا دون تهمة، مجرد اسم تحت مطرقة الأسئلة.

بت أعيش لحظة صراع مع نفسي، مع فكري، راجيا أن أتذكر أية شاردة توصلني لمبتغاي، إلى الهدف الذي جاء من أجله ذلك المارد، الذي وضعني في قوس الجريمة، دون أن أصل لحقيقة العقدة.... بت أشعر بقدمي ما عادت أتمكن من تخطي وقع المفاجأة الغير سارة.

الخوف ليس عاطفة عابرة، بل قوة خام كامنة في أعماق الجسد. له طبيعة خفية تشبه التيار الكهربائي، يسري بانسيابية عبر شبكة الأعصاب، فيغزو المفاصل والعضلات والدماء

دون مقدمات. إنه يتسلل نحو أكثر المناطق رخاوةً، نحو تلك النوافذ الدقيقة فينا، التي لا نملك السيطرة عليها.

ما أن يحل الخوف، حتى تبدأ موجاته بتحليل الحدث داخل خلايا الدماغ، فيخفت منطق العقل ويشتعل جسدك برجفة لا تملك لها تفسيرًا. العبارة تفقد شكلها، الألوان تُطمس، والبصر ينغمس في لحظة من التشويش البصري والذهني، حيث تختلط أطياف الحدث، ويتوقف الزمن عند حدقة عين عالقة في دوامة المجهول.

هو لا يكتفي بنخر الجسد، بل يحرث الفكر، يبعثر اللسان، يشعل الحيرة في أقصى نقطة من الوعي، ثم ينسحب مفسحًا المجال لارتباك يتجول في الجسد... لا تُدرك معه ما إذا كنت واقفًا أم تهوي.

أنها مسألة طبيعية أن يشعر الأنسان بشيء من الخوف، ولكن أن يستدعى لدائرة الأمن فتلك الحالة تخرج عن نطاق الخوف المألوف لدرجة الرهبة، الحالة فيها جزع قسري لا يوصف، لأنها دائرة الأمن، أي دائرة سلخ القيم..

الشاب طارق الذي دخل لدائرة الأمن بصحته وعافيته بتهمة انتمائه لحزب معارض، خرج منها بعاهة مستديمة ولسان مشلول، أخرسّ، ربما مثل ذلك الكثير!.. هذا هو المغزى الحقيقي وراء ذلك الخوف، بسبب الترهيب الدائم المسلط من قبل زمرة النظام على أعناق الشعب، هؤلاء الذين لا يفهمون سوى لغة السوط بإدارة المشكلة، تحتمي بشلة من الكلاب

المسعورة. يزايدون على حب الوطن والوطنية بخلاف القياسات العامة للشعب وعلى حساب درجة الشرف والمزاج والهدف، هؤلاء هم أدوات تنفيذ النظام، يلتصقون بالمتهم أشبه بغراء صمغ صيد الفئران، بحيث ما أن يشّكّوا بانحراف شخص ما؛ حتى يلقى القبض عليه باللحظة، قيدوه بغل أعمى.

صرنا لا نتهيب منهم فقط؛ بل نتهيب من الأنا القابعة في أعماق نفوسنا، من أصدقائنا، من عوائلنا، صرنا نهرب حتى من الشوارع والأرصفة التي يسيروا عليها، من المقاهي التي تجمعنا على الألفة، من الذكريات التي نهجع إليها في دواخلنا. من أمور تربطنا بالناس بطيب وسذاجة... كأنهم لهم مجسات وعيون في كل الأماكن؛ حتى الشياطين تهاب مواجهتهم وتوسوس بأسمائهم، تعينهم على صيد الفرائس بسهولة نتيجة الخوف والوشوشة الداخلية. لذا كنا نتبع ارشاداتهم كالخرفان، دون أن ننبس بشفة. نفذ ثم ناقش!!!! عبارة كم فيها من بهتان وألم، لا تدعك أن تفكر أن كان التنفيذ يعد ضمن القيم، أم خارج نطاق العرف والقواعد؟.....

يوم غليظ ذلك اليوم الذي اتصف بالغطرسة والتَصَلُّف والتَطَاوُل والتَعَجْرُف دون أن تتطابق قراءات ذلك المارد مع شرائح فكري المرنة البسيطة، دون أن توائم مع نمط سلوكي واسلوب حياتي بقدر شعرة. شرع ذلك اليوم البغيض يتقدُ في حياتي كنُذرٍ وسط احتدام وامتعاض تطلعاتي المستقبلية. كان الحدث أشبه بلغم عبث، تفجر على حين غفلة تحت قدمي، ليقلب مسرى حياتي رأسٍ على عقب، بحيث نُثرتْ غبرة

عنجهيـة ذلـك المـارد وغبائـه فـي حقـول الـود الممتـدة مـا بينـي وبـين إدارة المدرسـة مـن جهـة ومـا بينـي وبـين الاسـتاذ حسـن مـن جهـة أخـرى. لقـد أظللنـا، أغشـانا، دون أن ننتبـه علـى حجـم الغلـة التي أفتعلها بتلك اللحظة...

مـا أن حـلَّ حتـى أصـابنا بعصـف شـظاياه ونثـار سـخطه، أصـاب مرفـأ الرضـا والأمـان فـي قلبـي وعقلـي، جعلنـي أنـزوي خلـف الهـواجس والظـن المُرِبِكَـة، متبعـا حالـة الانكسـار التـي جرفتنـي لمهـاوي العنـاء دون إرادة، جـزل معطيـات الرجـاء والأمـان، جعلنـي أرتـاب ممـا يـدور حـولي مـن لغـط، اهجـس بـذاتي مهـزوزا، مـدانا، كمـن لـم يجـد فـي جعبتـه الفاضـية غيـر النـزف والهوان والحيرة..

منـذ ذلـك اليـوم، أصـبحتُ أتحفّـز للحـذر كمـا يتـنفّس الخـائف الرعـب دون أن يـدري. كـأنني أُراقَـبْ لا مـن جهـةٍ واحـدة، بـل مـن كـل الجهـات: مـن ظـلال الجـدران، مـن التقـاء الشـوارع، مـن حركـة العـابرين، ومـن أصـوات الـداخل فـي رأسـي. أحسسـت أننـي مكشـوف حتـى لخطـواتي، حتـى لهمسـات لسـاني حـين لا أتكلم.

ذاك الموقـف لـم يكـن عـابرًا، كـان لغمًـا انفجـر فـي الـداخل، فـدمّر شـيئًا مـن الثقـة بالنـاس وبالعـالم. قتـل البهجـة دون إنـذار، وسـمّم القـدرة علـى المراهنـة والانطـلاق. سـحبتني التجربـة عـن سـكة الحيـاة التـي كنـت أعرفهـا، نحـو درب غريـب، لا أعرفـه، ولا خطواتي فيه ثابتة.

كنت في ما مضى أمشي بين الأشواك بقدمٍ حافية وقلب مطمئن. أسير فوق فظاظة البعض، وفقر الحياة، وخشونة الأيام دون أن أتعثر في نفسي. لكن تلك اللحظة جعلت الضعف يظهر في داخلي كخيطٍ أحمر لا يمكن تجاهله وتخطيه، ولا يمكن نسيانه.

ما حدث لم يكن مجرد استدعاء. كان انحرافًا للمسار، فتح هالة من الغموض في رأسي، تركني أعيش في الظلّ، مترددًا بين صمتي وصمتي، ومُعلقًا في احتمال لا أجرؤ على سؤاله: لماذا أنا؟

ذلك اللغم وأن كان قد نبهني على واقع محيطي؛ إلا أنه أفقدني توازني وثقتي بنفسي وبالمحيطين بي، جعلني أتخوف من أقراب الناس إليَّ، أتحسس بعد الكلمة في فمي حتى وهو مغلق، أتحسس طنين الموج الهادر في مخيلتي وهو يخرق مسامع أذنيَّ. أصبحتُ أتحسس وقعها، أخشى اهتزازها، أخشى أن تنقلب فجأة إلى تهمة.

صرت أحسب للكلمة ألف حساب، أعدها نوع من اللغط العابث، من صنف المحرمات، خوفا من أن ينعكس صداها إلى صدري، لأنني أدرك أن صدًى واحدًا قد يتحول إلى رصاصة شاردة، تطلقها ريبة، وتشحنها ضغينة، تلك الكلمة قد ترسم لي علامات استفهام وقلق لا أستطيع تجاوز وقعها. لذا بت أتحاشى المحيط والمجازفة في علاقاتي قدر الإمكان.

أقحمتني التجربة في قلب الاستهداف، وضعتني بين الفرضة والشعيرة، في مركز لم أطلبه ولا عرفت كيف وصلت إليه. أصبحتُ في صُرّة الهدف، كأنني محبوس داخل كرة زجاجية شفافة، يحدق فيها الجميع دون أن يسمعوا صوتي. كأنَّ العالم كله استنبط طاقته من لحظة الحدث، فانطلقت إشعاعاته تحاصرني من كل اتجاه.

وددت أن أهرب من زنقة حكايتي العصية على الفهم، دون أن أستطيع شرحها ومحاكاتها ومهامستها لإثبات أصل براءتي، أو لتبيان حجم اللغط الحاصل في شباك العقدة.. كلما حاولت أن أفسّر، أن أشرح، أن أقول: أنا لست ما تتخيلون - خانتني اللغة، غصّت بي الحكاية. حكايتي - تلك الزنقة المعقّدة - أضحت عصيّة على التفسير، تبتلع كل محاولة مني لمحاكاتها أو الاقتراب منها. لم أستطع حتى أن أُحادثها سرًّا.

وهكذا، ظلّ اللغط قائمًا، والعقدة تتشابك، وأنا أدور في دائرة من الشكوك لم أكن صانعها... بل مجرد ضيفٍ ثقيل على مائدتها.

مدير المدرسة

حين زحف الظلّ نحوي كنت في ذروة حيرتي، مشغول البال، أضرب أخماس الاحتمال بأسداس اللايقين، والذهن فارغ رغم اكتظاظه بالصور. في تلك اللحظة كان قد توقف مؤشر الفكر في رأسي، متبعا تقلبات الصور وهي تفيض في الذهن بشكل عبثي دون هوادة، تدفقت المشاهد كقناة تلفاز تالفة، تومض بصور مشوشة، لا تستقر على لقطة واحدة... أحاول، عبثًا، أن أربط أحداها بما حدث، أن أفك شفرة ذلك الحدث الذي انقضّ عليّ دون رحمة، دون جدوى.

وفي خضم هذا التيه، دخل مدير المدرسة الأستاذ محمد من القاعة المجاورة مغيثا، مهتما بشأن أمري. بدا كأنه يعرف شيئًا عن أمر الحكاية، شيئًا لم يُقَل. تقدّم نحوي بخطى هادئة، تشي بالتماسك لكنها محمّلة بثقل الحذر، وكأن حضوره بحد ذاته محاولة لامتصاص الصدمة التي وضِعتُ فيها فجأة.

كنت كمن يقف في منتصف الطريق ثم طُلب منه التوجّه نحو المجهول. لا أعرف ما هي التهمة، ما العقدة، ما أصل الحكاية، وكل ما أعلمه أنني أصبحت فجأة **المعني بالأمر**. عندها مدّ المدير يده ليحمل عني شيئًا من وهج الزنقة، لكنه لم يملك ترياقًا لذعري، ود تخفيف وطأة الزنقة وعما ستعتريني من موجات رعب ومنغصات سين جيم من التي ستصب نارها بحجري، لا أعرف كيف سأواجه زنختها وأنا ليس لديَّ فكرة عن ماهية المشكلة والعقدة التي أتهمت بها؟..

لقد طرقت أذني أصوات صخب لا أدري مصدرها، أصوات صفير وجلجلة وقرقعة وصرصرة شتى، لغط من دوشة الأصوات التي أفتعلها جمع الحضور كردة فعل عما سمعوا وعما تخيلوا، غدتْ الدوشة تدور في صيوان أذني، أهجس بها تنبعث من سكون الغاب، من صدى الجدران، من العيون التي صبتْ جام حيرتها واستفساراتها بحجري، من الحديث الشاحب الدائر في الوسط، من العصف الذي أجتاح طاولة الحدث.

في ذروة الالتباس وأنا منغمس في تلك الفوضة الدائرة حولي؛ هجست بذاتي نحتت خارج كوكب المدرسة، في مكان بعيد من الصمت الذي أطبق على ذهني ولساني، متبعا حيثيات العقدة في وادٍ سحيق من الماضي دون أن أرسو على بر، وصار فكري كريشة تطير عبثًا في دهاليز الأمس، يبحث عن عثرة سابقة، عن صدفة مشبوهة، عن ذكرى قد تفسّر ما لا يُفسَّر. باحثا في أروقة الزمن عن مفاتيح لفك شفرة اللغز المرمي في أحضاني دون جدوى..

لا أعرف حينها أن كنت أقف على كوكب الحياة أم على كوكب الجزع الذي خطفني من عالمي لعالم الغاب.. لقد جالت مراكب الذاكرة في متاهات الشك، مضت بمسارات أزمنة متعاقبة تتعقب الحدث في دماسة العتمة. أهجس بالروح شذت عن الجسد، باتت تبحر وحيدة بين عوالم الحيرة، هاربة من موجات الجزع التي دلقتها لعالم الريبة والعناء والتهمة، تلك التي أصبحت حاجزا منيعا تقف ما بيني وبين الحقيقة والواقع

المحيط بي. شعرت أنني داخل كرة زجاجية ضخمة، لا تحميني بل تعرّيني. الكل ينظر إليَّ، الكل يتكهّن، وأنا في المنتصف، أشبه بنقطة وضعت تحت المجهر دون إذن.

هكذا عزلت نفسي تماما عن ما يحيطني، وكأني حجرت ذاتي عن واقع زملائي، لقد توقف مجرى التفكير تماما عند لحظة التجني التي أودعتني قيد سجنها، توقف الذهن عن إفراز صبغة تفسير الفكرة والانتشاء، كأنما تحولت بذاتي من عالم مرن لعالم أجرد، لا يرتاده إلا المجانين والمقامرين.

في تلك اللحظة الآنية، الحرجة، تحولت لكائن جديد لا يشبهني قط وبمواصفات فريدة غير موجودة في البشر، كأني مررت بحالة التسامي، تحولتُ لدخان أطير بين العيون الماحقة وأنا لا أدري ما يجول ببالي وما يرتاد خاطري وتفكري؟ كنت أنظر لجهة واحدة فقط وباتجاه مستقيم الذي حدده لي رجل الأمن، نحو صلب العقدة التي لا أعرف عن ماهيتها ومصدرها شيئا يذكر، دون أن أهجس بتلك العيون من حولي...

- ماذا فعلت؟ – ما الذي اقترفته لأُسحب هكذا إلى الضوء كأنني صيدٌ ثمين؟
ماذا جنيت؟
لِمَ كل هذا الجزع والصخب الذي حل بي على حين غفلة؟
لِمَ كل هذه العجلة المرادة في استدعائهم؟ ما هو الأمر المهم الذي جعلهم لا يتأخرون باستدعائي؟ لمَ لمْ

يطلبوني من البيت؟...الخ من لغط الكلام والاسئلة التي شغلتني.

لم تكن أسئلتي اعترافًا ولا دفاعًا، بل نداء داخلي يتهدج في رأسي دون توقف. كأنني فجأة أقف وسط عاصفة، والريح تسأل لم أنت هنا؟.... طالما مطلوبا من قبل جهة أمنية، إذا هناك أمرا مؤكدا مهما، جليا، لا يمكنهم تجاهل حيثياته أو تأجيل وقعه إطلاقا. قد يكون الأمر فيه خطورة عارمة تخص أمن الوطن، أو سياسة الدولة، وفي ذات الوقت ذلك الأمر المهم يرتبط بي أنا!!!.. لكني لا أعرف عن هذه العقدة شيء، ولا عن اساسها ومصدرها، يا ترى ما هو المطلوب مني؟ هل أتهمت من قبل جهة ما؟؟؟؟؟....

يا ترى؛ ما هو ذلك الشيء المهم الذي فعلته لأشغل الدولة بأمري؟ أصبحت في تيه من أمري...

ليس هناك أمر واضح في جدول الذاكرة، التي تراخت وأصفرت أوراق شجرتها، تبخرت مقوماتها، لا تسعفني على عبور قنطرة التشتت، أشعر بخارطتي ورقة بيضاء خالية من خطوط العرض والطول والتضاريس، لا شيء فيها يرشدني لغيي، خالية من الشخابيط تماما، لا تسَوّد ثناياها شائبة لأتبعها. أضحت كذاكرة طفل بريء أو رجلٌ كهلٌ أصابه الزهايمر، صُفِرَتْ تماما، تحولت لصفحة بيضاء فرغت من الزمان، لا يتخللها موقف بارز قط. أتقلبها بيدٍ مرتجفة علّي أن أجد فيها نقطة بداية جديدة، دون أن أجد..

لـم أتـذكر شـيئا يسـعفني لمجـاراة الموقـف، فـي ظنـي لا أعتقـد بـأني قـد تجـاوزت حـدود السـلوك العـام قـط، دائمـا مـا كنـت أسـير بجنـب الحـائط كمـا يقـول المثـل المصـري.. لكـن ذلـك لا يغيـر مـن الأمـر شـيء، الكثيـر مـن الأبريـاء اتهمـوا وفقـدوا حيـاتهم دون أن تنجـيهم بـراءتهم، لـم يسـتطيعوا دفـع غـل التهمـة عـن أنفسـهم، ذهبوا ضحية الاشتباه والخطأ، كتشابه الأسماء المدانة....

ذاك مـا كـان يرهبنـي ويغيظنـي ويبغضـني، الرهبـة أخـذت دورهـا فـي النـزف، لـم يكـن خوفًـا عـابرًا، بـل دفقًـا بيولوجيًـا مُـرًّا - نـزف بطـيء مـن أعمـاق البنكريـاس، ومـن خبايـا المـرارة، كمـا لـو أن إنزيماتهـا تكوّنـت مـن لعنـات لا مـن عناصـر كيميائيـة. حتـى تغيـر لـوني وتبـدلت صـفاتي، أضـحت الحالـة تـؤثر علـى سـلوكي وكيـاني لارتفـاع هرمـون الأدرينـالين فـي الجسـد، لازمتنـي قشـعريرة شـفيفة فـي الأطـراف، انعكسـت صـورتها علـى مـرآة الصـمت السـائدة، لا بـل جردتنـي مـن محيطـي لأصـبح يقينـا جـزء مـن عـالم الغيبيـات. هكـذا وجـدت حـالتي تـنكمش علـى ذاتهـا، صـغرت كثيـرا، دنـت مـن الصـفر، أضـحت مـن عـالم اللامحسـوس، فضـت مخزونهـا، غـدتْ كهشاشـة القطـن، كقطعـة قمـاش مشـرورة علـى غـابر الـزمن تتلاعـب بهـا الأهـواء. لا ملامـح لـي، لا صـوت. لا شـيء سـوى كـائن يتـنفس الخـوف دون أن يعرف لماذا وكيف يزفره.

ترى بما أتهمت؟...

ذلك السؤال علق في الذهن، بدا يأكل بحشاشة القلب، يهرش لب المخ، دون أن استطيع أن أرسي على بر، وكأنَّ مرافئ الحياة بغضت مراكبي فلا تود أن تستقبلها..

صرت أناجي ربي بصمتٍ يتهدج كالنَفَس الأخير: يا إلهي... أسعفني، ذكّرني، دلّني على أي خيط يسحبني من فك البلاء، يا إلهي؛ لا تدعني فريسة بين مخالب الوحوش التي تنتظر الفريسة أن تدخل عرينها..

أنشده الفكر بملابسات وإرهاصات وإفرازات عصارة الذهن دون أن تركن ذاتي لقيعة تكيلني تلك الورطة، والتي أشعر بها قد تحولقت كحبل المشنقة حول عنقي، بل تجاوزت حدود المنطق وباتت تعبث وتعفر بحياتي. أصبحت مشاعري أشبه بضوء عجلة الحريق الفسفورية، تنبأ المتواجدين حولي عن حجم الحريق العابث في أعماقي...

كان قد مر شريط الأمس بمجمل صفحات الذاكرة، مر بسرعة البرق على كل تفاصيل حياتي السابقة صفحة صفحة، دون أن تقدح نقط حساسة بارقة في الذهن، دون أن أظفر بشيء مما أود تخيله. بت أحاسب الذات عن أفعالها، يا ترى؛ بمن التقيت؟ ماذا فعلت؟ ماذا قلت؟ أين ذهبت؟ مع من تحادثت؟...الخ من لغط وتخبطات شلت قدراتي الفكرية، زحزحت ثقتي بنفسي، دون أن استطيع أن أجل نفسي من الوحل الذي علقتُ به، دون أن أجد في دفتر أمس بارقة علاقة شاذة تربطني بحدث اليوم، تعينني على جلدي، تشك ذاكرتي بسم شوكها.

بـدأت أسـأل الأنـا بريـب مـن أمـري، عـن الحيـرة المشـاعة التـي غطـت علـى الـذهن، عـن العبـث الـدائر فـي أروقتـي، عـن المسـتحيل الـذي أرهـق ذهنـي. بـدأت أسـأل وحبـات الريـاء المنهمـرة مـن سـخط القـدر تبلـل ذاتـي بالوجـل، تتهمنـي، تصـفني بـأني لسـت سـوى صَـوّانُ أجـرد، سـوى صـورة خـذلان مـن وحـي القدر، رغم ثقتي الكبيرة بذاتي.

باتـت الأنـا تشـاركني حيرتـي، تـنفضُ غبـار السـكون عـن وجلـي الـذي أضـحى يتـراءى للغيـر عـن بعـد كإشـارات التنبيـه الضـوئية، لتزيـد مـن شـعث الضـباب المحيطـة بشـرودي.. أطبـق الصـمت علـى ذهنـي يـؤرقني، برقـت دائـرة الضـوء تتسـع فـي محيطـي دون أن أرسـي علـى فكـرة تبـرد مكينـة الحـرث فـي أعمـاقي، صـار المـخ عبـارة عـن مـداس فـي قـدم التهمـة، عـن منخـل تتسرب منه الأشياء دون أن أمسك بها.

أضـحت هشاشـة الفكـرة تنـدثر فـي سـراب الظـن، لـم تعـد إشـارات الضـوء تمـرر الفِكـرة، لقـد غطـى العبـث علـى الطـرق، جعـل الوصول للهدف مبتورا بين الضياع والرجاء.

فـي ذلـك السـكون بـت أقتفـي همـيس الوجـل، مفتقـدا جـوهرة التركيـز، تهلهـل كيـاني، أضـحى بعيـدٍ عـن حقيقـة طبـاعي الصـلدة القشـيبة. خـلال تلـك الفتـرة الحرجـة توقـف الـزمن بـين يـدي، لـم أعـد أسـتند علـى فكـرة أو قاعـدة تثبـت إرادتـي، لـم اسـتطع اقتنـاص عصـافير الفِكَـر الشـاردة، تجـردت الإرادة عـن مسـؤولياتها، صـارت أشـبه بكـرة بـين أيـدي القـدر، عربـة خلخلتهـا الطـرق الوعرة، هكذا تضعضع كياني.

وقبل أن اطلب الاستئذان من مدير المدرسة لأدرك دائرة أمن ديالى؛ أمسك بذراعي الأيمن، ثم تمشى معي حتى حدود باب المدرسة، وادا طمانتي عن أصل المشكلة. وكأنه كان على اطلاع تام بماهية العقدة، لذا ود تطييب خاطري وإزاحة هالة الشك والتفكير العبثي عن رأسي والذي بات يتقفز أمام ناظريَّ كجراد ينشد حقل الذاكرة.

وقبل أن أستأذن منه أسعفني بذاته بوشوشة كلمات في أذنيَّ وهو يطمانني، قائلا لي:.....

- لا تخف يا عصام أنت مجرد شاهد.
- شاهد عن ماذا؟
- أطمأن، أذهب وسيخبرونك بأنفسهم.

لم يستطع أن يوضح لي أكثر من ذلك، ليس من حقه كشف حيثيات العقدة قبل جهاز الأمن، ربما سيكون تصرفه مخالفا للروتين المراد به أو قد أتصرف تصرفا عبثيا ضده. لكنه لمعرفته القديمة بي، ولطول فترة الجيرة التي جمعت بين أسرنا، تنازل عن موقفه وحاول تخفيف من وقع الصدمة عليَّ، كي يهدِئ من روعي، كي لا أتخطى حدود المنطق في سلوكي، كي لا أهرب من المواجهة، كي لا أعطي للحدث أهمية اكبر مما يستحق.

شكرته على موقفه، فقلت له:....

- شكرا لك يا أستاذ محمد، أزلت هاجس الخوف عني..

كان تصرفه في محله، شكرته على إسعافه لي بالوقت المناسب، لأنه فعلا رفع عن صدري هم المواجهة الثقيلة التي أتعبت كاهلي. بتصرفه أعاد لي ثقتي بنفسي، أعطاني دافع لأتحرى عن الواقع الجديد، عن المعضلات التي كبلتني بالشهادة بعيدا كل البعد عن التهم. بت اسأل نفسي:...

- يا ترى؛ شاهد على ماذا؟؟؟؟ لا توجد في جدول الذاكرة عقدة تستحق الشهادة.

بأخباره لي كأنه سكب دلو ماء بارد على الجمرة المتقدة في صدري والتي ارهقت تفكيري، جعلني أشعر بالأمان وأنا أمضي براحة لدائرة الأمن، مبعدا سوء الظن، متيقنا من سلامة موقفي، جعلني أعيش لحظات هدوء وراحة بال، غير درجة تفكيري، صرت أفكر بالشهادة بعد أن كنت أفكر بإنقاذ نفسي من التهمة.

كل شيء كان مبهما لي، بتُ أدور في فلك معمعة حيرة صماء جديد، في فلك الشهادة والورطة، فأمر ذلك العبث لم ينتهي، فالشهادة ليست أقل خطورة من التهمة، إذا كنت أعاني من التهمة لأنجد نفسي؛ فأني سأعاني من الشهادة لأني بذلك سأثبت التهمة على غيري، وقد يكون بريئا. أسئلة شتى دارت في رأسي، نخرت هشاشة الذهن وأنا كالمسطول متجه لمرأب العجلات لأتجه من هناك لدائرة الأمن التي تبعد عني 90 كلم، كنت كضليل، تائه.

يا ترى؛.....

شاهدا ضد من؟.....

عن أية تهمة سأشهد؟...

وبخصوص ماذا سأشهد، هل ستكون الخطورة كبيرة أم؟.

عندها تركت الأمر دون أن أتركه، ككوب صار يدور في فلك ذهني، في فراغ كفراغ الكون الاحداث فيه متباعدة عن بعضها كما هي النجوم..

2- دائرة أمن ديالى

تركت المدرسة متجها صوب مرأب السيارات لأصل هدفي في الوقت المناسب قبل الساعة المحددة ساعة الثانية عشرة ظهرا، كي لا أسأل وألام عن سبب تأخري، كي لا أوبخ من قبل ضابط التحقيق الذي لا يرحم، لو لم تكن القضية مستعجلة لما حدد لي ساعة الوصول..

وأنا أسير في الطريق صرت أردد عبارة أنت شاهد...

أنت شاهد

أنت شاهد

لا تحزنْ، أنتَ مجرد شاهدُ

لا حزنك يُنقص من نُبلك

ولا قلقك يُضيف للقدر مسارًا واجد

كن العين التي لا ترى

واليد التي لا تُغيّر

فبعض الزوايا لا تُجدى فيها مقاومة

ولكن نمرّ فيها كما الضوء يمرّ في المشاهد

دَع الأمور تمشي

لا تعارض مجرى الماء

إن لم تكن بذاتك واثق

وإيّاك أن تفتح عينيك على وجوه الأيام

كانت قد مرّت بها الصواعقُ

انسَ الرجاء حين يكون حطبًا

فالنار لا تشكي من العوائق

اشهد بما غسلته دموعك

وبما ارتجف له قلبك

فالطرق الملتوية لا تُخبرك عن مواقع الخطر

لا تُثقِل كاهل العابرين بصمتك

ولا ترهقهم

بل كن لهم ظلا حين يظنونك شجر

كن فجرا للذين ما عادوا يؤمنون بالصباح

كضوءٍ لا يصرخ

بل يهمس في العتمة بشجون

افترش الصمت

ولا تختبئ خلف السكون

حوّل قلبك إلى معبد لا للآلهة

عندها ستقرأ جيدا

وجل العيون

*****

صرت أدعو ربي على تجاوزي محنة الشهادة بخير، فهي محنة لا تقل وزنا عن محنة التهمة، فيها غل يفوق طاقتي، على الرغم من أني لا أعلم بماذا سأشهد؟ وضد من أشهد؟ أنها محنة في دائرة أمن الدولة عليَّ تجاوز عقباتها، سأكون شاهدا كشاهد مسرحية شاهد مشفش حاجة لعادل إمام.

في ممرّ الإسمنت البارد كنت أعرف من سأقابلهم. ليسوا موظفين... بل جلّادون مُحترفون، وجوههم تشعل الرهبة، ونبراتهم مشحوذة بالمهانة، وأسئلتهم ليست بحثًا عن الحقيقة، بل اختبارات طاعة. هؤلاء ينفث من اشداقهم واعينهم الشرر، تُهَمَهُم جاهزة، بإيحاء أو بنظرة شزرة يجعلون المقابل يعترف بكل شيء دون أن ينغمسوا في لب العقدة. لهم اساليبِهم الخاصة التي تدربوا عليها، هم لا يعرفون شكلا أو معنا

للرأفة. حتى لو كُنتَ شاهدًا، سيتهمونك بالسكوت... فالصمت في عُرف الجريمة جرم، والمعلومة المتأخرة خيانة مؤجلة..

... إذا كيف سأتعامل معهم؟...كيف سأواجههم؟..

على الرغم من أن مدير المدرسة قد أزاح هالة الرعب عن قلبي، إلا أنه لم يرفع الغشاوة عن فكري، كأنه بفعله التقط شوكة الألم من بؤبؤ العين فجعل الصورة فيها مشوشة، لا تزال ضبابية. أنا أمشي الآن نحوهم، وكل خطوة كأنها امتحان جديد - ليس في الوطنية والجغرافيا، بل في الثبات.

باتت جوارحي تتنفس الصعداء، أزيحت عن عيني لعنة السخط، في داخلي كنت قد شكرته كثيرا على صنيعه الطيب.. على رغم من أنه بعمله كأنه أبدل هما بآخر، أبدل جرحا بطفح جلدي، أزاح عرة بندبة...صرت ألومه على فعلته لأنه لم يكمل إحسانه ورأفته، تركني معلقا بين أجنحة التفكير، تركني في وسط الطريق بين المطرقة والسندان.

يا ترى؛ لمَ لمْ يخبرني قبل تلك اللحظة؟ لربما فضفضت له وافصدت العقدة امامه، لِمَ لمْ يشاورني قبل أن تتسخ ثيابنا بمخلفاتها، قبل أن تتفجر العقدة على يد ذلك المشعوذ أمام الأساتذة والتلاميذ، قبل أن تصبح عجينة في يد الأمن وعلكة بين ألسن الناس، كأنها عرض مسرحي متفق عليه، لا ينقصه سوى تصفيق الجمهور؟... لمَ لمْ يسألني عن أصل العقدة التي هو على إطلاع تام عليها؟؟؟؟

بتوضيحه لي فكرة العقدة، جعل نفسه في موضع الشك وجعلني في حيرة من أمري. جعلني أتفرس في وجوه الأصدقاء والمعارف جميعا، صرت أتمعن بخلفياتهم وصداقتهم: أصدقاء الدراسة والطفولة والمعارف. في تلك اللحظة كلهم ارتدوا الأقنعة من وجهة نظري، بت لا أميز بينهم أبدا. في جدول أعمالي وذاكرتي لم أجد صورة تسفر عن خيانة ما، لكنّي أيضًا لم أجد براءة تامة. كأن العقدة نُسجت في غيابي، ثم أُلقيت في حضني دون أن أنتبه.

بتُ أبحث عن سر اللغز الذي عقر أفكاري، بقيت أدور في دوامة القلق، لمْ أبرح دائرة الشك أبدا، تراءت لي كل الوجوه المعروفة مذنبة، على الرغم من أني لم ألمح بها تسويفا أو تجنيا واحدا. بالطبع أقصد أصدقاء الوظيفة والدراسية والطفولة، أما زملاء العمل كنت قد أبعدتهم عن دائرة الشك تماما، لأننا لا نجتمع معا سوى على مناقشة أمور الدراسة، أما أصدقاء الطفولة فليس فيهم من يتصرم في رأيه وسلوكه، وأما المعارف فلا نجتمع قط على مناقشة عقد السياسة.

.. يا رب أسعفني.. على ماذا أشهد؟ وعلى منْ؟ منْ الذي ورطني بهذه الشهادة؟ ووو.. كثرت الواوات بصنيع الأسئلة العقيمة...

في بادئ الأمر مال فكري نحو اتهام المدير ذاته في وضب القضية، فقلت مع نفسي لا بد أنه ضالع فيها، وإلا كيف عرف بأني شاهدا وليس متهما؟. أنه على علم بتفاصيل القضية برمتها، بل يعرف مغزاها وتأثيرها وأبعادها ومنحاها

وغايتها، يعرف سرها ونجواها. هو على أطلال تام بحيثياتها وعقدها وزنختها. حتما أنه يدرك خصائصها ودوافعها وأبعادها. يعرف لغزها وغِواها ودساتيرها. كيف عرف أنني شاهد! قبل أن أعرف أنا؟ من أخبره؟ بل: ما الذي يعرفه أصلًا ولا أعرفه؟ شيء ما في يقينه، في طريقة تهدئته، في نبرة صوته، قال لي إنه لا يجهل الأمر... بل يعلم علم اليقين كل ما يخص القضية، كما تُعرف القصص المحفوظة: بأسرارها، بعُقدها، بروائحها العالقة خلف الستائر. يعرف تفاصيلها، يعرف دوافعها، يعرف متى بدأت وأين ستنتهي... يعرفها حتى فواصل الحروف فيها وسكونها.

ظننت، للحظة، أنه هو من أوعز لغراب البين أن يدرج أسمي في الشهادة.. وأنه، حين أزاح عني الخوف، لم يكن ليُنقذني، بل ليُوجّهني نحو باب لم يختبره أحد سواهم. طالما يعرف تفاصيل القضية؛ إذا أنها دُسترت وحوك نسيجها داخل جدران المدرسة. هكذا خيل إليَّ.

إذًا، لا بد أن يكون له يدًا في ترتيب أحجية القضية، في تركيب عباراتها وتوزيع أدوارها بالصمت والرمز. بموقعه كمدير للمدرسة، ودرجته الحزبية الرفيعة، يمكنه أن يُدرك أبعاد ما يجري... بل لعله أدرك، مبكرًا، أن العاصفة على وشك الهبوب، قبل أن تهب.

هكذا فكّرت في لحظة شرودي الأولى: لا بد أنه ضالع فيها. لكن سرعان ما انقلب التفكير على عاقبه. وجدتني أتراجع عن اتهامه، تأملت فترة الجيرة وصور الطفولة ومرابع الذاكرة

ونحن نتقاسم الحيّ، المدرسة، المخبز، الجدران الأولى. تلك العلاقة الحميمة، لما لها من جذوة صدق وصفاء دكت حدود الألفة والعشرة الطويلة، كوننا سكان ذات الحي لحقبة طويلة من الزمن، والده صديق والدي في العمل وخارج العمل. وهو، رفيق أخي الأكبر، كنا درسنا في ذات المدرسة، كان يسبقني بثلاث مراحل دراسية. تشارَكنا طابور الصباح نفسه. تلك الصلات القديمة، الخافتة والممتدة، لا تموت بسهولة. ربما حين رأى ذاك الغليظ يكمم فاهي بالوجل، لسعته الذكرى، فاستفاق ضميره المتعب، فجاء يخفف عني عبءًا لا يحتمل، وحين تحفظ على المعلومة أنما ليجنب نفسه الخطأ، كأنما ود تحصين ذاته من لسعة النار.... لهذا، أخرجتُه من دائرة الشك... لا حبًّا فيه، بل لأنه الوحيد الذي لم يتظاهر بالبراءة. بل تصرّف بها وبحكمة.

قد يكون بذاته متورطا مثلما تورطت أنا، لن يستطيع أن ينفي التهمة، ففضل السكوت والصمت أمام جلد أمن الدولة والتحقيق بالعقدة، في الحقيقة لن يستطيع أحدا ما مهما علا شأنه من أن يقحم ذاته في أمور الأمن، فهي محصنة تماما، مهما كان صلدا لن يتجرأ أن يتجاوز حدود العقدة التي أبرمت في دائرة الأمن.

كان المدير، على الأرجح، على عِلمٍ بتفاصيل القضية... ربما علم بها صدفةً، أو بحُكم موقعه الحزبي والإداري، أو بدافع فضول المسؤول الحذر. لا أدري. لكن حين مدّ يده لي، لحظة الانهيار، هجستُ به شيئًا آخر. شعرت كأنما يده لم تُمدّ من

عاتقه، إنمل تهدلت برحمة من السماء... أنتشلتني من مستنقع الحيرة والقلق الذي كنت غاصا فيه دون طوق.

لم يقل الكثير. لم يُبرّر. لم يُظهِر بطولة. فقط... تحرّك حين شعر بثقل الهمّ يستوطن رأسي. وفي تلك اللحظة، بدا لي أن رحمة ما هفّتت على قلبه أو ادرك براءتي، فتحرك ضميره ليخفف عني وقع الصدمة التي اقتحمت عالمي كسيل نار.

حين أنقذني، كأنه ورط نفسه بالقضية، حيث أعلمني بمعرفته التامة بجوهرة القضية التي استدعيت من أجلها، وذلك اعتراف ضمني من أنه له علم في حياكة القضية. لقد وضع نفسه في مصيدة الشك، لأنه حتما قد قرأ تفاصيل الحدث من المصدر مسبقا، وحتما أنه قد عرف بأني متورط دون أن أتورط بلب التهمة، حتما أنه علم بتفاصيل وجوهرة القضية بشكل من الأشكال دون أن تكون له ردة فعل تجاهها لغلها، والسؤال الذي بقي يدور في رأسي هو:...

ما هي صلته بالقضية؟

من هو غراب البين الذي وشى بي؟

كيف علم بجوهرة المشكلة؟

ما هو دوره بإعدادها؟

ذلك ما كان يشغل بالي في حينه والذي سنبين تفاصيل الحقيقة فيما بعد..

هذا الحقيقة لا تقال، بل تُؤلَّم. وهي شهادة تنطق بما لا يستطيع كثيرون أن يُعلنوه: إن في بعض الممرات الرسمية، تُشنَق الحقيقة بسؤال واحد يُطرح بشكل مائل.

صوتي هنا هو صدى لمن مرّ بهم البؤس من منطقة مسكونة بالخوف، أعري به القسوة التي تحول البراءة إلى تهمة، إلى اعتراف بالجرم الذي لم يسلك طريقه. أفكك أدواتها. أفسر النظرة أو الإيحاء الذي يولد من رحم التهمة. وكأن التهمة ليست ما فُعل، بل ما قُدر لك أن تُتهم به... كنت أسير نحو جهة التحقيق وكل خطوة فيه تُشبه نكزة في جدار القلب.

أركان الخوف معروفة للجميع- من يَدخل بوابة دائرة الأمن لا يخرج منها كما دخل. كل قضية تصل هناك، تحمل في باطنها مصيبة مكتومة، وكل من يُستدعى للتحقيق لن يبرأ من كيد التهمة إلا وفي وجهه شرخ واضح، من أثر العذاب النفسي أو التعذيب القسري الذي يتعامل به هؤلاء الشلة المحسوبة على جهة الأمن، لن يخرج إلا بوصمة، أو بندبة، أو بإعاقةٍ تلازمه بقية العمر.

فالاعتراف لا يُنتزع من المتهمين بحثًا عن الحقيقة، بل يعد لأجل تقاريرٍ تُرضي الرؤساء، وتُرفع بشعار - تم. في داخل دائرة الأمن تنزع الكرامة، وتُدفن الإنسانية على محراب الدائرة. القُسوة المستخدمة تُجبر البريء على الاعتراف بالذنب، خشية تفاقم جوانب الذل.

هنـاك، بـين هـؤلاء الشـلة القـذرة...تُعـد الاسـتهانة بـالنفس فضـيلة، وقلـة الـذوق والاحتـرام واجـب وظيفـي، والاسـتهجان بالمشـاعر دليـل علـى الاحتـراف. الترهيـب يصـبح وسـيلة إقنـاع، والعبـث يُمـارَس كعُـرف متـداول، والهمجيـة تُنَظَّـر لهـا وكأنهـا نظـام إداري.

ومـا النتيجـة الحاصـلة سـوى اعتـراف كـاذب... يُطلـب منـك أن التوقيـع علـى المحضـر، لا لأنـك فعلـت، بـل لأنـك لـم تسـتطع أن تتحمّـل البقـاء واقفًـا فـي وجـه تيـار الغضـب مـدة أطـول. فرجـل الأمـن لـيس فـردًا يـؤدي مهمـة، بـل مخلـوقٌ درب وجُهّـز بعقيـدة القمع، تُلغي الإنسانية بولاء أعمى، خالٍ من روح الضمير.

تلـك هـي عُقـد رجـال الأمـن، الملتصـقة بسـلوكياتهم الجلفـة والمكشـوفة أمـام الجميـع، عقـد راسـخة لا تُعبّـر عـن حـزم مهنـي، بـل عـن جبـروت فـارغ يتغـذّى علـى الترهيـب، ويسـتمدّ وجـوده مـن ولاءٍ لا يُفـرّق بـين واجـبٍ إنسـاني ووحشـية. إنهـم أبنـاء منـاخٍ مغلّـف بـالعنف؛ أسـاليبهم تعبـأ بغـراء الغلظـة، تُشـحن بألفـاظ النكـال والشـتائم، وإذا اسـتدعى الأمـر تصـل إلـى القـذف الفـاحش والـذم والتشـهير، وربمـا إلـى مـا هـو أفحـش... كـل ذلـك مـن أجـل الادلاء بـاعترافٍ قـد لا يعنـي الحقيقـة، بـل فقـط لإرضـاء مرؤوسـيهم. لهـذا، يخـاف النـاس مـن رجـل الأمـن لا لأنـه يُمثّـل القـانون، بـل لأنـه يُجسّـد شـكل القـبح كمـا لـم يُجسّـده سـواه. لأنـه يلـتمس صـبغة القـبح جاثمـة فـي وجـوههم، تبشـع شخصـيتهم، وهـذا شـرطٌ رئيسـي لقبـول المنتسـب فـي تلـك الوظيفـة، وهـيَّ

تعني الولاء التام والطاعة للحزب والحاكم مع نزع جبة الضمير. ولو كان الثمن إنسانًا بريئًا يُجلد بلا ذنب.

في الحقيقة، هم لا يرَون أنفسهم كما تراهم الناس. يتصوّرون بأنهم نخبة من الأنبياء الذين لا يقبلون بالخطأ، بينما تهجس فيهم العامة توابع وذيول بلا قيم، بلا مروءة، بلا شرفٍ ديني أو إنساني. عملهم، كما يبدو، يفرض عليهم أن يتأرجحوا بين ممارسة الطقوس والآثام - بين العبادة والدعارة، بين النسك والنصب، بين التحقيق والتسوّل - كل ذلك لا بحثًا عن الحقيقة، بل لهندسة الحقيقة التي يريدها سيدهم.

إنهم أشبه بمكينة مبرمجة الكترونيا لتنفيذ الأوامر، لا تعرف الرفض ولا تُجيد السؤال. يتقمّصون الأدوار بمهارة شبحية: قد يأخذ أحدهم دور امرأة إذا استلزم الأمر، أو قوادًا أو شيخ مسجد، أو متسوّلًا أو مجنونًا، لا فرق. كأنَّ مسخ الهوية هو جزء من شروط الوظيفة. لذلك، حين دخل شرطي الأمن إلى المدرسة، لم أستغرب إن كان سكرانًا أو صياد سمك ضلّ طريقه. رغم أن مَهمّتهم الأصلية يفترض أن تكون "حماية أمن الدولة، إلا أنهم في قبضة السلطة المتسلّطة أصبحوا أدوات صيانةٍ كراسي الحُكم، لا لحراسة القانون.... ولهذا كله، بات المواطن العادي، يُفضّل التوجّه لجبهات القتال والموت... على أن تُسوقه خطاه إلى دائرة الأمن.

بعد أن استأذنتُ من السيد المدير، اتّجهتُ إلى مرأب السعدية الذي لا يبعد سوى عشر دقائق مشيًا على الأقدام عن المدرسة التي كنت أراقب فيها الامتحانات. لكنّ الدقائق كانت أثقل من

خطواتي المرتبكة، التي كادت فيها الساق تُصطدم بالساق من ترنّح البدن وتراخي القدم... الجسد كلّه كان مشدودًا بخيطٍ من الوجل، والعصب مشوش، والفكر ينهار بهدوء تحت وَقْع المجهول.

خلال الطريق، وخلال دقائق الانتظار في المرأب قبل أن تقلّني العجلة إلى بعقوبة - كنت مهووسًا بمعرفة سرّ العقدة... وما علاقتها بالمدير؟ كيف أجمع شتات أوراقي قبل أن أفرش صرّتي أمام المحقق؟ لأدلي بشهادتي على بيّنة، دون أن أُقصي ذاتي أو أظلم الآخر؟ هؤلاء لا يتسامحون مع الزلات والكذب... ولا مع نوايا النجاة. استدعائي هو ليس بحثًا عن الحقيقة، بل لإثبات التهمة رسميًا ضد المتّهم. إن تهرّبت، أو خَبأت صدفية اللؤلؤة، سيكشفون ذلك. إنهم يعرفون الخفايا أكثر مما أُدرك...

ما أن وصلت المرأب حتى هجست بأني قد فقدت سلامة ذهني الذي تشوش بزحمة الافكار، خَفّتْ جُلَّ طاقتي، في حقيقة أمري كنت شارد الذهن تماما، أبحث في الأفق المجهول عن أصل اللغز الذي غُلِف بالعتمة، عن الشوكة التي شكّتْ قدمي، أتحرى عن راس الخيط الذي يرشدني لهدوئي وسكوني.

وأنا في قمة حيرتي؛ التمست أثر الحصار المفروض على الوطن من قبل أمريكا والدول المتحالفة معها ضد العراق، كنا في بداياته عام 1992 أي مضى على الحصار سنة واحدة، أضحت آثاره تطفح على السطح، تنعكس على الشارع

والمجتمع وفي تفاصيل حياة الفرد والأسرة الدقيقة، تهجس بالوجوه شاحبة! كأنها تعيش أيام خريفها، ذبلت، أصفرت كأوراق الشجر، نتيجة الغلاء الفاحش الذي بدأ يتصاعد وتيره في الأسواق وضعف الاساس الذي يستند عليه المواطن. الحصار بات يضرب شواطئ الطبقة الفقيرة كالإعصار، فشتت افكارهم وقدراتهم، جراء العوز الذي صار يجيش في النفس كحشرة القمل وهي تهرش الجلد - هكذا بات يعيش الوطن في خنقة وعزلة، في شتاء مرير لا تمنع سخطه أحصرة الأسقف النخرة. المهم ادركت المرأب الخالي من عجلات الأجرة بسبب أزمة البنزين التي فرضها الحصار.

رغم يقيني بأنني شاهدٌ لا متهم، لم أستطع أن أمنع الحزن من التسلل إليّ... سأشهد، نعم، لكن ضد إنسانٍ قد يُنهك بسبب شهادتي، وربما يُدمَّر بسبب كلماتي. ورغم ذلك، أهجس في قلبي شعورٌ خافت بالراحة بأني شاهد ولستُ متهما؛ أن تُمسك بشيء هو أفضل من أن تكون خال الوفاض وأنت تدخل لمملكة الذئاب دون سند.

رغم طمأنينتي من وقع التهمة، إلا أن الشهادة في طبيعتها تحمل وجهين كالعملةٍ المعدنية، لا يُفصل بينهما سوى حدّ الضمير: وجه يمثل البراءة وآخر يمثل الاتهام، فالشهادة قد تبرّئ المتهم وقد تنسف روحه. كما أن الشهادة في دائرة الأمن لا تشبه الشهادة أمام القضاء المدني. يمكن لزلّة لسان، أو رجفة ما - أن تُقذف بصاحبها في هوة الاتهام، يمكن

للخـــوف أن يصـــنع مـــن الشـــاهد مجرمًـــا. فـــالمحقق لا يُريـــد روايتك، بل يريد روايته تأخذ مسلكا على لسانك.

ربمـا أُتْهَـمْ مـن قبـل المحقـق لأنـي لـم أبلـغ عـن وقـع الجريمـة فـي حينهـا، أتهَـمْ بصـفة التسـتر علـى مجـرم ودَّ العبـث بـأمن الدولـة، أتهـم بصـفة الإهمـال المتعمـد. قـد تشـهد علـيَّ أذنـيَّ وعينـيَّ وأطرافـي نتيجـة الارتبـاك، وقـد يضـيع الفـرق بـين أن أتكلـم خوفًا، أو أسكت إيمانًا.

ألـم يقـل رسـول الله ﷺ: "مـن رأى مـنكم منكـرًا فليُغيّـره بيـده، فـإن لـم يسـتطع فبلسـانه، فـإن لـم يسـتطع فبقلبـه، وذلـك أضـعف الإيمان."

ربمـا كـان علـيّ أن أقـول فـي حينـه- لا أن أنتظـر حتـى يُطلـب مني القول. وربما... كنتُ سأُدان بأي طريقٍ سلكته.

حـين أدركـت المـرأب كـان خاليـا مـن العجـلات بسـبب شـحة البنـزين كمـا اسـلفت، لـذا انتظـرت علـى الرصـيف مـع مجموعـة المنتظـرين الـذين لا يزيـد عـددهم عـن أصـابع اليـد الواحـدة، وبعـد معانـاة وانتظـار مـدة تزيـد عـن نصـف سـاعة، وقفـت عجلـة تكسـي عـابرة أمامنـا، ركبـت العجلـة مـع أربعـة أشـخاص كـانوا ينتظـرون قـدومها بشـغف ليقضـوا أشـغالهم الضـرورية فـي مركـز المحافظـة، طلـب السـائق أجـرة فـوق المصـرح بهـا، مسـتغلا أزمـة النقـل وشـحة العجـلات وأزمـة البـانزين، كنـا قـد قبلنـا عرضـه لحاجتنـا الماسـة لإنجـاز مهـام أعمالنـا قبـل انتهـاء دوام

اليوم الرسمي. خضعنا لإرادة السائق وكلٌ منا منشغلٌ بأمر ما يود أنجازه.

تحرّكت عجلة التكسي عند العاشرة صباحًا، سالكة طريق البحيرة الغير معبد، مسافة من السعدية إلى بعقوبة 90 كم، تتخللها سبعة كيلومترات مسرب ترابي، ممتد من نهاية قصبات المدينة إلى سفوح جبال حمرين، مارًا بجانب البحيرة الأيسر بخط مستقيم كأنه شقٌّ في صدر الأرض.

كان الطقس صافيًا، والشمس في حزيران لا ترحم؛ الحرارة بلغت 45 درجة، والهواء ساكن، حتى النسيم رفض دخول هذه الأجواء والطريق، هربا من الغبرة ولسعة الحر والسكون. مع هذا الطقس المسموم كانت العجلة خالية من جهاز التبريد، لذا كنا نضطر الى فتح النوافذ خلال السير تجنبا للغازات النافذة من العجلة وقلة الاوكسجين، السموم الحارة تلفح وجوهنا الناعمة، بعد أن أحمرت وسودت تهجس بها استوت واحمرت.

الطريق الترابي بدا كأنه لم يُسلك إلا ليُعاقب من يمر عليه. حفر، ومطبات حجرية، وغبار لا يهدأ، بحيث تنتفض الغبرة مع دوران العجلة لرخاوة التربة واسفافها، طحنتها عجلات الحافلات والشاحنات الثقيلة، اضحت ذرات التربة هشة، دقيقة، تنتفض مع الريح والنسائم، مع دعس العجلة ودورانها وهيَّ تغطس في ثناياها الرخوة، التربة كأنها تحولت لذرات ناعمة جافة تنفخ من أعماق الأرض. ما أن تهتز العجلة نهتز باهتزازها. كل مطبّ نَعتُ به يخض صدورنا قبل أن تخفق به

الإطارات. ترى الغبار يتصاعد كثور غضبان؛ يلفح وجوهنا، يملأ جيوب أنوفنا، يتسلل إلى نظرنا وشعورنا وطعم ريقنا. وكأنَّ كل عجلة مرت عليه قبلنا، تركت خلفها جواء عميقة، وكل شاحنة ساهمت في طحن ما تبقى من صلابة الطريق.

كنا نضطر إلى فتح جزء من نوافذ العجلة لألا نختنق من شدة الحر وقلة الأوكسجين نتيجة عملية التنفس، ونغلقها لألا نختنق من كثافة الغبرة المتدفقة من تحت العجلة ومن نوافذها، بتنا في حيرة من أمرنا بين أن نختنق بالغازات المتدفقة من العجلة أو من شدة الغبرة. تشبعت وجوهنا بعصف ذرات الغبرة الصفراء، أضحينا كبدو الرحل لاثمين رؤوسنا بقمصاننا، وغترنا. حالة مزرية، لا تُحتمل، ولا سبيل للهروب منها... سوى انتظار أن تنتهي الطريق.

المسرب الترابي بدا كأنه عُبِّد بالنقر لا بالتسوية، وزُرِع بالحفر والحجارة كأنما وجد ليمتحن العابرين. عجلات الحافلات التي مرّت عليه أزاحت الكتل الحجرية من مواضعها، وخلّفت كتلاً صلدة مبعثرة على جانبي الطريق، وبعضها استقرّ في وسط المسار كشوكة في خاصرة الطريق. تلك الكتل تركت أثارها في وسط المسار، أدت إلى إعاقة سير العجلات، بحيث صارت العجلة مضطرة أن تكفت بتلك الحفر، تهتز بنا كأرجوحة مع تدفق تلك الغبرة من تحتها، وصلت بنا المعاناة أقصى درجات القرف.

الحرارة تجاوزت حدها، فيما اشتدت كثافة ثاني أوكسيد الكربون الناتج عن تنفس ستة أشخاص داخل العجلة، إلى

جانب الغازات المنبعثة من المحرّك، ورائحة البترول المحترق المتشبعة في المقاعد، تلك الغازات اختزلت الأوكسجين من حولنا، تلك الحالة ولدت ضغطا غير طبيعيا على الجهاز التنفسي والأعصاب. أصبحت العجلة أشبه ببالونة مشبعة بالغازات والإعياء تكاد تنفجر من أدنى قدحة. هكذا غدت الحالة في تلك المسافة القصيرة حتى تمكنا من تجاوزها بشق الأنفس وبزمن قرابة نصف ساعة لبطء سير العجلات.

بعد أن تخطينا تلك المسافة؛ ذللنا باقي الطريق بهدوء حتى أدركنا مدينة بعقوبة وصلنا مآربنا سالمين، كنت قد نزلت في مدخل المدينة حيث تكمن دائرة أمن ديالى.

3- دائرة الأمن

وصلت لمركز محافظة ديالى (بعقوبة) بحدود الحادية عشرة والنصف تقريبا، نزلت قرب دائرة الأمن الكامنة على الطريق المؤدي لمركز مدينة بعقوبة.

الطقس هادئ، الأجواء صافية، الشمس ساطعة بحيث يلين ما تحتها نتيجة شدة حرارتها، تكاد تصلي قفا الرأس. أزمة الحصار لازالت في بدايتها، لا تغطي من حجم العناء سوى القدم، لازالت لنا القدرة على الحركة ومقاومة عبثه..

ما أن وصلت لبوابة دائرة الأمن؛ حتى استقبلني شرطي أمن كان يقف في مدخل البوابة الخارجية بلباسه المدني، كان يقوم بواجب الحراسة الروتينية، وكأنه على علم بقدومي.

قادني ذلك الشرطي في ممر متعرج لغرفة تحقيق صغيرة بحجم 3×3 م، والتي تحتوي على كرسيين وطاولة مكتب صغيرة وبعض الأوراق، الكتب مصفوفة فوق رف صغير ولوح اختبار ورقي A 4 (ليفكس) أسود اللون يضم مجموعة أوراق جاهزة للتدوين مرمي على الطاولة. فيما تزين الجدار المقابل صورة كبيرة للرئيس بلباس مدني.

في مدخل الغرفة استقبلني رجل أربعيني سمين، أبيض البشرة، عريض الجبهة والمنكبين، يطغي على وجهه شارب غليظ، تعتلي هامته صلعة واسعة تغطي قفا الرأس حتى

الأذنين. كان يرتدي قميصا أبيضا منقط بنقط سوداء مع بنطلون اسود..

ما أن دخلت الغرفة وأنا متوجس من المفاجئات الغير سارة؛ حتى استقبلني ذلك الرجل برحابة صدر، طالبا مني الجلوس على كرسي خشبي صغير، من ثم سحب كرسيا جانبيا ليجلس قبالتي، طغت على وجهه ابتسامة عريضة مرحبا بي، قائلا:.....

- أهلا وسهلا بك، تفضل بالجلوس، شرفتنا.. أطمأن.. نحن أرسلنا عليك كشاهد عيان ليس إلا!

أمر الشرطي الذي يقف بباب الغرفة أن يقدم لي قارورة بيبسي كولا، قائلا:...

- حرارة الجو مرتفعة، أسترح، خذ راحتك، كن هادئا، أشرب البيبسي أولا.
- ليس فقط حرارة الجو، ازمة العجلات في المرأب دفع السواق استغلال الموقف بأجرة مضاعفة، إضافة لطريق البحيرة السيئ المعبأ بالغبرة.

. أخذت البيبسي منه شاكرا فضله. ثم طلب من شرطي آخر أن يجلس خلف الطاولة لفتح ملف التحقيق..

إذًا، ها أنا هنا. هكذا قلت لنفسي وأنا أجلس قبالة رجلٍ يحمل ابتسامة لا تشبه المكان وهو يرحّب بي. لكن خلف شفتيه تهتز أدوات التحقيق.

بابتسامته وترحيبه لي كان قد أزاح هالة الرعب من على قلبي، جعلني أطمأن على الرغم من إنَّ عصف الرعب لم يبرح حدود قلبي، لم ينقشع عن ملامح وجهي استغراب وجودي في ذلك المكان. أحاول أن أنسى المكان... لكن داخلي يتناسل فيه الرعب كما يتناسل الصدى في نفق مغلق. رغم الهدوء؛ بقيت جوارحي تنزف رعبا طالما وطأة تلك البقعة الموبوءة بالعقد.

لا أدري ما المطلوب مني تمامًا. لكنني أعلم أن الكلمة في هذا المكان ليست مجرد إفادة. إنها سهم... إذا ما أنطلق على غيري؛ قد يرتد ويعود إلى نحري... يا ترى بماذا سأشهد؟ وضد من؟. تتوالد الأسئلة في رأسي كالنمل يفيض من جحره. أسئلة نغصة ترتد نحوي كلما حاولت تجاوز آثرها قدر لحظة.. صرت أشرب قارورة البيبسي التي وُضعت أمامي، لا لأنها تُطفئ عطشًا... بل لأنها ذريعة صغيرة للسكوت. ففي داخلي كل فكرة تُعبّد طريقًا للرعشة.

وهكذا... قبل أن ينطق المحقق سؤاله الأول، كنت قد أجبت بداخلي عن ألف سؤال لا يسمعه أحد.

في حقيقة الأمر، ما كان يؤرّقني لم يكن مكان الجلسة، ولا نظرات الرائد الأصلع الذي جلس قبالتي ببشاشة حارّة، بل شهادتي كم ستكون بليغة... قاسية؟ كم من خرابٍ قد تُخلّفه في جسد المتهم... في وجه أسرته؟ ؟ كم سترتد بوقعها على شخصي في المستقبل. لأن الشهادة لا تنتهي عند حدود الإدلاء

بهـا، بـل تتعداها لمـا بعـد ذلـك بسـنوات وقـد ترافـق المعنـي آثارهـا لنهاية العمر.

تلـك الأفكـار الهجينـة لـم تنفـك عـن ذهنـي، بقيـت تتقلـب كفشـار الـذرى فـي داخلـي دون أن تخمـد النـار قيـد شـعرة، أضـحت فقاعـات الحيـرة تتفجـر تحـت قـدمي وتلفـح ذاتـي دون أن أتمكـن مـن تسـوية أمـر فكـري. كنـت كمـن يسـير بحـذاءٍ مـن قلـق، يجـرّه إلى حيث لا يعرف إلى أين يُفضي به الطريق

هجسـت بـذاتي مقيـدة بالعقـد، لا أسـتطيع تحريرهـا أو تجريـدها أو أن أتملـص مـن حيثيـات الإجابـة علـى الأسـئلة التـي سـتوجه لـي، لا أسـتطيع أن أتجنـب الغايـة المزريـة فـي نفس ذلـك الأصـلع الـذي جلـس قبـالتي، وبـرغم ترحيبـه وبيئتـه المطمئنـة، كنـت أرى خلـف القمـيص الأبـيض المـنقط بالسـواد... فخًـا نفسـيًا يُهيّـأ لـي بابتسامة.

كنـت خائفًـا... لا مـن الكـذب، بـل مـن الحقيقـة حـين تنطـق، فربمـا لا تكـون عادلـة... ولا أنـا قـادر علـى تـرميم جوانحهـا وتعـديل غايتها.

كنـت أهجـس بـذاتي قـد تلبسـت بقيـود لا طاقـة لـي بهـا، تكبلـت بوجـل يفـوق إرادتـي، لا أعـرف كيـف ومتـى سـأنفك مـن تلـك القيود التي عصمت فكري ولساني قبل أن تعصم يديَّ وساقيَّ.

فـي أعمـاقي، كنـت قـد عاهـدت نفسـي أن أتـوخى الحـذر مهمـا كلّفنـي الأمـر. قـررت أن أخفـف مـن وطـأة التهمـة علـى المعنـي كـي لا أزيـد عليـه الغلـة. قـررت أن أبقـى علـى السـطح دون أن

أخـدش جلـد البـراءة، أن أتحـدث بعمـوم لا يطعـن، ولا يُبـرئ. كنـت أعنـي تمامًـا أن مـن يسـتدعونه للشـهادة هنـا، هـم ليسـوا بحاجـة لمـا يعـرف- بـل ليُثبـت مـا يعرفـون. وأنـا، بكـل مـا أحملـه مـن شـك وتـوجّس، لا أرغـب أن أُسـتخدم كـأداة فـي ذلـك التثبيـت. مـا أصـعب أن يُطلـب منـك أن تؤكـد تهمـة أنـت غيـر مقتنـع بهـا، عنـدها يكـون قولـك سـكينًا فـي خاصـرة الغائـب. لأنـي مـؤمن بـأن معظم الذين يدخلون دائرة الأمن هم أبرياء في النية والغاية.

لا أُزوّر الحقيقـة. لكنـي أيضًـا، لـن أكـون مطرقـة فـي يـد مـن ورطنـي بهـذه الشـهادة دون أن يعلمنـي بصـلب القضـية. لـن أُديـن نيابـة عـنهم. ولـن أُبـرّئ لتبرئـة ضـميري فقـط. سـأقول مـا لا يُهين، وما لا يُجمّل، وما لا يزيد النار حطبًا.

قـد يتطـرق المعنـي إلـى العبثيـة التـي يجـدها متفشـية بـين مخلفـات الأنظمـة القسـرية والفاسـدة، قـد يصـدم بتعقيـدات الشـرائع، فيـتهم بـالانحراف والعبـث.. هـؤلاء المسـاكين هـم شـريحة واسـعة مـن المجتمـع وبالـذات مـن الطبقـة الفقيـرة المسـحوقة، يبغـون تفسـيرا لأوضـاعهم، يبغـون أن يتنفسـوا هـواءً نقيـا خـالٍ مـن الشـوائب، قـابعون فـي جحـورهم علـى ضـفاف الأحـلام والخيـال وسـط كـم كبيـر مـن العقـارب المحيطـة بهـم، يتـأملون أطيـافهم العـابرة أن تصل دون أن تصل، وأطباقهم الخاوية تملأ دون أن تملأ..

هـؤلاء حـين تعبـث بهـم موجـات الشـد وسـطوة قـوانين الأنظمـة المتعجرفـة؛ تتحـرك سـنابلهم بفعـل الـريح العابثـة، فيستشـعرون بـالغبن والحـزن، حيـث تعجـز قـدراتهم علـى تـدوير أمـورهم ضـمن مجـالات حيـاتهم البسـيطة، فتجـنح عجـلات التفكيـر بهـم

خارج الإطار العام المحيط بهم، باحثين عن منافذ للحرية ينجيهم من عقدهم، خارج النمط المفروض من قبل تلك الأنظمة القسرية، بذلك تلفظ السنتهم ما يجول بقريحتهم، فتتهمهم السلطة بالانحراف عن المنهج المفروض وتدين أفعالهم..

فمن يبحث عن صوت الحق بين موجات السكون؛ لابد أن يقيد، أن يخرس إلى الأبد. تلك هي القاعدة الشاذة والسائدة المعمول بها للحفاظ على النظام القائم.

في عرف الأنظمة المتشددة؛ دائما ما تفرض الدولة سلطانها على رقاب الشعوب وبما تقتضي الحالة من وجهة نظرها، لتحافظ على جبروتها. عالم بلا منطق، مخزوق، مخنوق، ليس فيه نافذة للتنفس بعد أن كممت الأفواه؛ إلا بقدر ما تسمح به الدولة من جانبها، بحيث لا يكون لها تأثير على المسار العام الذي تريده، وبما لا يتعارض مع مصالحها واستمرارية بقائها.

الحرية ليست الفوضى، بل نظامٌ يكفل للإنسان أن يكون ذاته كما الطير والشجر، لا أن يُرغم على أن يكون ظلًا تابعًا، أو عبدًا يتنقل بين الأيدي كما تُنقل الأوراق بين الموظفين بلا صوت.

لكن في عصرنا تخالنا صور الحرية التي نبحث عنها في داخل أنفسنا مبهوتة، مغشية بالهم والدم، بعكس ما نتمناها. دائما ما تكون قابعة خلف أسوار المستحيل، كلما سعينا

نحوها، تتهاوى أمام أعيننا كضبابٍ يتلاشى. نهجس بأن كوكب الحرية لا يدور في مجرتنا.

سألت ذلك الاصلع مستفسرا.....

- بالله أخبرني ..شاهد عن ماذا؟ وضد من؟
- قال: لا تستعجل الأمور، ستعرف كل شيء.

كان قد دون اسمي، عمري، وظيفتي، وعنوان سكني. سألني عن نسبي وعشيرتي، عن قوميّتي، وعن تفاصيل لا تُذكر إلا حين تُساق الأقدار إلى حيث لا فرار. ثم رفع بصره عن الأوراق، نظر إليّ كمن يزن خطواتي، ورمى السؤال بثقل لا يُرد:....

- في يوم 5\2 من شهر مارس الماضي، كنت برفقة حسن و داود خلال ذهابكم للمدرسة، متنقلين من جلولاء إلى خانقين، مستقلين باصًا صغيرًا ذو اثني عشر راكبًا. ماذا قال حسن خلال الطريق؟

كان السؤال بسيطًا، لكنه في داخله فخٌ مكشوف، حفرة بلا نهاية. أي كلمة قد تحمل وزرها، أي تردد قد يكون دليلًا ضدّي. رأيت عينَيه، جامدتين كقِطع الحديد، تنتظران مني أن أُلقي بالكلمات في حوضه المعدني، ليدوي صدى الاعتراف عاليا في أذنيه. ليدون ما أقول....

الهـواء أصـبح أثقـل، وكـأن المكـان يُحاصـرني بأسـوار غيـر مرئيـة، جـدرانها ليسـت مـن حجـر، بـل مـن نظـراتٍ تنتظـر منـي الإقرار.

كـان علـيَّ أن أتماسـك... كـان علـيَّ أن أختـار كلمـاتي بعنايـة... كـان علـيَّ أن أكـون شـاهدًا دون أن أكـون ضـحية أو آلـة حـادة تبتر الضحية.

أحيانـا الأنسـان ينسـى مـاذا فطـر فـي صـباح يومـه، فكيـف بـي أتـذكر تفاصـيل حَـدَثٍ عـابرٍ حَـدَثَ قبـل شـهر بالتمـام والكمـال؟... فتركـت الفكـر يجـول فـي ذكريـات أمـس، يعـوم فـي مسـتنقعات الـذهن وأغـواره عسـى أن يلـتمس ومضـة لهـا علاقـة بتلـك الرحلـة المشـؤومة دون أن يحصـل ذلـك، دون أن أرسـي علـى حجـر. حاولـت قـدر الإمكـان أن أتـذكر شـيئا ممـا جـرى بيننـا دون جـدوى!. كـأني تهـت فـي فـلاة الرحلـة...عبثـا حاولـت أن أجـد منفـذا فـي أدراج الـذاكرة لأنفـذ منـه، كـأني تهـتُ فـي محطـات الصخب التي أغشت انتباهي.

بـت أنـبش الماضـي بمخالـب الفكـر، دون أن أعثـر علـى مـا يبتغيـه ضـابط الامـن لأرضـي مبتغـاه. دون أن أجـد كمـأة واحـدة تحـت غبـار الخـوف والـزمن أقنـع بهـا هـذا الأصـلع الجـالس قبـالتي. برحـت أبحـث فـي أغـوار الصـحف عـن عنـوان مـا يشـدني، عـن غـرة تكشـف لـي وجـه الحـدث المخفـي، عـن صـرة تقنـع ذلـك الـوحش بمكنونهـا.. لا جـدوى، عطلـت المسـارات، كـأن الاحـداث تبخـرت مـن الـذاكرة، دون أن أسـتطيع تخطـى حـاجز العجـز الـذي تكبلـت بـه. الغشـاوة أظللـت فكـري تمامـا، أعمـت بصـيرتي،

كـأنَّ وشـاح القلـق غطـى علـى لوحـة أمـس بالتمـام والكمـال، فمحى كل تفاصيل تلك اللوحة عن شبكة الذهن.

لـم أدرك شـتل عـود واحـد ممـا كـان قـد زرع حسـن فـي تلـك الرحلـة اللئيمـة، لـم أتـذكر شـيء قـط. كانـت معانـاتي فـي التـذكر واضـحة لضـابط الأمـن، بقيـت مترنحـا علـى محـراب الصـمت، مراوحـا دون أن أبـرح مكـاني، لـم تسـعفني الـذاكرة أمـام جلجلـة الحدث والمفاجأة التي داهمني بها.

أجبته بهدوء مستغربا سؤاله:.....

- أخـي الكـريم أحـاول أن أتـذكر شـيئا ولكـن الـذاكرة لا تسعفني، إذا ممكن تذكرني بصورة ما..

حينها قال لي:.....

- ماذا قال حسن بخصوص انتخابات قادة الكرد؟..

(أول انتخـاب حصـل بـين السـيد مسـعود البرزانـي رئـيس الحـزب الـديمقراطي الكردسـتاني والسـيد جـلال الطالبـاني رئـيس الاتحـاد الـوطني الكردسـتاني قبـل يـوم مـن الرحلـة المشـتركة أو يومين)

حينهـا قـدحت فـي ذهنـي شـرارة الانتخابـات فاقتنصـت شـذرتها، تـذكرت مـا قالـه بخصـوص نسـبة الفـوز التـي ذكرهـا حسـن، فقلـت له...

- نعم تذكرت.... لقد قال جرت الانتخابات بهدوء تام، وقد فاز مسعود البرزاني بنسبة 50 وكسر، فيما فاز جلال الطالباني بنسبة 49 وكسر.
- غير ذلك ؟

صارت الأحداث تطفح في الذهن وتتبلور وتتكور لتكون أكثر بريقا ولمعانا، كاللآلئ المنثورة تحت سطح مجرى الذاكرة بحيث تبرق حين تخطف ومضة من انعكاسات اشعة شمس الخوف. وكأنَّه أقشع الغبار عن الذهن تماما. بدأت أجمع شتات الكلمات وأرتبها في جمل تسطيع تبرز المعنى، بانت لي لوحة الحدث أكثر بروقا، أهجس بها كجدارية نفضتُ عنها الغبار فالتمعت المواقع في ذهني، فبانت فيها معالم الحدث بوضوح.

سبحان الله، كم هو عظيم ومنظم العقل، بحيث تجد نظم جهاز الذاكرة في جسم الإنسان أشبه بجهاز كومبيوتر مبرمج بذاكرة لا تنضب، يعرض لك جملة صور لتنتقي منها تلك التي تكون أكثر سطوعا ووهجا عن غيرها، لتسترد منها ما تحتاجه طبقا للظرف والحالة...فقلت له:..

- أذكر نكتة لطيفة قالها..... قال لي أذكرها:..
- ذكرت النكتة له. ثم قال:...
- شيء آخر تكلم به؟

جال فكري في بانوراما الحدث، فاقتنصت آلية الانتخابات التي نوه إليها حسن، حين أستغرب من ادعاء جريدة الثورة بانتخاب بعض الاكراد للرئيس صدام حسين، فأجبته:...

- كان داود قد جلب جريدة الثورة معه، وكان معنون في صدر الجريدة مانشست بارز وبخط عريض، تدعي به الجريدة (**بأن بعض الأكراد انتخبوا السيد رئيس الجمهورية صدام حسين**)!... فهو هنا أنكر ذلك مبررا بأن الانتخابات كانت قد جرت من غير أن تدون فيها قوائم أسماء المرشحين، أنما وضبت بطباعة صورة السيد مسعود والسيد جلال الطالباني لتفشي الأمية بين صفوف الأكراد. موضحا؛ فمن غير المعقول أن تدرج صورة الرئيس صدام مع صورهم.
- غير ذلك ؟
- اعتقد هذا كل ما جرى داخل الباص.
- بخصوص السيد رئيس الجمهورية الله يحفظه، ألمْ يتهجم عليه؟ ألم يسبه ؟
- يا سيدي نحن كنا جالسين في وسط باص، هناك أناس تجلس خلفنا وآخرون يجلسون أمامنا، فمن غير المعقول أن يتجرأ على السيد الرئيس، إن سكتنا فالناس لا تسكتْ.. ولا يمكن أن تصل به الوقاحة والجرأة إلى هذا الحد.

عندها علمت بأنه برتبة رائد حين دخل أحد المنتسبين للغرفة وفي يده رسالة، قائلا:...

- سيدي الآمر يقول دع الرائد حميد يطلع على هذه الرسالة....

عندها دعاني إلى التوقيع على مضمون اعترافاتي التي دونها شرطي الأمن، والتي لم استطع قراءة ما دون، نتيجة ضعف الخط من جهة، والارتباك المخزون في أعماقي من جهة أخرى..

ما أن أنهى تحقيقه معي حتى هجست كأنَّ جبلا من الهم قد أزيح عن صدري، ما إن أنهى تحقيقه معي، حتى شعرت وكأن الزمن انحنى قليلًا ليسمح لي بالعبور لجهة آمنة. كأنني كائنٌ خرج لتوه من نفقٍ طويل مظلم لجهة النور، كانت فيه الخطوات مكبّلة بالخوف والصوت مغيَّبًا بالفزع الداخلي داخل قمقم الوجس.

في تلك اللحظة هجست بشيء من الحرية، أفلتُ من قبضة قدرٍ كان يتهيأ لالتهامي. الهواء الذي كان في غرفة التحقيق خل من الاوكسجين، ما أن سمح لي بالمغادرة حتى هجست به فك عقدة الحبل عن رقبتي وساقي، دمائي التي كانت محبوسة تنتظر بصبرٍ حريتها، عادت لتنبض دون خوف، عندها أحسست بشيء من الراحة لا أظن أني سأستشعر بها مجددًا.

لم أصدق نفسي وهي تفلت من ذلك القيد الثقيل، كأنني أُعيد تشكيل ذاتي من جديدً. سمحوا لي بالمغادرة، والأهم خرجتُ سالمًا من ذلك القمقم دون أن تصيبني عاقبةٌ لا تُرد. صرتُ

أبحث عن أقرب طريق إلى الشارع العام يُبعدني قدر الإمكان عن شبح تلك الدائرة المليئة بالكوابيس.

وبخروجي، هجست في داخلي وكأنني قد انسلختُ عن الأصل، كأنني عبرت بوابة الميلاد من جديد. ومع ذلك، بقي سيناريو الحدث يتكرر في ذهني بكل تشعباته، كانَّ شريطًا يُعاد عرضه دون إرادة مني؛ تفاصيله متشابكة كأنماطٌ حلمٍ لا ينتهي، بداياته واضحة ونهاياته متفرقة تتجاذب بين الإدراك والغموض.

لكن الشيء الذي ظل عالقًا في فكري ولم أتمكن من انتزاعه، هو الرابط الذي جمعني بغراب البين؟ وأكثر ما أثقل تفكيري هو ذلك الغراب الذي أخفى وجه خلف ستار الحدث، والذي أوشى بي وجعلني شاهدًا في قصته دون مقدمات. تخفى ذلك الغراب خلف حاجز الشك، يراقب الاحداث بصمت، تاركًا أثره كظلٍ يتبعني أينما ذهبت..

لم أصدق ذاتي وهيَّ تفلت من القيد الذي تقيدت به، لأتمكن من استعادة نفسي التي افتقدتها داخل دائرة الأمن. متأملا أن أمسك الشارع العام كي أفلت من العيون المتلصصة وشريط الاحداث يتقلب في مخي.... عندها تذكرت بؤس وجه داوود وهو يستمع لفلتات حسن، تذكرت هدوئه والحزن الكابد في ملامح وجهه. تذكرتُ السطوة الشاخصة في وجه الرائد حميد، والجفاء الذي يتميز به شرطي الأمن المُبَلِغْ في ثانوية السعدية، وعطفة مدير المدرسة الناعمة. تذكرت بهجة حسن وفرحته بتحقق الانتخابات وتفاؤله بالقادم من الايام، وكأنه

أمسك بالعروة الوثقى، في الوقت الذي به كان الوطن يعاني من نكسة مذلة أمام العدوان الأمريكي وحلفائها بعد خروج العراق من الكويت.

ما أن خرجتُ لفضاء الحرية، مبتهجا، معافى؛ حتى شطت غصة في القلب، هجست بذاتي قد تورطت في قضية لا أعرف عمقها ومداها ونهايتها، وأن كانت لا تمسني بالشكل المباشر، ألا أنها تترك ندبا في ذاتي وجرحا لا يندمل، من حينها بت أحتاط من محيطي العبثي الذي لا يرحم...

ثم أنها مشكلة واضحة المنشأ، قضية ليس لها أساس دفين سوى قشبة غيظ وتلفيق أريد بها إذلال أستاذ حسن لكونه فيما سبق قدم استقالته من حزب البعث الحاكم، أي أن المسالة في جوهرها كيدية صرفة.

إذا هناك من حفر الحفرة وعمق الهوة تحت أقدام حسن ليسقط في الهوة على رأسه، شخص ما يختبئ تحت ظلال الحقد دون أن استطيع تحديده. كما أنه لا يود أن يظهر ذاته المريضة على الساحة أمام الملأ، فالكتمان والغموض هو السر في الوصول للغاية....

في الحقيقة في عالمنا هناك الكثير من الذين يودوا أن يرتقوا سلم المجد على حساب هفوات الآخرين، أصبحت هذه الحالات دارجة في المجتمع نتيجة الحقد والحسد والابتعاد عن نهج القرآن، حالات فيها شيء من التمغنط والمطاطية تتبع درجات التربية واليقين بالله لا ارشادات الوظيفية والحزب

الـي يتبعونهـا خلـف سـلطة وهميـة زائلـة. لـذا تجـد الشـخص يـتمطط مـع الحالـة وحسـب شـدتها، وقـد تكـون الحالـة مزاجيـة لهـا دور فـي بلـورة نتيجـة مـا، حسـب مـا تبتغيـه المصـلحة الذاتيـة والحزبيـة، وقـد تكـون نكايـة تفـرض علـى المنكـوبين بهـا لإرسـاء الأمن في الدولة.

بمجـرد أن تلقفـت القـدم مسـار الطريـق، بـدأت السـيقان تخطـو خطـوات لاهثـة كمكينـة الحـرث وهـي تجهـد فـي تسـليك مسـارها. المهـم خرجـتُ مـن دائـرة الأمـن محلقـا فـي الفضـاء كطيـر فلَّ مـن قفصـه، وددت أن أهـرب بعيـدا عـن دائـرة الخـوف، أن أقطـع الفيـافي لأُبعِدْ ذاتـي عـن الوسـاوس التـي تلاحقنـي، ابتعـد بقـدر مـا فـي الـنفس مـن طاقـة إيجابيـة، أنزويـت فـي ديجـور النسـيان، خلـف ذاكـرة النـوى، مبتعـدا عـن الوجـوه الكالحـة، الناشـفة، التـي لا تعرف الرحمة.

مـا جـرتْ مـن أحـداث آنفـة هـي نتيجـة طبيعـة لظـرف قـاس ولـد تلـك الضـغوطات، لكنهـا أودت تشـكل خطـر علـى الـبعض؛ كـان ممكـن أن تضـع القيـد فـي يـدي دون أن اكـون مـذنبا، كـوني فـي نظـر قـانون الأمـن قـد تسـترت علـى مجـرم يـبغض النظـام! لـذا مـع خروجـي مـن دائـرة الأمـن طفـق شـعوري يبـتهج فـي عـالم الحريـة، ينتشـي بزهـو وبصـعيد أحاسيسـي المرهقـة. مضـيت تحـت أشـعة الشـمس المسـتعرة أبحـث عـن أيـة عجلـة نقـل تعيـدني إلـى البيـت وأنـا ممـتن لـذلك الاصـلع الـذي لـم يمـد يـده علـيَّ، بـت أحسب حسابا لكل شاردة وواردة تخصني...

بعد أن خرجت من الدائرة المشؤومة، قطعت الشارع العام للجهة المقابلة، لأمضي مع المسار إلى مركز المدينة، وبعد أن قطعت مسافة 200 متر تقريبا، واجهني باص صغير يسير ببطء بمحاذات الرصيف وهو يود تكملة عدد ركابه، كان أحد الركاب مبرزا رأسه من النافذة وهو ينادي:.....

- سعدية نفر واحد .. سعدية نفر واحد.

مدينة السعدية تجاور مدينة جلولاء التي أسكن فيها، فهي لا تبعد عنها سوى عشرة كيلو مترات فقط. لذا أشرت له ليتوقف.....

ارتقيتُ الباص عند الواحدة بعد الظهر، غارقًا في صمتٍ مطبق، وكأن السكون اختار فاهي ملاذًا له. كان ذهني منشغلًا بكليته، يعيد عرض ما دار بيني وبين ضابط التحقيق؛ ذلك الحديث الذي ما انفكّ صار يطاردني، تفاصيله ترنُّ في أذني كأنَّ القضية لم تنتهِ بعد. لم تكن تلك سوى صفحة من كتاب الارتباك، إذ تسلّلت إلى ذاكرتي مشاحناتي مع حسن وداوود داخل العجلة صباحًا ونحن في طريقنا إلى المدرسة، فكأن الموقف يعيد نفسه، بتوتره وإرباكه دون إرادة.

كنت أحلّل بعمق علاقة المدير بالحدث، تلك العلاقة التي لم تكن مباشرة، لكنها تجلّت بوضوح حين باغتني بنظرةٍ كشفت معرفته بأدق خفايا القصة. هكذا مِن شدة شرودي وانشغال فكري في تحليل العقدة، وجدت نفسي قد بلغت السعدية دون أن أشعر بطول الطريق أو بمشقة السفر.

فـي رحلـة العـودة، شـعرت كـأن وسـيلة النقـل خرقـت للـزمن، كـأني ركبـت وسـيلة تفـوق سـرعة الصـوت، كشـطت المتاعـب رعـن الـذهن، عكـس رحلـة الـذهاب المليئـة بالشـجن، فبـدا الطريـق أقصـر بكثيـر، لسـرحان فكـري وإسـهابي فـي البحـث عـن لغـز المتاهـة الـدائر فـي خلـدي. فقد كـان ذهنـي فـي مكـان آخـر، يطـارد خيـوط اللغـز المتشـابكة، علـى الـرغم مـن أنَّ البـاص هـو أبطـأ بكثيـر مـن عجلـة التكسـي. لكنـي حـين ذهبـت فـي عجلـة التكسـي كنـت أعـاني مـن هـم ثقيـل أشـقى كيـاني وأنـا متوجـه لـدائرة الأمـن، وعنـد عـودتي بالبـاص كنـت اتبـع سـر العقـدة خلـف غـراب البـين الـذي وشـي بـي وأنـا متجـه للبيـت. مـع أن البـاص توقـف فـي الطريـق كثيـرا لنـزول الركـاب، حينهـا لـم أنشـغل بـالزمن قـدر محاولتي تفتيت العقدة لأقف على الحقيقة.

عنـد وصـولي لمـرأب السـعدية وجدتـه فارغـا كالعـادة مـن عجـلات الأجـرة بسـبب شـحة البنـزين، لكنـي وجـدت أحـد التلاميـذ مـن الـذين كنـت قـد درسـتهم فـي السـنوات السـابقة دون أن أتـذكر اسـمه وشـكله، لكنـه تعـرف علـيَّ حـين شـاهدني انتظـر فـي المـرأب؛ فلـم تتجـاوزني تربيتـه وأخلاقـه، فـأبى إلا أن يوصـلني لمأربي، فأوقف عجلته أمامي قائلا:...

- تفضـل أسـتاذ عصـام أنـا ذاهـب إلـى جلـولاء أوصـلك فـي طريقي..

أقلنـي شـاكرا لمدينـة جلـولاء دون أن يقـبض أجـرة النقـل طبعـا، لا أعلـم أنْ كـان يعمـل بسـيارته الخاصـة بسـبب الحصـار أم كـان مارا بمحض الصدفة في الطريق..

رجعت للبيت ولم أكلم أحدا خلال عودتي، سالكا طريق الوادي الخالي من الزحمة كي لا ألاقي ثرثارا يكتم أنفاسي ويعكر مزاجي وأنا مصدوع نتيجة التفكير العبثي في لج القضية...

بعد أن وصلت البيت بقيت خانسا فيه بحيث لم أخرج لحدود الشارع في ذلك اليوم قط، مفتشا عن السكون في خضم تلك الفوضى الدائرة في بالي، محاول تذكر تفاصيل الحدث والبحث عن غراب البين بين صفحات الايام، محاولا معرفة لغز مدير المدرسة ودرجة علاقته في القضية. مبتعدا عن المنافقين الذين يبحثون في القمامة عن البسمة.

الفصل الثاني

1- قلق حسن

لم يكن حسن مجرد شخصٍ بسيط، بل كان صورةً لإيمانٍ مطلق بالطبيعة الفطرية للإنسان. يرى العالم بمنظار النية الصافية، يزن القلوب بميزان الطيبة دون أن يشكك أو يحسب خطواته بما تمليه عليه قوانين الحذر. لم يكن ليضع افتراضات مسبقة حول نوايا البشر، فهو يؤمن بأن العلاقات تُبنى على الصدق لا على المراوغة.

في زحمة العالم، كان يتحرك بنقاءٍ نادر، كمن يسير وسط ضجيج دون أن يسمع شيء، لكنه في الوقت ذاته كان يعلم، ولو دون إدراكٍ صريح، أن هذا الصفاء قد يجعله عرضةً للخذلان. بساطته جعلته شفافًا، مرئيًا لكل من حوله، سواء كانوا رفاقًا مخلصين أم عابرين بفرص آنية.

حياته لم تكن قائمةً على المراوغة، بل على انسجامٍ، مع فكرة أن الطيبة ليست ضعفًا، وأن الإنسان، مهما تغير العالم من حوله، يبقى انعكاسًا لما تربى عليه. يعيش بالكفاف، يقتات على رزقه المستور، لا يطمح إلى فائضٍ يشغله عن فطرته.

بقدّه الميّاس، بطلته المعتدلة، بابتسامته التي يوزعها بكرمٍ على من حوله، صار أشبه بأيقونة أصدقائه. حيث يعد اللطف لغةً في قاموسه، به يفسر عمقه للأخرين. لم يكن حسن يسعى لأن يبرز ويُلاحظ، لكنه كان حاضرًا كظلٍ لا يثقل المكان، بل ليمنحه وجوده.

وفي قلب زملائه، لم يكن مجرد زميل، بل مرآةً تعكس الجانب النقي للعلاقات حين تخلُص من الحسابات الدقيقة والمنافع الخفية. ينسج علاقاته كما لو أن العالم خُلق بصفاءٍ لا تشوبه الخديعة. لا يحسب خطواته ولا يقيس احتمالات الغدر، فهو ابن عفوية مطلقة، يبني جسور التواصل بنية صافية لا تعرف الالتواء.

يعد حسن بحسابات العلاقات الاجتماعية طفلا بليدا بحكم اللين والعفوية التي يتصف بهما في تعاملاته مع الآخرين، كان قد أستند في حساباته المطلقة على النية والثقة الزائدة بالمحيطين به، لصفاته التي تسيطر على مجمل سلوكياته..

خلال فترة تعرفي عليه طوال مدة عملي في مجال التدريس في متوسطة خانقين، لم أجده يوما مهتما بأمر يخصه، قدر اهتمامهِ باختصاصه الذي يعشقهُ كمدرسٍ للغةِ العربية والتزامه المستقيم بمنهجه الديني. كان ضالعا في اللغة ومتمكنا من أسرارها، منغمسا بمعانيها، لقد أحب اللغة وتعمق بها كونها عماد الدين والتقوى.

لقد أتصف بعلاقة حميمية مع تلامذته، تركت صحبته فيهم والمبنية على أساس تبادل الألفة والمنفعة والمعرفة المسبقة احتراما متبادلا بينه وبينهم وبين التلاميذ، ما عزز من مكانته لديهم، لجديته من جهة ولكونه من أبناء المنطقة من جهة أخرى، لذا ترفع بتلك العلاقة لدرجة الصحبة والمرونة، فكان نموذجا حسنا من وجهة نظر إدارة المدرسة وبقية الأساتذة..

قطن مدينة جلولاء بعد أن هُجِرَ من مدينة خانقين قسرا بعد تعرض بيته لقصف عشوائي من قبل القوات الإيرانية أبان حرب الثمان سنوات بين البلدين، حيث لا تبعد مدينة خانقين عن حدود إيران سوى بـ 5 - 10 كيلومترات فقط، وتبعد عن جلولاء بـ 30 كلم.

حين قطن مدينة جلولاء بقي معزولا، محدود العلاقات، منزويا بين شلة من معارفه القدامى، وبالذات أصحابه من الوسط التدريسي والذين لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة. معظم هؤلاء كان قد تعرف عليهم قبل أن تطأ قدمه جلولاء...

لذا دائما ما كان يذهب لمدرسته في خانقين ويعود منها وحيدا دون رفقة أحد إلا ما ندر، وبعد عودته يكاد ينزوي في داره حتى صباح اليوم التالي بجوار أطفاله وزوجته التي يعشقها ويكن لها احتراما شديدا..

عرفت منه أنه يشغل ذاته بتحضير مادته وتجهيز أوراق عمل للتلاميذ وينشغل في تصحيح علاماتهم,,, الخ من أمور يشغل ذاته بها، إضافة تحضير متطلبات البيت ورعاية أطفاله بالحسنى.

بعد معرفتي به بحكم العمل المشترك والصفوف المشتركة التي كنا ندرسها، وكوني من سكنة مدينة جلولاء قبل أن يقطن بها حسن، تطورت علاقتي به وارتقت من درجة الزمالة لدرجة الصحبة نتيجة لتواتر لقاءاتنا داخل المدرسة وداخل

مدينة جلولاء؛ تعمقت علاقتي به بعد اكتشفت صفاء معدنه، عُمدتْ تلك العلاقة بمكوكية رحلاتنا الروتينية بين جلولاء وخانقين خلال توجهنا للمدرسة.

لم يكن لنا عجلة خاصة تقلنا، فكانت الباصات الصغيرة ذات الاثني عشر راكبًا هي واسطة نقلنا للمدرسة، تحمل أحاديثنا الصباحية وأفكارنا المبعثرة بين محطات الدراسة والحياة. في ذلك المرأب نسجت خيوط الوئام قبل أن تبدأ الرحلة، فسكون اللقاء نقطة انطلاقٍ نحو يوم جديد، فنسير معًا كما لو أن الطريق نفسه يشكّل جزءًا من حياة المدرسة حيث يمتد الحديثٍ إلى عمق مشاكلها.

تكرار الرحلات قربني منه أكثر، لم يكن مجرد رفيق طريق، بل نافذة لرؤية ما خلف الدروس ومشاكل التلاميذ، صرت أقرأ في ملامحه ما لم تبح به الكلمات، وأدرك كيف ينتقي من حوله بحدسٍ خاص. لن يعبر عتبة بيته إلا حين يجد ضرورة لذلك، أو عندما تدعوه رغبةٌ داخليةٌ لكسر طوق الروتين الممل.

كان محاطًا بدائرةٍ من الأصدقاء الذين اختصهم بالقرب، كأنهم امتدادٌ لروحه، يشاركهم تفاصيله في ساعات التجوال، على أرصفة المدينة وفي أسواقها، حيث تختلط الأصوات بروائح الأزقة والمحال، وحيث كان يجد في الحركة ملاذًا يخفف به من ثقل الأيام ورتابتها.

البيت بالنسبة له لم يكن قيدًا، لكنه كان حدودًا واضحةً بين الخصوصية والعالم الخارجي، لا يتركه إلا حين تدعوه الحاجة، أو حين يشعر بأنه بحاجةٍ إلى لحظةٍ خاليةٍ من الجدران، لحظة يتنفس فيها شيئًا آخرا من الحرية.

خلال رحلة حياته كان يتأمل وضع أرقى وأنعم من تلك التي كان يعيشها كحال بقية العراقيين الذين تأثروا بالحرب الطويلة وتحملوا نغصة الحصار اللئيم الذي كان في بداياته، لقد كثرت المصائب على رؤوس العراقيين بجماحها وقروؤها وقرفها ومنغصاتها وغاياتها، تلك الأوضاع انعكست على نفسية الفرد بالسلب مع تواتر الأيام وانحدار حالة الاقتصادية والأمنية، وبالذات مع تدهور عملة الدينار العراقي أمام الدولار الامريكي وآثاره البائنة على اقتصاد البلد. ناهيك عن بحر الدم الذي أُريقَّ على مدى الحروب، ذلك ما أنعكس سلبا على تماسك المجتمع بعد أن صارت أسعار المواد لا تطاق مع استمرار انحدار سعر الدينار وثوابت الرواتب..

قبل حرب إيران والعراق كان الدينار العراقي يعادل ثلاثة دولارات وعشرين سنتا، بعد أن خرجنا من حرب إيران صار الدينار يعادل الدولار في القيمة، كان رمزًا للقوة الاقتصادية التي تماسكَت رغم العواصف. لكن مع انتهاء حرب الكويت ودخولنا نفق الحصار، انهارت العملة، أصبح الدولار الأمريكي يساوي ثلاثة آلاف دينارا، وكأنَّ الزمن نفسه قُلَبَ موازينه، ليُلقي البلاد في نفقٍ مظلم بلا نهاية.

تلك اللحظة كانت بداية التحولاتٍ الكاسحة، لم تغير فقط المعادلة والعلاقة بين البشر، بل قلبت طباع الناس رأسًا على عقب. أصبحنا نحاسب الأيام على القتر، لم نكن نعرف جلدها وسخطها من قبل، نتساءل أين كنا وأين أصبحنا، كيف انتقلنا من القمة الألق إلى درك الانهيار؟ كيف صار الاقتصاد مجرد نبضٍ ضعيفٍ لا يقوى على مقاومة العجز المستشري؟.

لكن التأثير لم يكن ماليًا فحسب؛ بل تسرب كحمى شرسة إلى جسد المجتمع، شلّ قدراته وعواطفه، زعزع عقول أفراده، واستحال إلى لعنةٍ ثقيلة جثمت على صدورنا. لم يكن مجرد أزمةٍ اقتصادية، بل عدوى اجتماعية نقلت إلينا منغصات العصر: الفقر، القهر، التقشف، الضياع، والمأساة التي لا تنتهي. اجتمع كل شيء في كيان الفرد العراقي، حتى لم يبقَ أمامه إلا أن يُقاوم أو أن ينهار.

تفككت العلاقات بشكل عام، صار الفرد يبحث عن نفسه بين الوجوه، توغل العجز في الذات والنفس ثم في الأزقة والأحياء، توسع الانفلات والاحتيال والنصب والدجل، حتى صار الغش أداةً للبقاء، وصارت الأخلاق رهينة الضرورة لا القيم. لم يكن الكره مغروسًا فينا، لكنه نما كعشبٍ يقتات على الفراغ الذي تركته الأزمات فينا.

ومع كل ذلك، تمددت أمراض العصر، النفسية والجسدية، كجذم تخرمش وجه الفرد في المجتمع، تترك ندوبًا من الحزن واليأس لا تُشفى بسهولة، تسللت إلى الروح، صاغت الألم

بأشكالٍ عبثيةً، كأنها تعيد صب قوالب تشكيل الإنسان نفسه وفق معايير الانكسار والانهيار وما خلفه الحصار.

كانت العاصفة أقوى من أن تُقاوم، والبلاد باتت مختنقةً في قبضة الفوضى. صار الفرد يشبه وطنه؛ مهزومًا من الداخل، مرهقًا، تتصارع فيه التناقضات، الايام لا تستطيع أن تُعيد تشكيل قطع أحجيته المبعثرة بين شجون العقد المتفجرة، كأنه سلسلة من تاريخٍ لا يريد أن ينتهي.

ذلك ما دعا حسن إلى أن يتعلق بكفاف العيش الكريم متمسكا بمرتبه، منزويا خلف كرامته وديمومة عمله في الحياة، ضمن واقع تلك الضغوطات، متمسكا بقناعة الرزق رغم شحة روافده، حفاظا على أسرته، ملمِعًا صورهِ في عيون رفاقه ومحبيه بالبساطة المعهودة التي أتصف بها، وبالطيبة التي يتغنى بها.

تحت وقع ذلك الظرف؛ بقي حسن مترنحا بين الفاقة والجلد دون رضا النفس، بقي يعالج أزماته وبما يستطيع، والتي ما عادت ثغراتها تسد، بل صارت تتوسع مع الأيام. ما عادت تنفع الجهود مع فلتان الأمور. **في الحقيقة؛ الأزمة كانت مخططا مدروسا من قبل أمريكا مسبقا، كما قال الرئيس الفرنسي الأسبق جاك شيراك: من أن الرئيس بوش قد أبلغه بأنها ستكون آخر الحروب الصليبية، وكما نقل مسؤول مكافحة الإرهاب في المجلس القومي الأميركي ريتشارد كلارك حين قال؛ إن بوش قال بالحرف وهو يدخل مركز عمليات الطوارئ في ليلة 11 سبتمبر/أيلول 2001 (we**

are going to kick some ass). وهو ما معناها "يجب أن نبحث عن شخص أو دولة أو طرف نشبعه ضربا". فالمخطط كان مهيأ مسبقا، ولكن دخول صدام الكويت أعطى مبررا له لتدمير العراق الذي يُعْتَبَرْ الرأس والحاجز الذي يمنع امتداد إسرائيل من التوسع في الشرق.

حينها أصبحت الحالة يرثى لها بعد أن قبع العراق بين المطرقة والسندان.. حينها تأزمت أوضاع الفرد العراقي داخليا بعد أن تحللتْ خارجيا بفعل أنزيمات العقد التي تخللت عروقه وجذوره، أضحى الفرد محدود الفكر والاتجاه، منصب باتجاه تدبير الرزق فقط، يعيش بالكفاف الممكن بعيدا عن الاحلام والتأمل.

كل تلك المنغصات والأزمات؛ أوقدت فتيل الحلم لدى حسن كشخص من القومية الكردية فكر بظفر قوميته على حساب العراق، لقد تغير سلوكه، حاول إيقاد شمعة الانفصال وسط عتمة الوطن.

كان قد تأثر بالمحيط السائد وبنظرية المستقبل للقومية الكردية في ظل أزمة الوطن، في لحظة انكسار هيبة الدولة والفوضى التي عمت أرجاء العراق بعد انسحاب العراق من الكويت وهو مثخن بجراحه من جهة، وتفاقم أثر الحصار على المجتمع الذي كان في بدايته من جهة أخرى.

لقد غُرَّ ببريق الحلم العالق في ذلك السدم، انخدع بالبهجة المراوغة التي تشكّلت وفق ملامح الظرف، فانبثقت في ذهنه

صورة مشوهة للمستقبل، لم يكن يراها إلا عبر زجاجٍ مكسور من الأمل الذي ظن أنه حقيقة قابلة للمس. وفي لحظة تيه، كان قد أفسد الأمر على نفسه؛ إذ لم تكن أحلامه سوى شرارة خاطفة اخترقت سماء ظنه دون أن تُضيء الحجاب الدامس الذي يحيط به.

كان ذلك في نهاية العام الدراسي 91-92، حين اختار أن يخلع عباءة الماضي، فقدم علنا استقالته من حزب البعث الحاكم، كأنما أراد أن يقول بأن دوركم أنتهى، كأن صار يولد من جديد وسط واقع لم يكن مستعدًا لاستقباله.

كان إفاقة حلمه الوردي أقرب إلى المبالغة، كأنه أمسك بضفائر الوهم كأعمى متشبثًا به، غير واعٍ بأن ذلك النجم الذي أبهره كان شهابا، حرق فكره حين حاول الإمساك به. لكنه في خضم هذا الإدراك المتأخر، أشعل رغبةً خامدةً في ذوات الآخرين، جعلته يتأمل للمرة الأولى أن يدرك حقيقة ما يجري حوله، بين السر والعلن.

ومع ذلك، لم تلبث تلك الومضة أن شطّت في ذهنه؛ فبهتت وسط السدم كفكرةٍ عابرة، تحولت إلى خيطٍ واهٍ في الأفق البعيد، تتقاذفها أمواج الظرف وتقلبات الواقع، وتعبث بها عواصف السياسة الداخلية والخارجية والعالمية.

كان الزمن حينها يحمل في طياته أوج الحنق الأمريكي – الصهيوني على العراق، يتبدّى بين الحين والآخر في قراراتٍ تُغيّر مسار البلاد. ففي عام 1991، وضعت الولايات المتحدة،

بالتعاون مع فرنسا وبريطانيا، حدًا لتحركات الحكومة العراقية بفرض خط الحظر الجوي عند خط عرض 36 شمالًا، فيما استقرت الطائرات الأمريكية المنفذة للحظر في قاعدة إنجرليك التركية، ترقب المشهد من علٍ، كأنها تُعيد صياغة القدر بأسلوبٍ حسب ما تراه مصلحتها، من اسلوب لم يكن له أن يُقاوم.

تلك الوقائع لم تكن مجرد أحداثٍ سياسية، بل كانت كرياحٍ هبت في نفس حسن، حركت أفكاره الراكدة كما يحرك النسيم ذوائب سنابل الحقل. ارتفعت في داخله نشوةٌ خفية، سُمِعَ حفيفها في المحيط من قبل البعض كنغمةٍ نشازٍ لم ترق لهم، كأنها نبضٌ خارج الإيقاع، يشير إلى خيطٍ من التمرد لم يُفصح عنه بعد.... وفي خضمّ ذلك كله، رسم لنفسه دون أن يدرك دلالة حنقٍ وبغضٍ في نفوس بعض زملائه، كأنه اقتحم بفكره المحظور منطقةً محرمة لم يكن ينبغي أن تطأها قدماه.

هكذا نما للحلم زغب في فكره، دفعه إلى بلورة الفكرة وزجها بين الملأ بشكل من الاشكال العبث والتطرف.. الخ، لتجد في المقابل معارضة كبلت يديه. كان قد شرع بالتغيير في داخل نفسه قبل الإحساس بالحدث، ودَّ تبديل اسماله الخشنة بأقمشة ملداءة، خضلة، لينة، تقئه برد الشتاء...

تمسك بالحلم دون غيره، حاول تغيير اتجاه عقربة ذهنه نحو ناصية حسابٍ يكفل له مجده، بقي يتأمل الومضة تسطع في العتمة، لقد أشهر تفاؤله في واقع ظنه وسلوكه، وكأنه لم يعجبه أن يبقى عراقيٌ في الروح والنية.

ذلك ما كان واضحا عليه وما كان يروج له في واقع محيطه دون الإفصاح عن ذلك بشكل علني، كان ينث تباشير فكره في عيون الغير دون أن يحسب لفعله ردة فعل، أرهق فكره وفكر الإدارة والحزب حين طلب إعفائه من التنظيم الحزبي كونه من القومية الكردية-(بينما كان يشترط على اعضاء الهيئة التعليمية أن يكونوا منتمون لحزب البعث، فيما الاكراد خيروا بين الانتماء وعدمه).. تلك الرغبة المكبوتة في داخله كانت قد صرَّتْ أذنيه، دفعته لفعل اهوج، فسار يتبع صخبها كالأعمى؛ حتى توحلت قدميه في مستنقع ظنه.

تلك هي الحقيقة التي سهى عنها، التي حاكت لغز الرواية وأوليات العقدة وابعادها وفكرتها، لقد تناولت القشور لبيان اصل عقدة الرواية. لم تكن أحلامه سوى تأويلات ساذجة أقنع نفسه بها ثم صدقها وحاول زجها في الوسط بطريقته الخاصة.

تأثر فكره باحتمال فكرة انفصال الأكراد عن العراق، فمضى يسلك دروبها الوعرة. تاه في مخمصة التفكير، ظل يدور في دوامة الشقاء، حائمًا حول نفسه، عاجزًا عن إدراك مخرجٍ ينقذه إلى برّ الأمان. بدلاً من فكرة الانفصال كان من الاجدى به أن يتشبث بالوطن، لكن ظنًّا منه أنه السبيل المستقيم، أوقعه في المحظور. وفي الواقع، كان يجرُّ وراءه عربة الخيبة، لأن الانفصال لا يتعلق بالعراق وحده.

أنـا أتكلـم مـن وجهـة نظـر شخصـية لـيس إلا، وحسـب مـا توضـحت لـي معـالم الصـور قبـل وبعـد العقـدة واسـبابها الواضـحة للعيان وكما سنرى طبيعة أحداثها بالتسلسل في نهاية الرواية.

كـان للظـرف المحـيط بـالعراق أثـرٌ عميـقٌ فـي تشـكيل اندفاعـه، وكـأنَّ الشـيطان دفعـه إلـى ملامسـة الحلـم قبـل اكتمـال البـدر، نافيًـا سـطوة الشـمس التـي ممكـن أن تجلـي عتمـة الـوطن بلحظـة. غابـت عنـه الحقيقـة الواضـحةً، بـل كانـت مخفيـة تحـت سـطح الأحـداث، فلـم تـزكم أنفـه، ولـم تدفعـه إلـى إعـادة النظـر فـي مساره.

تلـك التحـولات لـم تكـن محـض مصـادفة، بـل كانـت النسـيج الـذي حـاك فكـرةً معاديـة لفكـره داخـل عقـول بعـض زملائـه، كـأن البيئـة نفسـها تخلّقـت مـن تناقضـاتٍ صـنعت لـه خصـومًا لا يعـرفهم. أخطـأ حـين اعتقـد أن بوسـعه أن يكـون بطـلًا وقائـدًا ومبشّـرًا لقضـيةٍ تتجـاوز حـدود العـراق، دون أن يـدرك أن المسـارات التاريخيـة التـي خاضـتها الـبلاد لا تسـمح لمـن يسـير فيهـا بـأن يظل محصنًا من التجاذبات.

ظـل يبحـث عـن اللغـز، متشـبثًا بمحـورٍ أجـوف لا يحتمـل أي ريـحٍ تعصـف بـه إذا مـا تحـرك البيـدق عـن موضـعه. كأنـه لـم يقـرأ صـحف التـاريخ، لـم يـدرك خطـر العيـون القانصـة التـي تترقـب، ولـم يسـتوعب أن فكـرة نـزع ذاتـه عـن الأصـل قـد تثيـر حفيظـة مـن حولـه. وهكـذا، تـورّط فـي مخمصـةٍ لـم يـدرك مـدى زنختهـا ولا انعكاسـاتها، لا عليـه فحسـب، بـل علـى مسـتقبله ومسـتقبل عائلته، وكأن خطوته كانت بابًا فتحه دون أن يرى ما وراءه.

2- تحديات حسن

بدأت حكاية حسن حين قرر في لحظة صفاء وصدق أن ينسلّ من عباءة حزب البعث، بعد سنوات من الانتماء القسري الذي فرضته الظروف وليس القناعة. قدم استقالته في ربيع عام 1992 ، وكأنها شرارة أشعلت نيران الضغينة في نفوس بعض من تلوّنت ولاءاتهم وتكلّست قلوبهم. لم ينظروا إلى مغادرته كحقّ مشروع حسب قرار الحزب والذي ينص" من حق المواطن الغير العربي من أن يستقيل من الحزب"، بل كخيانة تستوجب العقاب.

من لحظتها ابتدأت الضغينة تكبر وتطفح على وجوه بعض كوادر الحزب، تلك التي كانت تمثل دور المعالج والطبيب في المناسبات الحزبية، كأنَّ حسن كان بمثابة الكشاف الكهربائي لفلزات معادن الوجوه البائسة التي تتغذى على الحزب.. من حينها ظهرت لتلك الوجوه التي كانت تبتسم له أنيابٌ خلف الأقنعة. بدأوا ينسجون ضده التهم بخيوط الصمت والنفاق، عندها انتقل حسن من خانة الرفيق إلى خانة المرتاب منه. لم يعد ذلك الصوت المقبول ضمن العلاقات العادية مرحّبًا به، بل بات يعد ضجيجًا يجب إسكاتُه وإبعاده. اصبحت علاقته بكوادر الإدارة فاترة، وخمه، هميمه، مقتصرة على الأعمال المدرسية الصرفة فقط. كأنَّه ترك خلفه قروحا جلدية في جسد الحزب تنث إنتانها.

كان انسحابه بالنسبة للبعض منهم كمن أزاح الغطاء عن مستنقعٍ خفيّ، مستنقع كانت تطفو فيه طفيليات تستظل بمظلّة الحزب وتتغذى على الولاء الظاهري تبعا للمصلحة الخاصة. فبالنسبة لهؤلاء، الحزب لم يكن سوى وسيلة لصعود السلم الوظيفي، أداة للتسلّط، لا فكرة ولا مبدأ. ما أن خرج عنهم حتى فضحهم في تفعيل سلوكهم الوقح الذي أصبح كشوك يخدش بفعل غلهم الدفون في الداخل، وبما أنه فضحهم؛ لذا كان لزامًا أن يُقصى ويعاقب.

على سبيل المثال حين يبتز أحد كوادر الحزب المتقدمة في الوسط الحزبي مواطنا فقيرا قبل أن يشرع بالعمل في دكانه الجديد.. يطالبه بدفع استحقاقات المنظمة الحزبية الشهرية على حسب ادعائه، ودون أن يحمل في يده كتابا رسميا أو حجة قضائية. فمثل هذا الشخص المتطفل على الحزب ومبادئه الذي يعيش كبكتريا العفن؛ هم من أساء إلى الدولة والحزب بشكل عبثي مقرف. ذاك ما جعل أبن الشارع يقرف الحزب والدولة.

أولئك الذين باعوا الذمم لا تهمهم قيمة الإنسان، ولا جوهر الحزب بقدر اهتمامهم بتمجيد أنفسهم أمام القيادة، والتشبث بمصالحهم الشخصية والمادية. يتركون خلفهم أثرًا لا يُمحى، وكأنهم يراكمون إرثًا من الجراح التي تنزف من شر أعمالهم، غير مدركين أن الولاء الحقيقي لا يُبنى على الخداع، وأن صورة السلطة التي يصنعونها لن تدوم لهم طويلًا.

لم يدرك حسن حجم الصدام الذي يقترب منه. فهو رغم رتبته التنظيمية كنصير متقدم، ظنّ أن استقالته ممكنة بلا عواقب، غافلًا عن العقلية السلطوية المسيطرة على الحزب آنذاك، حيث يُعتبر التخلي خيانة لا تُغتفر. ورغم أن القانون سمح للأكراد بالتنصل من الحزب، فإن الواقع كان أكثر تعقيدًا من ورقة رسمية قدمها حسن لإدارة الحزب. فحسن، اعتُبر خائنًا مزدوجًا: خائنًا للفكر، وخائنًا للوطن، في مرحلة كانت فيها الحكومة تراقب كلّ صوتٍ خارج الجوقة بعين الريبة، خاصة بعد حرب الخليج حيث بدء التمايز الجغرافي يطفح بين جنوب العراق وشماله تحت حماية المظلة الأمريكية، في الوقت الذي اتجهت فيه واشنطن إلى تحجيم سلطة بغداد عبر دعم مناطق النفوذ الكردي والشيعي بالطيران.. الكثيرون من زملائه في الحزب كانوا يشاركونه الرغبة بالانفصال عنه، لكن الخوف من العقاب جعلهم يلتزمون الصمت. أما حسن، فقد خاض التجربة وحده، معتمدًا على براءة نواياه وسلامة موقفه وفطرته، لكنه وجد نفسه محاصرًا بشبكة من الشكوك والملاحقات المعنوية.

كانت استقالته متزامنة مع الحراك الكردي نحو الانتخابات الأولى، فاستُغلت خطوته كدليل على نيّات انفصالية دفينة، رغم أنه لم يكن يحمل من ذلك الحراك سوى ظلال الحلم. لكن الحلم حين يكون في غير موعده، يُصنّف تهورًا، ويُحاسب المرء عليه وكأنه جريمة مكتملة الأركان. . تلك العقدة سحبت البساط من تحت قدمي حسن دون أن ينتبه عليها، للطيبة التي كان يتصرف بها. حينئذ التقطته كامرة المراقبة متلبسا

بثرثرته المبالغ بها. بسلوكه العبثي كان قد خرج عن المألوف، هجس تصرفه لعبة يتسلى بها حتى شكته دبابيسها، عندها شعر بالألم والندم، أدرك مقدار انزلاقه وتهوره.

لم يكن حسن ناكصًا عن واجبه الحزبي، ولا متمرّدًا على النظام العام فحسب، بل كان عنيدا في موقفه دون مرونة رغم النصح الذي قدم له من قبل زملائه ومن قبل أعضاء من الحزب نفسه؛ إلا أنه ركب الموجة الجارفة حتى غص في تيارها...

لقد كان حسن بطبعه المسالم ساذجا، لذا غص بساذجته في مستنقع العابثين من أمثال هؤلاء الذين يعيشون على أكتاف الحزب كالبكتريا، صدّق ذاته أن من حقه أن ينتمي لمن يريد، أو لا ينتمي. لكن الطيبة لا تُغني في زمن الخوف، ولا الشجاعة تعفي من تبعات السقوط الحرّ. ومع تزايد المضايقات، بدأ يتيه بين الأسئلة، يبحث عن مأوى لفكرته، يرمّم ما تهدّم من صورته، لكن دون جدوى.

كانت الظلمة سائدة، أغشت بصيرته، جعلته يتخبط في سيره، صار كمن يرطم رأسه بهذا الجدار وذاك الجدار، يبحث عن خرج من نفقه المظلم وكأنه انتُزِعَت منه عصاه السحرية فوجد نفسه مضطرًا للاعتماد على نفسه وظنونه في مواجهة العاصفة. وبينما كان يظن أنه طوى صفحة نزاعه مع الحزب، باغتته غربان الفقد وجحافل الشر من كل صوب، دون أن يشعر بالهوة تتسع تحت قدميه، حتى هوى في

غياهبها. ومنذ تلك اللحظة، بدأ يدور في فلك الشك والحيرة، كأنما تاه عقله تحت سَكرة الجنون.

لم يجد الصبر معينًا، ولا الندم شفيعًا. انحدر مع تيار العذاب كصخرة جرتها الأقدار بلا حول ولا قوة نحو هاوية المصير. انهار عزمه، وتلاشت أفكاره كما يتبخر السراب في صهد الصحراء. غدا مكسور الجناح، يرتجف تحت وطأة الخوف، تطارده في خياله أصوات الشؤم، كنعيب الغداف تنذره بالهلاك وتوشك أن تعلن عن ختام الرحلة.

على الصعيد المهني، بقي حسن يؤدي عمله بتفانٍ. علاقته بزملائه، بمن فيهم كاتب النص، ظلت طبيعية، حيث كانوا يلتقون يوميًا في رحلتهم من جلولاء إلى خانقين، يستقلّون حافلات النقل اليومية دون سابق ترتيب، ضمن أجواء عمل تظل بعيدة عن تعقيدات السياسة. صار يتصف بصمتٍ ثقيل، أكثر الأحيان صار يتبادل النظرات مع زملائه دون كلمات. كان بينهم من يقدّره، ومن يلزمه الحذر، ومن يراقبه خلسة بعين الحزب. وحده الطريق بقي ثابتًا، يشقّ المسافة بين المدن، فيما تشظت المسافة بين البشر.

3- لقاء الصدفة

في يوم 2 مايو 1992، بدا اليوم عاديًا كغيره، لكنه حمل في طياته لحظةً مفصلية غيرت مسار الأشياء. كنا قد التقينا صدفةً في مرأب جلولاء أنا، حسن، وداود، متجهين نحو مدرستنا في خانقين. المسافة الزمنية لا تتجاوز خمسة وثلاثين دقيقة، لكن ذلك الطريق القصير حمل في طياته أول وآخر لقاء جمعنا معًا، وكأنه نقطة فاصلة بين واقعٍ مألوف وخيالٍ بدأ يتشكل في الظلال.

ذلك التاريخ لم يكن مجرد يومٍ عابر، بل حدٌّ زمنيٌ بين الحلم والحقيقة، بين النية العفوية والحسابات المكلفة. فيه تغيرت المعادلات، بدأت الأمور تقاس خارج نطاق السذاجة المعتادة، تقرأ، تدرس، ثم يعاد ترتيبها وفقًا لواقعٍ جديد لم يكن يخضع للعفوية. لحظات ارتباكٍ ألغت كل شرائع العرف، وضعت القيد في المعصم، وأرغمت الجميع على إعادة تشكيل سلوكياتهم.

كان حسن الأكثر تأثرًا بتلك العاصفة، إذ قابل تحدياتٍ قاسيةً أحجمت أفكاره وأطاحت بأحلامه، دفعت به إلى مطاردة ذاته التي فلتت من بين يديه، وكأنه صار فجأةً بلا هوية واضحة. كان صوت العناء يهطل عليه كأجراس العذاب، يطوقه بالندم حتى استقى مرارته من كأس ذلك اليوم القاسي، ليعيد صياغة سلوكه تحت ضغط الواقع الذي فرض عليه عزلةً لم يخترها.

ذلك اللقاء العابر لم يكن مجرد مصادفة؛ كان بدايةً لمسارٍ لم يكن أحد يتوقعه وأين يتنهي، مسارٌ فرض تغيرًا علينا لا رجعة فيه، ترك أثره علينا ليلتصق بالزمن الذي صنعه.

لم يكن الوقت كما عرفناه، بل أصبح ثقيلاً، بليدا مفعما بالعقد. في ذلك اليوم، انحرفت عقارب الزمن عن مسارها المعتاد، لم تعد تدور وفق النظام الذي ألفناه، بل استدارت عكس دورانها، وكأنها تمردت على روتين الأيام فلم تتخذ وجهة لها، لما راغ فيها من عفص نفسي وحسي واجتماعي غير متزن، قلب الحسابات رأسٍ على عقب، أدخل حيواتنا في صيغة التنجيد والحذر والتبصر مما يحيط بنا، تحديدًا فيما يخص الأستاذ حسن، الذي بدا وكأنه وضع نفسه في عين العاصفة.

كانت الصدفة اللاعب الرئيسي في صياغة الأحداث، نسجت تفاصيل المشاكلة بدقة، صاغت العقدة وعبثت بمكونات الفكر، وانزلقت إلى حياة حسن، فأحدثت اضطرابًا في مساراته المعتادة.

لم يكن يومًا عابرًا، بل حمل أثرًا قاسيًا على ارتباطاته العائلية، وعلاقاته الخارجية، وعلى دائرته الخاصة التي بدت فجأةً كأنها فقدت توازنها. كان يومًا بليدًا، معتمًا أكثر من سابقيه، كأنه نقطة فاصلة بين واقعٍ كان مستقرًا وبين مجهولٍ يوشك أن يتشكل.

التقيت بالأستاذ حسن ذلك الصباح في المرأب، كان قد وصل إليه مبكرًا، يترقب قدوم سيارة أجرة وسط الفراغ القاتم الذي

لـف المكـان، حيـث كانـت قـد خلـت السـاحة مـن عجـلات النقـل المتجهـة إلـى مدينـة خـانقين. كـان يحمـل فـي يـده كتـاب اللغـة العربيـة ودفتـر التحضـير، بينمـا كنـت أحمـل بيـدي كيسًـا ممتلئًـا بأوراق اختبار الرياضيات بعد تصحيحها وتدوين درجاتها.

وخـلال دقـائق الانتظـار؛ انضـم إلينـا الأسـتاذ داود، قادمًـا مـن مدينـة السـعدية التـي لا تبعـد سـوى 10 كـم، يحمـل فـي يـده جريـدة الثـورة. لـم يكـن الأمـر مخططًـا لـه، بـل جمعتنـا الصـدفة عنـد السـابعة وسـبع وعشـرين دقيقـة، لتبـدأ رحلـة غيـر متوقعـة، رحلـة لم يكن أحدنا يعرف أنها ستكون نقطة تحولٍ لمجرى حياتنا.

لـم نمكـث طـويلًا فـي المـرأب، ذلـك المكـان الـذي يضـج بالحركـة فـي سـاعات الـذروة الصـباحية، حيـث يتسـابق النـاس لإنجـاز أعمـالهم والالتحـاق بوظـائفهم قبـل أن يـزدحم النهـار بالتفاصـيل الثقيلـة. لـم ننتظـر طـويلا، مـا إن توقفـت إحـدى العجـلات بجانبنـا حتـى اسـتقللناها، مسـتغلين المقاعـد الثلاثـة التـي تسـبق الصـف الأخيـر مـن الحافلـة، تلـك التـي تتسـع لاثنـي عشـر راكبًـا، وتتـنظم مقاعدها في أربعة صفوف، كل صف يحمل ثلاثة كراسي.

كـان داود قـد جلـس وسـطنا، إلـى يمينـه حسـن، وإلـى شـماله أنـا، كـأنَّ الصـدفة رتبـت جلسـتنا بعنايـة غيـر مرئيـة لتحـوك لنـا القصـة التاليـة. كـان داود يرتـدي قميصًـا أبـيض وبنطـالًا أسـود، ينسـجم مـع حذائـه المماثـل، وقـد سـرّح شـعره الفـاحم إلـى الخلـف بمـادة الجـل، مـع لمعـة مـن زيـت إمـلا الـذي زاده بريقًـا. كانـت جبهتـه العريضـة واضـحة فـي وجهـه النحيـف، وسـمرته الناعمـة منحـت

ملامحه هدوءًا مميزًا، وكأنه على موعد مع لحظةٍ لا يعرف كيف ستتطور تفاصيلها.

أما حسن، فقد بدا أكثر بساطةً وألفةً، مرتديًا قميصًا أبيض من المخمل المطعم بالحرير، مع بنطالٍ بنيٍ يتناغم مع لون شعره وحذائه المربوط بأناقة. كان وجهه العريض الحنطي يفيض بابتسامةٍ دائمة، تلك التي تستقر على شفتيه دون أن تفارقها، يعززها شاربٌ بلون شعره، كأن ملامحه تشكلت لتكون ثابتة في ذاكرة من يراه.

أما أنا، فقد كنت أرتدي بنطالًا أسودًا وقميصًا أزرقًا، لا أحمل في تفاصيل مظهري تكلفًا، لكنني كنت جزءًا من المشهد، حاضرًا كما الآخرَين، دون أن أدرك أن تلك الرحلة ستكون أكثر من مجرد انتقالٍ عابر بين نقطةٍ وأخرى قدر أن تكون نهاية لتجمعنا.

انطلقت بنا العجلة نحو مدينة خانقين، والطريق بدأ يعد الكيلومترات بصمت وكأنه يعكس حال البلاد، السماء صافية، والشمس مرتفعة، لكن خلف هذا الصفاء كان هناك اضطرابٌ خفي يتصاعد يومًا بعد يوم في المواقف والقيم والنفوس وخاصة بدأ الحصار يشتد أواره مع مرور الايام. درجة الحرارة تتراوح بين 30-35 درجة مئوية، فيما كانت كوكبة من الناس تملأ الشوارع، كلٌّ منهم منشغلٌ بهمّه، يسرع إلى عمله وكأن العجلة التي تحركهم ليست فقط وسيلة نقل، بل هروبٌ مستمر من واقعٍ لم يعد يحتمل التأمل.

لم يكن الزمن عاديًا تهجس بأن عجلاته صارت أبطأ وقعا مما كانت عليه، فقد بدأت فوضى الحصار تترك أثرها في كل زاويةٍ من المجتمع، تتغلغل في الأسواق، تتردد في الأحاديث بين الناس، وترسم على الوجوه ملامح خوفٍ لا يحتاج إلى كلمات ليُفهم. كان الجميع يحاول التكيف مع واقعٍ اقتصاديٍّ يزداد اختناقًا، حيث انحدرت الأحوال بثقلها نحو الغلاء، حتى باتت الأوضاع توشك أن تصبح كابوسًا يضغط على أعناق ذوي الدخل المحدود والطبقات الوسطى العاملة.

كان الحصار يمضي بلا هوادة، يترك خلفه شعورًا متزايدًا بالعجز، خاصة بعد أن تعاونت دول الجوار مع "الشيطان الأكبر" في فرض القيود الخانقة على العراق. لم يعد الأمر مجرد أزمةٍ اقتصادية، بل أصبح شبكةً متشابكةً من التحديات التي تسحب معها الناس إلى دوامةٍ من القلق والترقب، كأنهم يسيرون في طريقٍ ضبابي لا يرى أحدٌ نهايته.

مضينا بهدوء خلال الدقائق العشرة الأولى من الرحلة، كانت العجلة لازالت لم تتجاوز قصبات مدينة جلولاء، كنا قد وصلنا قرية حلوان ومنعطفات تلول وادي العوسج.. بعد تلك المسافة استغل الأستاذ داود الهدوء الدائر داخل العجلة بتصفح جريدته جريدة الثورة.

ما إن فتح الجريدة حتى انبسطت صفحاتها العريضة على افخاذنا، كأنها امتدت بأحضاننا بحثًا عن إجابةٍ لضجيج الأيام. صرنا نسترق النظرات نحو العناوين البارزة، نبحث لا عن

خبرٍ عابر، بل عن بلسمٍ يشفي ثقل الهموم التي باتت ملازمةً للحياة.

لكن ما شد انتباه الأستاذ حسن لم يكن خبرًا مألوفًا، بل عنوانٌ يتصدر الصفحة الأولى، بخط النسخ العريض، يُعلن أن "بعض الأكراد انتخبوا السيد رئيس الجمهورية صدام حسين خلال عملية الاقتراع الحاصلة في كردستان". كانت الكلمات أمامنا تُشبه لغمًا انفجر بيننا، ليس بسبب محتواها فحسب، بل لما حملته من غرابةٍ بالنظر إلى التعتيم الإعلامي السائد حينها، حين كان كل شيء يُصاغ بدقةٍ ليبقى خارج مدار العيون مع غياب النت والموبايل في ذلك الوقت.

في تلك اللحظة، لم يكن الخبر مجرد سطورٍ مطبوعة، بل أصبح ومضةً تشعل الأفكار، تتلاعب بالمشاعر، وتضعنا في مواجهةٍ مباشرةٍ مع ما كنا نظنه مستحيلًا. لم يصمت حسن، ولم يكن قادرًا على تمرير الأمر كما لو كان مجرد خبرٍ عابر؛ على وجهه بدت ردة فعلٍ غريبة، ابتسامةٌ واسعة تحمل في ثناياها استهزاءً صريحًا، كأنه بضحكته صار يفند كل حرفٍ في الخبر دون الحاجة إلى كلمات.

أما أنا، فقد لامس الخبر مشاعري أيضًا، لم يكن وقع المفاجأة سهلاً، خاصةً مع التحولات التي تحدث في جسد الوطن دون أن تصل إلينا الاخبار بشكلٍ مباشر. كانت دهشتي انعكاسًا لصدى الصمت الذي أحاطنا للحظات، حيث لم يكن أحدٌ منا قد توقع أن يواجه حدثًا كهذا في صباحٍ عادي، تحت غطاءٍ من تعتيمٍ لا يتيح لنا أن نرى أكثر مما يُراد لنا أن نرى.

يا ترى؛ هل هناك انتخابات جرت وقعها في كردستان العراق؟ لِمَ هذا التعتيم والتظليل الإعلامي الواضح من قبل وسائل أعلام الدولة المرئية والمسموعة والمقروءة على الشعب؟ يا ترى؛ ماذا يعني ذلك الخبر؟ ما مدى تأثير الحدث على العراق في المستقبل؟ .....

حلت تلك المفاجأة لتهز عرش الدولة، لتربك مكعبات أفكارنا بوقعها السيء على مستقبل العراق من وجهة نظرنا في حينه، هذا يعني حكومتان في جسد واحد لذا سترفق ذلك التناقضات التي ستنعكس على حياة الشعب من وجهة نظري. ثم أن الخبر كان صادما لنا، حل كلغم تفجر تحت أقدامنا دون مقدمات مسبقة. كان للخبر أهمية كبرى؛ كون هذه الانتخابات تعتبر هي بادرة تقسيم العراق، وهي الأولى من نوعها بين صفوف الأكراد تحت المظلة الأمريكية، هذا يعني بأنه سيتبع الانتخابات تفاصيل أخرى جديدة تلقي بظلالها على وحدة العراق، ربما تصل الحالة إلى ما يريده أعداء العراق من تقسيم وتفتيت وضعف الدولة.

كانت الحالة قد فرضت الأمر الواقع على العراق في تحد صلف لحكومة بغداد، التي ضعفت كثيرا عما كانت عليه قبل دخول مستنقع الكويت، وهذه تعتبر أول صفعة مواجهة للرئيس صدام حسين بشكل مباشر بعد الانسحاب من الكويت، وهي رسالة تهديد صريحة بتجاه الانفصال. حتما هذه الانتخابات هُيئت لبهرجتها منذ فترة طويلة قوى خفية، خُطِطَ لها لاختيار رئيسٍ صريحٍ لحكومة كردستان..

الخبر لشدة وقعه علينا هزَّ مشاعرنا، بحيث لم يصبر الأستاذ حسن على استكانته قط، أعترض بردة فعل قوية على صيغة الخبر، ناكرا صحة خبر الجريدة تماما، كأنَّه كان على دراية تامة بصيغة الانتخابات وما جرى بها.. مع ابتسامة استهزاء عريضة طغت على محياه من خلال صيغة التعجب الواضحة التي طغت على مشاعره المنافية لصيغة الخبر. لقد أظهر استنكارا واضحا بردة فعل مبالغ بها اتجاه الخبر، مكذبا جريدة الثورة وما دلت عليه، ما دل على أنه كان على علم بتفاصيل الحدث لإلمامه بأسلوب الانتخابات وأدارتها-- الخ.

لم تكن علامات التعجب والاستفهام على وجه الأستاذ حسن مجرد رد فعل عابر، بل بدت لنا كأنها تعكس تشفّيه وفرحه المبطن بما آلت إليه حالة العراق المزرية. غير أن واقع الأمر كان أكثر تعقيدًا؛ كان يعلم جيدًا ما وراء العناوين التي تُصاغ بخطٍ عريضٍ لتوجيه الرأي العام. أما أنا، فكان وقع الخبر عليّ مختلفًا، لم أكن امتلك المعرفة بما يجري في العتمة، هو ما أثّر فيَّ، بل المفاجأة نفسها اشعرتني بالذهول أمام حدثٍ لم أكن أتوقعه، وسط تعتيمٍ إعلاميٍّ حجب تفاصيل البلاد عن أنظارنا.

على النقيض من ذلك، أبدى داود سكينةً غير مألوفة، تقبَّل الخبر دون تعليق أو انفعال، كأن الأمر لم يكن جديدًا عليه، أو كأنه كان على درايةٍ مسبقةٍ بما يجري خلف الستار. كنت أنا الوحيد الذي انكمش داخل صمته، خائفًا على جسد العراق من أن يتفتت، من أن ينحدر إلى انفلاتٍ لا رجعة فيه، مقارنةً

بالأوضاع الصلبة التي كان عليها قبل دخول الكويت. أما حسن، فقد كانت صدمته من نوعٍ آخر، صدمة لا تنبع من القلق، بل من السخط، إذ رأى في الخبر عارًا على الصحة، صياغةً لا تمتُّ للواقع بصلة، مما جعل ردّ فعله عنيفًا، يفيض بشيءٍ من الانتشاء، وكأنه يُكذّب الخبر بطريقةٍ تحمل في طياتها سخريةً مُرة.

كان الخبر أشبه بفرقعةٍ غير متوقعة، انفجرت في وسطنا، لتنتزعنا من لحظتنا العابرة وتجبرنا على إعادة النظر في ما يدور حولنا. شعرت بذلك الارتباك اللحظي ونحن ننتفض في مقاعدنا، وكأن الكلمات التي قرأناها قد غزت حسن بإبرةٍ من الكذب، اخترقت يقينه وأثارت غضبه المكتوم. لم يحتمل الألم الذي أحدثه الخبر في داخله، فانتفض معترضًا بشدة، وكأنما يريد أن يمحو الحروف التي وقعت أمامه من الجريدة بحدّة رفضه.

أما داود، فقد كان مختلفًا، إذ انتفخت أوداجه بالصبر والحيرة، كأنه بات يزن الأمور بعقلٍ هادئ ويجمع ملاحظاته علينا، دون أن يُفصح عمّا يدور بداخله. وفي تلك اللحظة التي توتر فيها الجو بيننا، تساقطت أوراق حسن ليظهر على حقيقته، مقتضبًا، أشبه ببالونةٍ لم تحتمل حر الشمس فانفجرت لتلقي علينا قروؤها، علتْ وجهه علامات الاستغراب والاعتراض، امتزجت صفرة البشرة باحمرار الألم، وكأنما الخبر قد أشعل فيه شرارةً لا يمكن إخمادها بسهولة.

كشر حسن عن ابتسامةٍ صفراء فيها استهزاءً واضحًا، قبل أن يطلق كلماته بقوة، دون مواربة قائلا:...

- "كذب! كذب... والله العظيم هذا الخبر كذب! عارٍ عن الصحة، لا يمتّ للصدق بصلة! الاختيار في أوراق الاقتراع يعتمد على صورة المرشح، لا على اسمه، بسبب تفشي الأمية بين الكرد. لذا، لم تكن هناك إلا صورتا المرشحين: مسعود البرزاني وجلال الطالباني. فمن غير المعقول أن تدرج صورة الرئيس صدام بينهم... هههههه."

كان يتحدث بموضوعية، وبثقةٍ مفرطة تكاد تقترب من العمى، ثقة الواثق من نفسه كمن شارك في عملية الاقتراع بنفسه، يعرف تفاصيلها دون شك. تكلم بحرفيةٍ وبحرقة، كأنه يدافع عن حقيقةٍ يعرفها جيدًا، ضامنًا طمأنينته من جهتنا، نحن زملاؤه في العمل، كما ضامن صيغة قسيمة الناخب التي تحدث عنها وكأنها أمرٌ لا يقبل التشكيك.

لذلك، بقيت مصغيًا، متأملًا النقاش الذي بدأه حسن بحزمٍ لا يقبل الجدل، داحضًا خبر الجريدة، ومفندًا تفاصيلها ببراهين ومبرراتٍ ملموسةٍ ومقنعة، عارضًا الوقائع كما يعرفها، كاشفًا التناقض الصارخ بين العنوان الذي قرأناه وبين ما حدث فعليًا على الأرض. بأسلوبٍ واضح، دون تعقيدٍ أو تشتيت، شرح لنا آلية الانتخاب الحقيقية، كيف ديرت وسويت.

فـي الحقيقـة كـان قـد اقنعنـي بزعمـه وتفسـيره تمامـا، وأن خبـر الجريـدة لا تمـت للواقـع بصـلة، فهـي لـيس لعبـة أطفـال لـيطفح فيها عبث هنا أو هناك مثل ما تدعي الجريدة.

فـي وقتهـا كـان قـد غلبـه فـرح نجـاح الانتخابـات، كـان منـتش وهـو ينقـل لنـا صـيغة الخبـر، كأنـه قـد أمسـك بـالعروة الـوثقى، بصـرة القـبس، حيـث بـدأ يتحـدث بإسـهاب وحريـة عـن الموضـوع بعـد أن انفتحـت قريحتـه، شـارحا الهـدف مـن وراء الانتخابـات وسلاسة جرييها وحسم نتائجها..

لربمـا مـن حقـه أن يفـرح باسـترجاع بعـض حقـوق الكـرد الإنسـانية التـي يفتقـدها كونـه مـن أصـل كـردي، لكنـه غـال كثيـرا فـي فرحـه، مبـديا ابتسـامة عريضـة ملئـت شـدقيه حتـى بانـت نواجـذه. ففسـرتْ ابتسـامته وسـلوكه مـن قبـل الاسـتاذ داود الـذي التـزم الصـمت والسـكوت الحـاد علـى أنهـا اسـتهزاء وتشـفي بأوضـاع البلـد وبوضـع الـرئيس صـدام. هـذا يعنـي أنـه قـد تجـاوز الحد المعقول.

وفـي الحقيقـة لـم تكـن تلـك الأيـام أيـام فـرح بعـد أن خـرج العـراق مـن عنـق الزجاجـة وهـو مخضـب بـالجراح يجـر أذيـال الخيبـة والانكسـار أمـام قـوات التحـالف، بعـد أن كبلتـه الحـرب نتـائج مهولـة جسـيمة مـع فـرض حصـار جـائر عليـه. ناهيـك عـن آثـار الحـرب التـي أضـرت بالبيئـة والشـعب، بعـد أن دكـت القـوات الأمريكيـة والمتجحفلـة معهـا أسـس عمـاد الدولـة مـن كهربـاء ومخـازن وسـايلوهات ومعامـل تكريـر الـنفط ومصـانع الحديـد والصـلب وصـناعات الأخـرى وجسـور و...الـخ؛ حتـى جردتـه

مـن كـل شـيء يعينـه علـى إعـادة توازنـه وبالـذات قـوات جيشـه. بحيـث لـن يـتمكن مـن اسـتعادة أنفاسـه إلـى عهـد مـا قبـل الحـرب بتاتا...

فـي الحقيقـة كانـت أمريكـا قـد أعـادت العـراق إلـى فتـرة مـا قبـل عصـر التطـور، كانـت القـوات الأمريكيـة قـد غـدرت بـالجيش العراقـي بعـد أن أتفـق الطرفـان علـى الهدنـة والانسـحاب مـن الكويـت. ومـا أن بـدأ العـراق تطبيـق قـرار الانسـحاب مـن الكويـت؛ حتـى شـنت طـائرات الامريكيـة هجومـا كاسـحا علـى الجـيش المنسـحب لتـدمره تـدميرا شـاملا. فقتلـت الآلاف مـن عناصـر الجـيش ودمـرت المئـات مـن الآليـات الحديثـة علـى مـدى عشرات من الكيلومترات، بحيث دمرت ثلث الجيش بالكامل.

تلـك الأيـام كانـت أيـام نكسـة وانكسـار وقهـر، فقـدت بهـا القيـادة سـيطرتها علـى إدارة الدولـة بعـد ردة فعـل الشـعب الـذي أعتـرض علـى سـلوك القيـادة فـي انتفاضـة عارمـة شـملت معظـم محافظـات العـراق، أصـبحت حالـة مكونـات الشـعب وقيادتـه تحـت عبـاءة الفوضـى والعبـث، تلـك الحالـة عبـرت عـن المكنـون الـداخلي للفـرد بعـد أن يبسـت أوراق تأملاتـه علـى شـاطئ أحـلام السـنين العجـاف، بانـت الدولـة فـي نظـر الشـعب كشـجرة عريانـة جـرداء لا أوراق تغطيهـا ولا ثمـار تجملهـا، لا تعـرف كيـف أن تنجـد ذاتهـا وتـنقض القيـود التـي تكبلـت بهـا، تلـك الأحـداث مـا كانـت تحصل لولا عجرفة القيادة وغبائها في إدارتها شؤون الدولة.

لـم تكـن نشـوة الأسـتاذ حسـن مجـرد لحظـة عـابرة، بـل بـان انفعالـه لا يوافـق حالـة الـوطن المأسـاوية، تلـك التـي أغاضـت الجمـادات

قبل الأحياء. كان لزامًا عليه ألا يبالغ في فرحه، ألا يترك لرغبة الانفصال وقبول التقسيم موطئ قدمٍ في النفوس، خاصة في ظرفٍ قاسٍ كهذا، حيث بدا كل شيءٍ هشًّا تحت ضغط الأحداث.

من وجهة نظر الحزب الحاكم وربما حتى من وجهة نظر الشارع العام؛ كان تصرف حسن دليلًا على تجرده من عراقيته، كأنما رؤيته للواقع تتعارض مع الانتماء للوطن، لكن الحقيقة لم تكن بهذه البساطة. ومن منظور آخر، فالأم لا تجَوِح ابنها إن أساء، بل تحتضنه، ترعاه، تحاول أن تعيده إلى رشده. كان على القيادة أن تتصرف بوصفها أمًّا، أن تستوعب الشعب لا أن تلفظه، أن ترى الاختلاف في وجهات النظر نجاحا، بوصفه جزءًا طبيعيًا من سلوكيات الحياة، لا سببًا لصراعٍ يؤدي إلى طائفيةٍ وقوميةٍ تُزيد الشرخ بدل أن ترممه.

على الأقل، هكذا كنت أرى الأمور، وهكذا دونت ملاحظاتي، كأنني أحاول أن أفهم ما يجري دون أن أنحاز لما يفرضه المحيط. أما داود، فقد بدا مختلفًا، غارقًا في تجهمه وصمته المدقع، وكأن عقله يعيد تأويل ما قيل دون أن يجد له موقعًا في قناعته. لم يكن مقتنعًا تمامًا بتفسير حسن، لذلك، بعد برهةٍ من التفكير، توجه إليه وسأله...

- من أين استقيت هذه المعلومات؟

كأنه ود إثارته، وبيان أبعاد ارتباط حسن بالقضية، هكذا تحسست المسألة، خاصة حين فرض حسن ذلك الانطباع على

فكـــر داود، جـــراء تماديـــه فـــي فرحـــة وبهجتـــه بأحـــداث الانتخابات.. فأجابه حسن بشكل سلس قائلا:....

- الاعـلام الـدولي نشـر الخبـر، الانتخابـات جـرت فـي جـو ديمقراطـي سـلس دون مشـاكل تـذكر وبمشـاركة واسـعة مـن قبـل الشـعب الكـردي، لقـد فـاز مسـعود بنسـبة 50.1 بينما فاز جلال بنسبة 49.9 .
- إذا لماذا هذا التعتيم من قبل الدولة..
- لا أدري مـا السـبب، ولكـن الخبـر تناقلتـه وكـالات الأنبـاء والإذاعات كافة، وخاصة إذاعة لندن ومنتيكارلو ...

لـم يكـن فـي حينهـا وجـود أنترنـت وموبايـل، ولا سوشـيل ميـديا، هـذه التقنيـات ظهـرت بشـكل بـدائي بعـد عـام 1994، ولـم تـدخل تلـك التكنلوجيـا للعـراق إلا بعـد زوال نظـام صـدام حسـن وبالتحديـد بعـد سـنة 2006، أي لـم تكـن هنـاك سـوى الإذاعـات والتلفـزة، ولـم تكـن الحكومـة فـي حينهـا تسـمح لنـا بنصـب أجهـزة سـتلايتات ودش لمتابعـة قنـوات التلفـزة العالميـة التـي تبـث برامجهـا عبـر الأقمـار الصـناعية.. كـان الأعـلام مقتصـرا علـى أعـلام الدولـة العراقيـة فقـط – كمـا كانـت الدولـة تمنـع الاعـلام المحايد، كي لا تنعكس أصداء الأخبار على أبناء الشعب.

حينها تمادى حسن في نشوته قائلا...

- أكيـد الأن السـيد الـرئيس صـدام حسـين منـزعج مـن عمليـة الانتخابـات ونجاحهـا، بعـد أن أضـحت حقيقـة واقعة.

حاولت أن أنبهه على خطورة انزلاقه في الحديث كوننا نجلس في وسط العجلة، يجب أن يتوخى الحذر في كلامه، فقلت له..

- يا أخي وطئ صوتك، للحيطان آذن كما يقول المثل، نحن جالسون بين وسط غريب لا نعرف انتماءاتهم وولائهم ولا نعرف شيء عن توجهاتهم الفكرية، لا تجعلهم ينتبهوا على كلامك! لا تورطنا في موضوع لا نعرف عمقه ومداه.
- يا أخي انا لا اتكلم بشيء خارج العموميات، هذه هي الحقيقة الكل مسلمٌ بها

التففتُ للخلف مركزا على الوجوه التي تجلس خلفنا، كانت تجلس في اليسار امرأة عجوز بعقد السابع، يجاورانها رجلان طاعنان في السن يبدون أكبر منها عمرا، كل منهم غارق في همه، فتطمأنت من جهتهم.. تجاوزت بحدقي الصفوف التي تجلس أمامنا، تمعنت ببقية الركاب، فلم أتعرف على أحدا منهم، كل منهم منشغل بهمه وظرفه دون أن ينتبهوا لحديثنا الجانبي. إلا إني وددت أن نبتعد عن محطة الخطر، عن دائرة الشك والنار، عن مناقشة مسألة عفراء لا تضرع لبنا، مسألة تمزق الوشائج بدلا من أن تجمعها. خاصة كنا قد خرجنا تونا من بوتقة حرب فظة لفظت غيض نارها بين أحضاننا. وكأننا لا نرعوي من أخطائنا وأغلاطنا، فلا زالت دماء الشهداء لم تشف من على جبهات القتال الإيرانية..

لشدة الوقائع التي مررنا بها وآثارها التي انعكست على أحوالنا، تَذمرنا من الحياة، حيث فاق تذمُرنا غزل الخيال،

أصبحنا نتذوق أشكال المرارة بأنواعها، اصيبت مدننا بوابل البؤس والفقر والمرض؛ حتى نخر العظم ويبس الجلد. الخسائر كبيرة، توزعت على سنوات الشقاء التي تلت الحرب، ابتدأت بغصة الحصار ثم بالانحلال والتخبط ثم بالاحتلال، ثم بالخلل والتخلخل والعجز في مرافق الدولة.

الظلمة التي كنا نتحسس هبابها؛ صارت وشاح لنا ورهبة تحجب نور الشمس، فترة عمياء شلت طاقاتنا، وبالذات فترة الحصار التي ساءت بها أحوالنا؛ حتى دنت في انحدارها من الهاوية، كان ميل انحرافنا قد أبتدأ منذ أن ركبنا قطار الحرب مع إيران. منذ ذلك اليوم حلكت سماء الدنيا بأعيننا، عبثت بتفاصيل حياتنا، أكممتْ أفواهنا ووصمتْ آذاننا، عُمشت العيون وشظ البصر. الحالة جعلت آية الله تنطبق علينا " تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ، وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ " صدق الله العظيم.

كان من الأجدى تجاوز تلك النغصة، كان علينا تخطي ما نستطيع تخطيه، حفاظا على جمعنا ووحدتنا، كان ينبغي أن لا نركض حفاة خلف وهم يتلألأ في أذهان العدو، ليبقى ذلك العدو يمتص دمائنا.

القرارات الجائرة التي أطلقتها الأمم المتحدة بالجملة تحت الضغط امريكا، قرارات جائرة لا نستحقها كشعب، أنهكت كاهلنا، بددت أحلامنا، جعلتنا نسير في آخر الركب، أعادونا لنقطة الصفر، لفترة العصور المظلمة دون كهرباء، صار

حـال العـراق كبقـرة حلـوب أجهشـت عليهـا مجموعـة كـلاب شرسة من الداخل والخارج تبعا لمصالحها الخاصة...

أسـتمر حسـن فـي تخـويره دون أن ينتبـه علـى أنفاسـه التـي باتـت تضـبح نتيجـة جريـه، ممـا جعـل داود يفسـر سـلوكه كمـن يـود صـب الزيـت علـى النـار عـن قصـد، حتـى أضـحت العقـدة بينهما تأزز السمع والمشاعر والاحاسيس.. حيث قال حسن..

- أخـي ! أنـا لـم أخطـأ، المسـألة واضـحة وضـوح الشـمس، الانتخابـات يعنـي أنشـاء حكومـة كرديـة فـي إقلـيم كردستان، وهذا أكيد سيغيض السيد الرئيس.

حينها قلت له:....

- بـالله إلا يكفـي مجادلـة فـي مسـألة شـائكة، ملتهبـة، حيـث لا ناقـة لنـا بهـا ولا جمـل، أرجـو أن نغيـر مجـرى الحـديث قبـل أن تصـيبنا شـرارة منهـا ونحتـرق بلظاهـا.. أحيانـا تصـل بـي المشـاعر إلـى أن أوصـف ذاتـي بحشـرة تعـيش فـي أخاديـد عفنـة، صـيفنا ملتهـب، وخريفنـا مغبـر، وشـتائنا زمهريـري، وربيعنـا أجـوف، سـوف لـن نحـرز مقاصدنا ولو تجاوزنا كل العقد والهفوّات.

فيمـا بقـيَّ داوود صـامتا دون أن يعلـق بكلمـة، أو يـدخل أنفـه فـي معمعـة النقـاش والمجادلـة، لربمـا كـي لا يـزكم أنفـه بصـقيع الجـو، كأنـه قـد تـدرب تـدريبا جيـدا فـي صـنف المخـابرات الـذي كـان يعمـل بـه قبـل أن يُحـال لمجـال التـدريس.. لقـد كـان عنصـرا مـن عناصـر جهـاز المخـابرات بصـفة ضـابط مخـابرات لمـدة ثـلاث

سنوات أبان ترأس السيد برزان التكريتي جهاز المخابرات، وقد أحيل إلى التدريس بعد أن جرد رئيسهم من وظيفته في بداية عام 1991- لقد كان لجهاز المخابرات تأثيرا واضحا على سلوكه وعلاقاته.

الخبرة التي تلقاها في جهاز المخابرات منحته كياسةً وتأنيًا وبعد نظر، صقلت سلوكه بطريقةٍ جعلته يتقن الإصغاء أكثر من الكلام، يحفظ ملاحظاته في ذهنه قبل أن يخطها على الورق، وكأنه درب نفسه على قراءة المشهد قبل أن يشارك فيه. لم يتأفف ولم يُظهر أي انزعاجٍ ظاهري أمام تمادي حسن في غيّه، لكن في داخله كان بركانًا يغلي، يحتبس فورانه خلف ملامحٍ جامدة، لا تنطق بأي علامةٍ تدل على الامتعاض. كانت الشجون تغرق في بشرته السمراء.

تلك السمرة اضحت ستارًا يخفي خلفها عاصفةً من المشاعر، ولم يكن أحدٌ قادرًا على قراءة صمته، لا أحد يعلم بصهريج الغيض في أعماقه إلا الله وحده، تهجس في أعماقه بركانا يغلي دون أن ينفث قروءه.. بدا وكأنه يقيس الأمور بميزانٍ دقيق، يختبر كل كلمة دون أن يمنحها رد فعلٍ سريع. لم يكن تأخره في التعليق ضعفًا، بل حذرًا مُترسِّخًا، ينبع من سنواتٍ تعلم فيها أن السكوت أقوى من ردود الفعل، وأن الصمت يكون أبلغ من الكلمات حين يدخل العقل في معركةٍ داخليةٍ لا يريد أن يكشف تفاصيلها.

كان يبدو في ظاهره كمستنقع آسن، بارك في أرضيته هشة، تغشي كل من ينظر إليه؛ كأنما يخفي تحت سطحه عالمًا

مضطربًا لا يظهره إلا لمن يتجرأ على الاقتراب منه أكثر. كل من بلغ حدوده غاص فيه، ابتلعته أعماقه دون مقاومة، وكأنَّ أقدام حسن، في لحظةٍ ما، وجدت نفسها تغرق فيه دون أن ينتبه على نفسه.

أما داود الذي يتقن لغة الصمت الأكثر تعبيرًا؛ لم يكن بحاجة إلى الكلمات ليعبر عن ما مشحون في داخله، فقد نطقت ملامحه بما يكفي ليُفهم ما يدور في خلده. سمعته العيون بنهم، قرأت في قسماته ما لم يقله، كأنه تكلم بصمتٍ مدوٍّ، . تكلم بصمت بكل ما كان يجيش في أعماقه من لجج، بحيث أسمع القاصي والداني دون أن يسمعه حسن.... كانت تلك اللحظة أشبه بلحظة مواجهةٍ صامتة، حيث الأفكار تتلاطم في داخله، لكنها لا تخرج على هيئة كلمات، بل على شكل شجون تبقى معلّقةً في فراغ الذاكرة، تنتظر أن يُفسَّر صمتها لمن يجيد قراءة الإشارات غير المنطوقة لتنفجر.

لم يعجبه سلوك حسن، رغم ذاك بقي محافظا على كياسته وهدوئه، ولم تعجبه المجادلة الفارغة والتي لا تعنينا بالشكل المباشر، كان استاذا في صيغة تعامله مع الصدمات وخبيرا بإدارة لعبته.. أنها لعبة القط والفأر لعبة السياسة القذرة.

كانت تكمن في صمته قوة خارقة، خرافية، سحبته من ذاته ومن علياء كبريائه ووجدانه لجبهة الخصام، لبتر خطوط الألفة والعشرة والزمالة بين الأثنين، للواقع السياسي المضطرب والعائم بالتناقضات والافتراءات.. بل أنه صار يتهرب من مجاملتي بعد أن أدخل ذاته في قوس العزلة،

ضرب على نفسه طوق الوحدة، صرت لا أفهم سلوكه بعد أن تنحى عن الزمالة التي كانت تجمعنا قبل لقاء العجلة. كأنه وقف خارج حدود الألفة كشخصٍ يراقب الاحداث عن كثب.. فمنذ ذلك اليوم لم أعد أشعر به زميلا لي، بعد أن الغى صحبتنا من جدول أعماله.

حينها لم أستطع أن أستوعب سلوكه جيدا، لم أفهم غايته ولغة برمجته الجديدة، لم أفهم تعابير وجهه المتقلبة، تلك التي أخفت في طياتها أسرار اللعبة إلى حين، بعد أن جَزَلَنا من البوم صداقته وزملته.

الإنسان لا يُهيّئ ذاته لمسايرة الظروف، بل الظروف هي التي تصوغ تفاعله معها، تمنحه ألفةً خاصة، سواءٌ في العمل أو في صناعة الهدف. يمضي الإنسان خلف الحرية، فتمضي أحلامه معه، متكئًا على تلك الصحبة النقية التي يولدها العمل الإنساني، ذلك الرابط الذي يجمع الأفراد في انسجامٍ غير مصطنع، بل نابعٍ من طبيعة الأشياء. وخاصةً في مجال التعليم، حيث يلتقي الإنسان بالعمل المقدس، ليكون المعلم أكثر من مجرد ناقلٍ للمعرفة، بل واحةً تنهل منها الطيور دون أن ينضب معينها. فالمعلم، في كل الشرائع الدينية والاجتماعية والعلمية والتربوية، يشكل حجر الأساس لبناء الفكر والمجتمع. لم يكن أحمد شوقي مخطئًا حين قال:...

"قمْ للمعلّمِ وَفِّهِ التبجيلا –

كادَ المعلّمُ أن يكونَ رسولا."

أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذي –

يبني وينشئُ أنفساً وعقولا

ففي رسالته، لا يتوقف دوره عند حدود التعليم، بل يمتد ليكون مصدر الإلهام، مشعلًا للوعي، وجسرًا يعبر به الجيل إلى مستقبلٍ أكثر فهمًا وعمقًا.

كان الاستاذ حسن قد وجد قريحته مفتوحة الشهية، ولإضفاء جو من المرح والسعادة على ذاته والحضور، كان قد قال مبتسما:...

- أسمع هذه النكتة - وهو يود طلاء الود بمسحة من الفرفشة:.....

ود أحد تجار الأكراد أن يفتح شركة تجارية، وكان بحاجة لشريكين يساعدانه في إدارة الشركة، يشاركانه في الجهد والمادة.... وبعد جهد ومحيص تمكن من أن يتفق مع شخصين لهما المواصفات التي تنطبق عليهما شروطه.

تم الاتفاق وإعلان الشراكة وقد علق لافتة جدارية عريضة في مدخل شركته كتب على واجهتها أسم الشركة كالتالي- (شركة كاكه حمه وشركائه) ....

بعد مضي 3 اشهر على تأسيس الشركة مات أحد الشريكين! فأضطر إلى تغيير صيغة عنوان الشركة، فكتبها كالآتي (شركة كاكه حمه وشريك واحد فقط).....

مـرت علـى وفـاة الأول ثلاثـة أشـهر ليمـوت الشـريك الثـاني، ليضـطر إلـى تبـديل لوحـة العنـوان مـرة أخـرى لتصبح كالآتي:...

(شـــركة كاكـــه حمـــه وحـــده لا شـــريك لـــه) .

هههههههههههههههه....

حينهـا انطلقنـا خلفـه بكركرتنـا ضـاحكين، ناسـين مـا جـرى مـن جـدال دار بيننـا.... بعـد تلـك الطرفـة كنـا قـد دخلنـا حـدود مدينـة خـانقين واقتربنـا مـن مدرسـتنا البـارزة بنائهـا علـى يمـين الشـارع العام الرئيسي في مدخل مدينة خانقين.

4- زلة حسن

حسن يُعدّ من بين أكثر مدرسي اللغة العربية كفاءة، رغم انتمائه إلى القومية الكردية، وهو أمرٌ لم يكن ليؤثر في مكانته بين زملائه. كانت علاقاته متزنة وحسنة مع معظمهم، عرف عنه مسالمته، كرمه الأخلاقي، واعتداده بنفسه بطريقةٍ تعكس شخصيته المستقلة.

أما داود، الذي التحق بالمدرسة مع بداية العام الدراسي مدرسًا لمادة الأحياء، فقد جاء من "القرية العصرية" التابعة لمدينة السعدية، وينتمي إلى القومية العربية. لم يكن دخوله إلى ميدان التعليم مسارًا تقليديًا، بل جاء بعد حل جهاز المخابرات الذي كان يرأسه السيد برزان، شقيق الرئيس صدام حسين، حيث أمضى فيه ثلاث سنوات لم تكن مجرد مرحلة وظيفية عابرة، بل تجربة صاغت ملامح شخصيته، وزوّدته بنظرة مختلفة للأحداث، وجعلته أكثر حذرًا في الحكم وتأنّيًا في الخوض.

كان حسن قد انضم إلى حزب البعث قبل أعوام، متدرجًا إلى رتبة "نصير متقدم"، بينما بلغ داود رتبة "رفيق عامل"، في حين كنت حديث عهد بالحزب، أحمل رتبة "مؤيد". كان تصنيفي هذا نتيجة خيارٍ قسري، إذ خُيرت بين الانتماء للحزب أو فقدان الوظيفة بعد أن أتممت مدة الإنتداب، فاخترت الانتماء حفاظًا على استمراري المهني.

هذا يعني أقدمنا انتماءً للحزب هو الأستاذ داود، ومن ثم يليه حسن، ومن ثم أنا. حسب الدرجة الحزبية المناطة لكل منا. ومعروف سلم الحزب يتدرج كالآتي ...من مؤيد ثم نصير ثم نصير متقدم ثم رفيق ثم عضو عامل ثم عضو فرقة ثم عضو شعبة فعضو قيادة.. أهمية التسلسل هذا يعطي صورة عن أهمية الحزب في نفسية كل شخص وحسب فترة انتمائه للحزب واهتمامه به.

انعزال داود لم يكن صفة طارئة، بل حصيلة أعوام من العمل في أجواء تتطلب الصمت والتأني. شكّلته التجربة بطريقة أعمق، رسخت تحفظه وأبقت بينه وبين الآخرين مسافة حذرة. بدا وجهه كمرآة تعكس صدى ما يدور حوله، بوتقة مشاعر مضمرة، يحمل ملامح لا تُقرأ إلا بمن يعرف تاريخه.

في نظر العامة، بدا شخصية ثقيلة الظل، لا يسهل الاقتراب منها، أشبه بجدار لا يخترقه ضوء. عزوفه عن الاندماج لم يكن مجرد خجل، بل ربما درع نفسي بناه بحذر ليحمي ذاته من مفاجآت لا تُحتمل. باتت عزلته جزءًا أصيلًا من إرثٍ يرافقه حتى في الزحام.

كانت استقالة حسن هي الزلة من وجهة نظري، لحظة فاصلة، لم تكن مجرد قرارٍ إداري، بل تحولت إلى فعلٍ له بعدٌ سياسي عميق في نظر مناوئيه. اختار أن ينسحب من الحزب في توقيتٍ حرج، تمامًا مع بدء إجراءات الانتخابات الكردية قبل أسبوعين من موعدها، مستفيدًا من خصوصية قوميته التي لا

تشترط انتماء أبنائها لحزب البعث، وكأن هذه الخطوة وضِعت تحت مجهر التأويلات السياسية.

في أعين البعض، لم تكن استقالته فعلًا بريئًا، بل بدت وكأنها تحمل شيئًا من التشفي والكراهية، أو ربما تخطيطًا مسبقًا - سواء كان ذلك بقصدٍ منه أو دون وعيٍ كاملٍ لعواقب الأمر. ارتسمت حول قراره ظلالٌ من الضغينة، وكأنها تجسيدٌ لمزيجٍ من المشاعر الملتبسة التي تراوحت بين الغثاثة والخلاف والكره المستتر والمَقْت والإحْنَة ترق في مخيلة المقابل. كان القرار ثقيلًا، كأنه حجرٌ ألقي في مياهٍ راكدة، فحرّك ما كان ساكنًا وأثار أمواجًا من السخط والتأويل والتساؤلات.

لكن الأهم من ذلك، أن توقيت الاستقالة جاء في ظرفٍ شديد الحساسية، حيث كان الوطن يعاني من نكساتٍ متلاحقة وتقلباتٍ سياسيةٍ زادت من اضطراب المشهد العام. لم يكن هذا الزمن يسمح بمثل هذه الخطوة دون أن تُحدث صدىً يتجاوز مجرد انسحابٍ فردي من الحزب. لقد جاءت في لحظةٍ بدأت فيها التحديات تكبر، وتطفو على وجه السياسة، داخليًا وخارجيًا، كأنها نقطة أخرى تضاف إلى خارطة التحولات التي لم يكن أحد قادرًا على التنبؤ بتبعاتها بالكامل.

كانت لهجة التحدي والبهجة والسرور المبالغ به والتي ابداها حسن، أوقعته في شرك مناوئيه، وخاصة تلك التي أظهرها عقب الانتخابات، والتي أوقدت فتائل البغض والحقد في فكر خصومه، وكأنه قد أوقد جمر عذابه بيده وفي غير أوانها..

ذلك ما أعطى لصفة الاستقالة طابع التجرد عن الوطنية وعن المسؤولية، لمع صفة التشفي بالانتكاسات التي تعرضت لها الدولة، حيث برقت تلك الومضة في جوهرة فكره بوضوح، بانت في صفحات تعابيره المقروءة، كشفت عن مكنونه الداخلي لمن أستمع له وأنتبه على حديثه، تلك العلامات غيرت من صيغة المعادلة، جعلتها غير متوازنة في تركيبة مخ حسن لميله الواضح.

لم يكن سلوكه الأهوج سوى غلطة تمسك بها، لمع حيثياتها بسذاجة، اسقطته عن مقعده، جرجرته لمصب العناء والشقاء، أضحى كأرجوحة تهزها ديناميكية الاحداث.

قد يكون الأنسان هو سبب تعاسة نفسه دون أن يدرك، لذلك عليه أن يحسن من سلوكه وألفاظه في الأماكن العامة، أن ينتبه على قراراته وأحكامه قبل المضي بها في بهرجة فارغة لا ناقة له بها ولا جمل. كان عليه أن يتخلى عن فعل الظن الذي حرف مساره، كان عليه أن ينتبه على ما يجول في خواطر مناوئيه قبل أن يتحرك من مكانه..

يذكر في يوم من الأيام نزلت امرأة تسمى (البسوس) بناقتها في جوار (جساس بن مرة) وكان من سادة قومه، وبعد أن أقامت عنده مدة؛ دخلت ناقتها (البسوس) في إبل (كليب بن وائل)، فرماها بسهم، فقتلها... وكليب بن وائل كان سيد قومه وكان رجلا متجبراً، قاسيا، يأمر فلا يعصى له أمرا.

لما علم جساس بما صنع كليب؛ ثار لقتل ناقة المرأة فتربص لكليب ومن ثم قتله..

على أثر تلك الحادثة دارت الحرب بين قوم كليب وجساس أربعين عاما، سميت بحرب البسوس. كان في قوم جساس رجل شجاع عاقل وماهر جدا في الحرب يسمى (الحارث بن عباده) الذي رفض مساعدة قومه في الحرب حيث لم يعجبه قتل كليب في مقابل ناقة وهو سيد قومه....وقال: - لن أشارك في الحرب (فلا ناقة لي فيها ولا جمل). فمضى ذلك مثل بين الأقوام منذ ذلك العصر.

فأستاذ حسن لم يكن واعيا كما كان الحارث بن عباده، بل أنه ود إشعال فتنة الحرب بين الحزب وبينه دون أن يتبع مصلحته ومصلحة عائلته. دون أن يقدر إمكاناته المادية والمعنوية الحقيقية التي تموله الدولة بها، معتمدا في سلوكه على البلبلة الرائجة والأخبار الشائعة والعبثية المعمول بها في الأعلام، دون أن تكون له بها ناقة ولا جمل...

أحيانا يضع الإنسان نفسه في مواقف حرجة لا يحسد عليها، تلك المعروفة بمواقف التقاطع، أشبه بتقاطع قطبي المقص، كان حسن قد أقترب كثيرا من شواظ النار دون أن يدرك حدة اللسعة، فلم ينتبه على ذاته الأسيرة إلا حين سعى للطيران فأنتبه على قوادمه وخوافيه التي لا تؤهله على ذلك قد لسعت.

هجست به قد هفا إلى وكر التهمة برجله، كالحشرات التي تهفوا نحو شعل المصابيح في العتمة، فلا تنجو من لسعة النار

إلا وهيَّ مسلوبة الارادة...هكذا شعرت به أحرق جناحيه كتلك الحشرات، استقطبته أضواء الأعلام الفاشية نحو الانتخابات فأصطلى بنارها.

من يود أن يمخر عباب البحر فعلية أن يرتقي مركبا يحتمل الأمواج العاتية، وإلا سوف لن يدرك مرامه ولن يصل هدفه إلا وهو في عداد المفقودين، قد لا يدرك الأنسان ظله وهو واقف تحت أشعة الشمس، لكنه سيكون الظل واضحا لمن حوله، بارزا في الافق... تلك هي مصيبة حسن الذي لم يرى ظله وهو يبرز عيوبه قط. كان في موقف شائك، حين أبرم خيوط العقدة على عنقه ومستقبله. استعجاله وعدم اتزانه أخلا بشواخص ظنه، فلاحت له في الأفق نتيجة سلوكه الأرعن...

مضت الأيام وهي تلتهم بعضها بصمتٍ، دون أن تحمل معها وضوحًا أو حسمًا، خلالها توثقت علاقتي بحسن حتى بلغت حدّ الثقة المطلقة. لم يتغير نمط ذهابنا وإيابنا إلى المدرسة، بل ازدادت بيننا الألفة والرفقة، كأن الأيام كانت تصقل علاقتنا بدلاً من أن تتركها عرضةً للتآكل.

أما داود، فقد بدا مختلفًا، كأنه يُعيد تشكيل المسافةٍ بينه وبيننا، متراجعًا إلى ظله الخاص. لم يعد لقاءه بنا كما كان، بل تكدر أكثر، وصار يختار سلوكًا مغايرًا لما اعتدنا عليه. كان يتصرف بحذر، يراوغ لحظات المواجهة، يبتعد سواء داخل المدرسة أو خارجها، حتى غدت لقاءاتنا به لا تحدث إلا صدفة.

لـم يعـد يجلـس فـي غرفـة المدرسـين كمـا كـان فـي بدايـة تعيينـه، صـار يتجنـب المسـاحات المشـتركة معنـا، ينتقـي بعنايـة توقيـت خروجـه إلـى الصـفوف، وكأنمـا يـدير خطواتـه بحيـث لا تتقـاطع مـع خطواتنـا. أحيانًـا كـان يـؤخر دخولـه الحصـة خمـس دقـائق، فقـط ليضـمن أنـه لـن يلتقينـا فـي الممـر. كأنـه أحكـم عزلتـه، بنـى حولـه ذاتـه سـورًا غيـر مرئـي، لـم يعـد يظهـر إلا عرضًـا بـين أروقـة المدرسـة. ومعظـم وقتـه، إن بحثـت عنـه، تجـده جالسًـا فـي غرفة المدير، حيث بات مكانه المفضل بعيدًا عن الجميع.

الفصل الثالث

1- استدعاء حسن

عدتُ إلى البيت، مُحمّلًا بثقلٍ لا يُستهان به، كأن يومي لم يكن مجرد ساعات مرت، بل حقبة كاملة استنزفتني. الأمر كان أشبه بشيء تفوق حساسيته قدرة أيّ عقلٍ على الاستيعاب، شيء بطنت به الظلال، متخمٌ بالجور والشجن، مُثقلٌ بأسئلة بلا إجابة.

انشغلتُ طوال النهار والليل أفكك تفاصيل القضية، أقلب محتواها في رأسي بلا توقف، حتى خُيّل لي أنني أحلم بها وأنا مستيقظ. ولم أستعد ذاتي إلا عند منتصف الليل، حين اخترق الصمت ربتٌ خفيفٌ على الباب الخارجي.

كان الطقس حارًا، الظلام الدامس ممتدا على البقاع حتى الخيال. المدينة مستيقظة كما لو أن الليل لا يملك سلطانًا عليها. الناس لا تهجع لفراشها إلا متأخرة صيفا، لكن الطارق هذه المرة لم يكن من العابرين العاديين وهو يحاول أن يضيء عتمة فكره في عتمة تلك الليلة. فتحتُ الباب برفق، فوجدتُ أمامي الأستاذ حسن... واقفًا عند العتبة، شاحبًا، خائفًا، كأنَّ ظل الخائف حل دون أن يحضر.. لم يأتي حسن هنا للزيارة، ولم يكن يحمل أي شيء سوى الارتباك المرتجف.

كان قد بُلّغ بما بُلّغت به، استُدعي إلى دائرة الأمن بنفس الطريقة، بنفس الكلمات، ربما من نفس الصوت. لم يكن بحاجة لأن يشرح لي شيئًا، ولم أكن بحاجة لأن أسأله...

فكلانا كان يعرف الآن أن القضية ليست عادية، بل أن الشَرك امتدّ ليطال آخرين.

في داخلي لم أستطع أن أكفّ جماح اللعنة على من ورّطني في هذه القضية العاقر، لم يكن ينبغي لها أن تُمنح فرصة لتتغذى على حياة إنسان، كان الأجدر أن تُرمى في مبزل المقايضات والمساومات، لا أن تُصاغ كنارٍ تتوهج وسط هذا الهشيم المهترئ.

عدتُ إلى البيت مشحونًا بشيء ثقيل، لا هو غضبٌ خالص، ولا هو مجرد جزعٌ، بل حالة من الإنهاك النفسي الذي تسرّب إلى عظامي وأثقلني كما لو أنني عائد من معركة لم أُجهّز لها.

كنتُ مجرد "شاهد"، لكنني لم أشعر بهذا العبور الهين الذي يوحي به اللقب، بل غدوتُ قطعة متورطة في لعبة أكبر مني. رأسي كان محمّصًا بمخلفات العقدة، مشبعًا بدخانها، كأنني كنت عالقًا داخل محركات الزمن وهي تعيد تدوير العقدة بلا توقف. كل شيء يمكن تجاوزه، إلا العبث بأمن الدولة، إلا التجرؤ على القائد المبجّل. هذا أمر لا يُترك للصدفة، لا يُترك للزمن كي يُسوّى، بل يُفتح له ملفٌ يُطوى فقط حين ينتهي كل شيء.

كأنَّ دائرة الأمن وضعت يدها على سرٍّ مشتعِل، عقدة لا منفذ لها، لغزٌ طالبتني أن أقدّم تفسيرًا له، وأنا بالكاد كنت أستطيع أن أتلمّس ملامح الفكرة في غبرة الذهول. المفاجأة أربكتني، صرتُ أبحث عن ثلمة صغيرة في جدار هذه القضية لأنفذ

منه. لم تكن المسألة مجرد استدعاء، كانت شبكة متشعبة، فيها أزمة ثقة، فيها عدوانٌ مكبوت، فيها كيدٌ خفي، فيها خوفٌ مشحونٌ بصمت ثقيل.

في شهادتي، نفيت عن حسن تهمة سب الرئيس. كنت صادقًا، متأكدًا من كلمتي، لأنني أعرف أن تلك التهمة إن ثبتت تودي بهلاكه. لكنه في عبثه الغير مبرمج كان قد استهزأ دون شعور. وهذا كان كافيًا ليجعله هدفًا في عين مناوئيه..

رغم ذلك أنصفته، ولكني لم استطع أن أمحي ما قيل عنه في التقرير المعد. ومع أنني أدرك تمامًا أن أحدًا لن يراه إنصافًا، بل مراوغة وتجني. لذا قررتُ عند عودتي إلى البيت ألا ألتقي أحدًا في الطريق. كي لا أسأل عن فحوى القضية التي استدعيتُ من أجلها. آثرت العزلة، والانغماس في سبات الراحة، هروبًا من الصفير والحفيف. لا أرغب نظرات المتطفلين، ولا استسيغ أسئلة الفضوليين تتسلل ألَيَّ بلا استئذان، ولا بأن أكون موضوعًا في مجالس الحمقى. وددت ابتعدتُ عن شلّة النفاق والثرثرة؛ أولئك الذين لا تعنيهم إنسانية الإنسان بقدر ما تعنيهم النقر في الطبول والصفير بالمزامير.

حين وصلتُ البيت، قررت أن أكون حبيس البيت، أغلقتُ الباب على نفسي كمن يهرب من عالمٍ لا يملك فيه مكانًا. كان جسدي متعبًا، فيما رأسي كان بركانا يشتعل بحلقات متداخلة من التفكير، دائما ما أعود إلى نقطة البداية مع كل محاولة للهروب. دائما ما أدور في فلك الحدث، أُقلّب تفصيل العبث

الـذي دار داخـل العجلـة، أبحـر فـي كـل احتمـال فيـه ومضـة، مـن يوم 5\2 إلى لحظة خروجي من غرفة التحقيق.

حاولـتُ أن أمسـك الخـيط الأول، أن أقـبض علـى الطـرف الـذي قـد يقـودني إلـى الواشـي. خمّنـتُ كـل شـيء، نقّبـتُ فـي ذاكرتـي عـن أحـداث صـغيرة، خممـت جعبهـا، بحثـت عـن صـدَفٍ مـررت بهـا دون انتبـاه، عـن كلمـة قيلـت أو لـم تُقـال. طرقـتُ أبـواب الواقـع والمحـال، ركبـت مـوج الخيـال، سـافرتُ إلـى دهـاليز الـذاكرة عبـر بوابـة الـزمن، وضـعتُ كـل مشـهد أمـام عينـي... لكن لا شيء ثبت، ولا اسم ظهر أو خطر لي على البال.

وخاصـة حـين علمـتُ أن داوود قـد اسـتُدعي هـو الآخـر للشـهادة، أدركـتُ أن الـدائرة تتسـع، وأن الحقيقـة لا تـزال تهـرب مـن قبضـتي فـي فـراغ يتوسـع كلمـا وددت أن أغـوص بالبحـث عـن اللغـز. لـم يعـد شـيء واضـحًا أمـامي سـوى مسـألتين: اتهـام حسـن بسب الرئيس، وزجنا أنا وداود كشهودٍ داخل دائرة التهمة.

عـدتُ وفكـري غـارقٌ حتـى الأعمـاق فـي اللغـز، يـدور حولـه بـلا هـوادة، كمـن يطـارد شـبحا فـي غرفـةٍ زجاجيـة دون أن يقـبض علـى صـورة حقيقيـة. كنـتُ أبحـث عـن الشـرارة التـي أشـعلت هـذه الفتنـة. تـرى مـن كتـب ذلـك التقريـر المغـرض؟ مـن ورّطنـي وورّط داود وحسـن فـي هـذا المسـتنقع الـذي يصـعب الخـروج منه دون ندوب؟

كـان كـلّ تفكيـري منحصـرًا فـي دائـرة الغمـوض، فـي عقـدة المعضـلة ومصـدرها. الأمـر بـدا جليًّـا: عـينٌ تراقـب، قلـمٌ مسـموم

أدرج اسمي في ملفٍ قذر. الواشي كان بارعًا حدّ التلاشي؛ أخفى نفسه داخل تعقيدات اللغز، فلم أجد له خيطًا أمسك به. بدا كأنه يختبئ بين ظلال الذكريات، بين لحظات ظننتها تافهة وعابرة، لكنها كانت تحمل بصمته الخفيّة.

كان عليّ أن أستعيد كل شيء، كل كلمة، كل حركة، كل لقاء. أي تفصيل يمكن أن يكون مفتاحا لغايتي. لكن الذاكرة بطيئة، لا تعاونني، تحجب عني الصورة الأخيرة التي قد تربط الأحداث ببعضها.

وفي وسط هذا التيه، كانت الحقيقة الوحيدة الواضحة أمامي أن القضية لم تعد مجرد تحقيق، بل كمينٌ نُصب بعناية... ولا أحد يعرف من وضع اللغم في سلتنا.

خلال عودتي حاولت أن أتخفى عن الأنظار، أسير خلف الجدران مبتعدا عن الوجوه قدر الإمكان، كي لا يفتح صنبور البلاهة بأسئلته العقيمة بوجهي، مما أضطر إلى إجابته، فالقضية لا تخص أحدا، ولا التهليل والتشهير من شيمي.. كنت منزعجا من الحالة جدا، وأهجس بذاتي مراقبة من قبل هذا وذاك، وبالذات من رجال الأمن الذين يتصرفون مع المتهم تصرف الكلاب المتوحشة.

في أعماقي وفي ذاتي المأسورة كنت يقضا أشبه بالقط، إلا أني في واقعي منزعج جدا من الحالة، كونها حساسة، شبكية، ممكن أن تودي بي إلى مستنقع التهلكة.. في الحقيقة كنت مهزوما، مهزوزا في داخلي، مضطربا بجوارحي، لا أريد

الخـوض فـي معمعـة الموضـوع لألا أزيـد فسـاد الحالـة، فالعبـث مع أمن الدولة ممنوع بتاتا.

كنـت أشـعر أننـي مراقَـبٌ مـن جهـةٍ مـا، كنـت أشـعر بـذاتي مراقبـة مـن قبـل جهـة خفيـة مسؤولة عـن ذاتـي، مراقـب مـن قبـل الشـيطان والحيطـان والشـوارع التـي أمـر بهـا، كـأن الأعـين تترصـدني مـن ثقـوب الجـدران، مـن نوافـذ الطرقـات، مـن التقـاء الأرصـفة. لـم يكـن الخـوف مجـرد انفعـال؛ كـان كائنًـا يملـك أطرافًـا وقـدرات خارقـة، يملـك أنفاسًـا، يملـك عيونًـا تـنعكس علـى وجهـي كلمـا مررت بجانب أحدهم.

الخـوف لـه مجسـات متشـعبة تلامـس قلبـي، تـنعكس علـى وجهـي، أهجـس بـه يتبـع ذاتـي كـذئب يتـربص بـي، بـلا اسـتعجال، بـلا خطـأ، بـلا رحمـة. وازع شـيطاني لابـدٌ فـي عيـون النـاس، مرسـوما علـى الجـدران والحيطـان التـي أمـر بهـا. كـأني قـد تورطـت فـي ورطـة لزجـة دون أن اسـتطيع الـتخلص منهـا، كغـراء الفئـران، بـتُ اشـعر بـذاتي أنـا فـأر أود الافـلات مـن قبضـة العقدة اللزجة، شِبَاكٌ لا استطيع الانفكاك منها.

العقـدة الآن لـم تعـد مجـرد اشـتباه، لـم تعـد مجـرد واقعـة منعزلـة. صـارت شاسـعة، تمـددت، احتـوت شـريحة مـن المجتمـع بأسـره - أنـا، إدارة المدرسـة، داوود، حسـن، أسـرة حسـن، الأصـدقاء، الجيـران، كـل مـن مـرّ ولـو عـابرًا فـي محـيط هـذه الـدائرة الغريبـة. لـم أعـد أملـك فكـرة عـن كيفيـة الخـلاص، ولـم أجـد منفـذًا للهـروب فـي العـراء. أينمـا أذهـب فأنـا مكشـوف للمـلأ، المنافـذ أغلقـت،

والخطوة الغير محسوبة تؤدي إلى مجهول، بت في حيرة من أمري، لا أعلم إن كنت سأخرج من الفخ كما دخلت أم لا.

شعرت بذاتي خجولة جدا، كأنني فقدت بريقها، كقطعة قماش سلطتها الشمس، حتى تبدى لونها وتآكلت خيوطها. لم أعد أملك لمعانًا، لم أعد أعرف كيف أستعيد لذاتي رونقها. لطيبتي أشعر بها غشيمة، لا تفقه شيئا من أمور الدنيا، كنتُ غريبًا حتى عن نفسي، لا أفقه شيئًا مما يدور حولي، لا أملك خريطة للهرب، ولا مفتاحًا للخلاص. كان اللايقين يحيطني كما لو أنني في متاهة دون مخرج، وأي محاولة للفكاك منها تؤدي بي إلى الفراغ ذاته. كنت أرى كل شيء متشابكًا، ضبابيًا، كأنه دخان بلا مصدر. كنت هشًّا، مكسور الجناح، خفيفًا كأنني جزء من العدم نفسه.

أعرف أولئك المتطفلين الذين يتسللون في زوايا حياتنا كما يتسلل العفن في الزوايا الرطبة. يقبعون في المقاهي والشوارع، يتشممون أسرار الناس ويغوصون في تفاصيلهم، لا لشيء سوى التلذذ بالخوض في شؤون الآخرين. ينقلون الفتن كما ينقل المرض، يطعنون بالغيبة والافتراء، يثرثرون بالأسماء كأنهم يمضغونها بأسنانهم، يبيعون مشاكل الناس على حبال المقاهي بعد أن يبهّروها بالكذب والتزييف.

وأنا في البيت كنت مشتتا في تفكيري، بحيث أنزلق بعيدا وأعود برفقة الأنا متخبطا في تفاصيل القضية، كمن يستشير القمر والنجوم عن دروب الخلاص ولا يتلقى جوابًا.

كانت الأفكار تأتي ثم تهرب، كالظلال العابرة في الليل. فكرة تلهمني، طوية تلهيني، وقفة تُرهقني، جذوة تشدني، أصبر هنا وأهرب هناك، أقلب الأحداث، أعيد ترتيب خلخلة الظن بعيدا عن لغو الناس، أعصر أوراق ذاكرتي، أقلب صفحاتها، لكنني لم أجد فيها غير فارغ شاسع، خالية الوفاض، بلا قيح وبلا قروح، لا خيطٍ فيها يقودني إلى الواشي. كما لو أنني أُعيد ترتيب الفوضى محاولًا أن أنتزع يقينًا من شظايا الشك.

كنتُ قد عشت الأحداث بكل تفاصيلها - مع داود، مع حسن، مع ضابط الأمن، مع رجل الأمن المُبلّغ، مع المدير الذي أطلّ للحظة ولم يُضف يقينًا، مع ذاتي المرتبكة التي غدت مرآة مشروخة لا تعكس إلا هشاشة الفرضيات. وجدتُ الخطوط كلها متشابكة... ووجدتُ نفسي أفقر من أن أفك الشفرة.

كل كان يقودني لوجهة ما، كل كان يسيرني على هواه، كأننا جميعا ندور في دوامة مبهمة ليس لها اتجاه ثابت، لكن الجميع يبصم بإبرام العقدة التي أبرمها حسن بسذاجة حول عنقه.

لا أعرف كيف أصل طريق الخلاص، لقد عشت الحالة العبثية بعيدا عن الروتين الذي لازمني قبل أن تطأ قدمي موضع الحدث، حيث منعتني الفكرة من أن أكون بطبيعتي المعهودة؛ فتغير سلوكي حتى مع أهلي في البيت. أشعر بأفراد العائلة التمسوا ذلك التغير الحاصل في سلوكي العام دون أن يستطيعوا تفسيرا للحالة التي أعيشها، وأظنهم قد ألتمسوا حالة القلق العابثة بذهني وسلوكي.

لـم يسـتقر ذهنـي لحظـة واحـدة خـارج صـلب الموضـوع، كنـتُ غارقًـا فـي السـؤال الوحيـد الـذي يـأبى أن يُجـاب: مـن كتـب التقريـر؟ مـن زرع الشـك؟ مـن أشـعل هـذه النـار؟ لابـد أنـه شـخص قريـب، لـيس غريبًـا، لـيس خـارج الـدائرة. يعرفنـي ويعـرف حسـن وداوود. يعـرف كيـف يتحـدث عنـي بلغـةٍ تجعلنـي مـادةً للشـك. يعـرف كيـف يـدخل إلـى صـميم القصـة دون أن يُسـمع وقـع خطواته.

وأنـا فـي شـكي، بـدأتُ أتراجـع خطـوة عـن الجميـع. لـم أعـد أنظـر إلـى الأصـدقاء كمـا كنـتُ أفعـل، لـم تعـد صـداقتهم تهمنـي وتحمينـي مـن الهـواجس، بـل صـارت كـل واحـدة منهـا احتمـالًا مـن الشـك، صارت كل علاقة نقطة استفسار لا إجابة لها.

صـرت أعيـد قـراءة أوراق كـل واحـد مـنهم، كـأنني أبحـث عـن ندبـة مخفيـة، عـن علامـة تـدلّني علـى الخيانـة. أقحمـتهم جميعـا فـي الحسـابات، فـي الاحتمـالات، فـي المصـيدة التـي نصـبتها لعقلـي كـي يكشـف الحقيقـة. فكـرت فـي شـلة الأصـدقاء، بـدأتُ أشـك فـي هـذا وذاك، فـي أخلاقـه، فـي ثقافتـه، فـي طائفتـه، فـي قوميتـه - صـار كـل شـيء جـزءًا مـن المعادلـة، وكـل معادلـة غـدت لغـزًا، وكـل لغـز أشـبه بببـاب مغلـق لا يُفـتح إلا بانفجـار. كنـت أحـاول أن أعيـد الأمـور إلـى نصـابها، لكـن الحقيقـة أخـذتني بعيـدا فـي متاهـة من الحيرة لفت معارفي في دوامة الشك.

كمـا صـرت أعيـب علـى نفسـي ضـعف ذاكرتـي التـي لا تسـعفني حـين أحتاجهـا، أعيـب علـى نفسـي قلـة علاقـاتي حـين تحاصـرني الأسـئلة. كنـت أعيـب علـى نفسـي ضـعف انـدماجها فـي المجتمـع،

قلة حضورها في مجتمعٍ أعرفه ويعرفني، لكنني فيه لا أشعر أنني جزءٌ منه تمامًا. دائمًا ما تكون نفسي الأبية منطوية على حالها، إلا من بعض الزملاء المقربين الذين لا يزيد عددهم على أصابع اليد الواحدة، وكأني حصرتها في قوس زملاء الوظيفة فقط، كأنها متمرّدة على الاختلاط، حيث لا أصدقاء حقيقيين، لا دوائر تمتد خارج حدود العمل. لكن المفارقة كانت قاسية، كنت معروفًا للجميع، اسمي يلمع ضمن نطاق المجتمع، لكن عالمي الداخلي كان ضيقًا، لا يتسع، لا يشابه ما يراه الآخرون حين يتحدثون عني. أن تكون معروفًا لا يعني أن تكون قريبًا من أحد.

والآن، وسط هذه العزلة، وسط هذه القضية العالقة، وجدت نفسي أحسد أولئك الذين يملكون ذاكرة حادة، ودوائر واسعة، وانتماءً غير مشروط بالمكان. كنت أعيد الحسابات بلا توقف، أتساءل إن كان هذا الانطواء قد صنع مني فريسة سهلة للوشاية، أم أنه كان خطيئتي الأكبر حين ظننت أن قلة المعارف تعني قلة المخاطر.

أحيانا أجد نفسي صغيرا جدا أمام بعض البشر من هم أقل شأنا وشهادة وثقافة مني لاختلاف السلوك بيننا، لكثرة معارفهم. على مدى سنوات، كنت أعلم أن جارنا، السيد عبدالرحمن، يملك ذاكرة لا تشبه ذاكرة البشر العاديين. كان يعرف نسبي، عشيرتي، أقربائي، وظائفهم، اتجاهاتهم، حتى أولئك الذين بالكاد أعرف عنهم اسمين أو ثلاثة. كأنه مختار العشيرة غير الرسمي، رجلٌ يُخزن الأسماء والتواريخ كما

يُخزن المرء أرقام الهاتف. كأنها بالنسبة له هواية، ولكن على قذارتها كانت زنخة، على الرغم من أنها تنفع في أوقات الشدة. كنتُ أجدها مهمةً شاقةً، بينما كان هو يمارسها كتسلية. أن تعرف كل شيء عن الجميع، حتى دون أن يكون لك صلة مباشرة بهم، هذا أمرٌ يفوق الحد الطبيعي للمراقبة.

قبل أيام، قابلتُ رجلًا آخر بالصدفة في الأعظمية في بغداد. اسمه صالح لكنه لم يكن صالحا أبدا، بل كان طالحا. كان لقاءً عاديًا، أنا لا أعرفه ولكن هو الي يعرف عني كل شيء مع أنه اللقاء الأول بيننا، كأي غريبا في سلوكه، ما حدث كان أشبه بصفعة مفاجئة تلقيتها من يد لا أراها. وجدته يعرف كل شيء عني بالتفصيل، يعرف عن حياتي الخاصة - يعرف اسمي واسم زوجتي واسم ابني، أين عشت وماذا أعمل، ماذا أهوى، أشياء يفترض أن تبقى داخل دائرة البيت. لكنه قالها كما لو أنها معلومات عامة، كما لو أنني كتاب مفتوح يقرأ منه متى يشاء. بصراحة كرهته جدا، كرهت طبيعته وأسلوبه الوقح. شعرت نحوه بنُفورٍ غريزي، باشمئزاز لم أحتج لتفسيره- كان أشبه بالجدري مثيرًا للقلق، مخيفًا في بساطته التي تحمل تهديدًا غير منطوق.

في تلك اللحظة، أدركتُ أن بعض البشر لا يحتاجون إلى اختراق الحواجز، لأنهم ببساطة يعيشون داخلها دون أن يُطلب منهم ذلك.

ذاك ما دعاني أفكر جديا بالأمر...يا ترى، لِمَ لمْ أتعرف على ركاب الباص؟ على الرغم من أن وجوههم تكاد تكون مألوفة

إليّ - أراهم في الأسواق، في الطرقات، في رحلاتي اليومية، لكنهم بقوا مجرد ظلال تمر دون أن تترك أثرًا حقيقيًا في ذاكرتي.

لماذا لا أملك تلك الشجاعة البسيطة، أو ربما الأسلوب المناسب الذي يقربني منهم؟ ترى، هل الخطأ فيهم، أم فيَّ أنا؟ أدركتُ أن العزلة ليست لحظة طارئة، بل شيءٌ متجذر في داخلي، متغلغلٌ في أعماقي أكثر مما أظن. لم أجهد نفسي يومًا في التعرف عليهم، لم أسعَ للخوض في قضاياهم، في حكاياتهم، في تلك التفاصيل الصغيرة التي تصنع العلاقات.

لم يكن ذلك قرارًا واعيًا، بل كان امتدادًا لنمطٍ غرس فيّ منذ طفولتي. التربية هي التي صاغت هذا القيد اللامرئي، جعلتني أنتمي دون أن أقترب، أرى دون أن أعرف، أعيش بينهم لكن منفصلًا عنهم.

كنتُ أعيب نفسي لأنني لم أتورط بما يكفي في شؤون الآخرين، لم أخُض تفاصيلهم، لم أتعرف على ملامحهم الحقيقية كما يجب. لهذا، كنت عاجزًا عن شمّ نتن البعض المندس بيننا، واكتشاف عبق أولئك الذين يراقبوننا بصمت، بلا حركة، بلا تصريح واضح بالنوايا.

كنت دائمًا أقف في موقع التجنب، الانسحاب، المراقبة من مسافة. لم أتعلم أسلوب النصب والاحتيال، لم أمارس الغش، لم أتقن فنّ المراوغة أو التظليل، لم أجيد لغة الصياعة التي

تجعل البعض يقف على قمة المشهد بينما يبقى غيرهم في الهامش.

وبالتالي كنت أعتمد على الآخرين حتى في أدق التفاصيل، كمن يمنحهم مفاتيح الأبواب دون أن يتأكد إن كانوا سيحفظونها له أم يغلقونها في وجهه يومًا ما.

التمسكن والطيبة وحدهما لا يصنعان إنسانًا متوازنًا، بل يجب أن يرافقهما قليلٌ من الحيلة، قليلٌ من الدهاء، قليلٌ من الدراية. ليس للخداع، بل لحماية النفس من أنياب الذين لا يرون في النزاهة أكثر من فرصة لاستغلال صاحبها.

أنا لا أريد أن أكون أن أكون ذئبا أو ثعلبا، أيضًا لا أريد أن أكون حملًا بين الوحوش، لا أريد أن أكون لقمة سائغة في عالمٍ يُقدّس القوة ويحتقر السذاجة.

لهذا، قررت أن أتعامل مع الحيلة كأداةٍ لا تُستخدم إلا حين يحتاجها الميزان، حين يكون العالم مُختلًّا فلا بد أن تُعيد التوازن بنفسك. لا أستعملها إلا في لحظات التحديات، في أوقات الحرج، في لحظات الهرج والمرج التي تجعل الإنسان في زاوية تُقيّد سلوكه.

في ذات اليوم الذي عدتُ فيه من دائرة الأمن، وعند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، سمعتُ ربتا دقيقا على باب الدار- ربتا خافتا، متكررا، كأنَّ الطارق لا يريد أن تشعر به الشياطين. لم أتوقع غريبًا في تلك الساعة المتأخرة من ليلة مظلمة، ثقيلة، لا قمر فيها ولا كهرباء بعد أن عطلت

منظومتها الطائرات الأمريكية. كان أول ما خطر لي أحد إخوتي أو أقاربي، قادمًا من رحلة طويلة، يحتاج إلى مأوى ولو لوهلة.

الباب الخارجي يبعد عن الداخلي قرابة خمسةٌ وعشرون مترًا، المسافة تكفي لتخلق سؤالًا بين الطرقات والنهاية. ذهبتُ لاستطرق من يكون، فقلت بصوتٍ حذر:

— من الطارق؟

أجابني صوتٌ خفيض، متردد، محمّل بالخوف:

— أنا... أنا الأستاذ حسن.

فتحتُ الباب بهدوء. لم يكن عليّ أن أرى وجهه لأعرفه، صوته وحده فضحه - أجشّ، مختنق، يكتنفه ارتباكٌ يضيق عليه المسافة حتى لو وقف في العراء.

الكهرباء مقطوعة. القمر لاذ خلف الأفق كما لو أنه هو الآخر يرفض أن يكون شاهدًا. جاء مهزوزا، لكن لم يكن وحده. كان برفقة أخيه، وكان برفقة وجل يزدحم في قلبه وفي الهواء من حوله، وقلقٍ يغشي فكره.

جاء يبحث عن ذاته التائهة بين ثنايا تفكيري المشعشع، بعدما لسعته نواميس الأمن المقلقة، بعدما أن خرش فكره وشمّ عطب ظنه بأنفه، عندها أدرك أن الحقيقة التي كان يبحث عنها ليست أكثر من مخمصة رعب تحيط به.

الخوف كان راجًا في كلامه، طافحًا في فكره، سليلا في نفسه. لذا جاء يبحث عن أي منفذٍ للهروب من وحله.

لقد جاءني في وقت غير عادي لأمر جلل سلب ثقته بنفسه، جاء يستنجد بي عسى أن أنجيه من سطوة الغرق، لأني بحكم الظرف كنت قد سبقته بشهادتي لذات الأمر، إذا لابد أن أكون قد علمت بتفاصيل الحدث الأهوج المجهول بالنسبة له.

كان عليه أن يواجه موظفي دائرة الأمن عسى أن يتملص من إسفاف العقاب أن أمكنه ذلك، لقد أتحفوه بأثري، كبلوه بالعقد، بلغوه بضرورة الحضور للإدلاء باعترافاته أمام ذلك الأصلع....

الظلمة كانت كاسحة، ثقيلة، تُطبق على الشوارع كما لو أنها تنفث دخان العتمة في كل زاوية. لم يكن هناك شيء يتحرك سوى الفراغ، سوى السكون الذي يُخيّل إليك أنه ليس مجرد هدوء، بل كيانٌ متربص، يُراقب دون أن يُرى.

مصابيح أعمدة الشوارع مطفأة منذ زمن، غارقة في سبات العتمة كحال مدن العراق الأخرى، تلك التي خمد فيها الضوء منذ أن أعطبت قوات الغزو الأمريكية شبكات الكهرباء في معركة (أم المعارك-عاصفة الصحراء) التي اقتلعت الجيش العراقي من الكويت.

حتى القمر في تلك الليلة لم يكن كما عهدناه- لقد أنزوى خلف الأفق مبكرا، كأنه وشل طاقته من النور، كأنه تعب من مراقبة الناس وهم يغرقون في متاهاتهم، يدوّنون عقدهم التي

لا تنتهي على صفحاته البيضاء، يكشفون اسرارهم وإرهاصاتهم التي تتجدد كل يوم وكأنهم لا يعرفون للخلاص طريقًا. تهجس بالليل المغشي بالعتمة مُطاردًا من العتمة التي تفيض من الأرض وتلك التي تهطل من السماء...

للهدوء الدائر في تلك الساعة؛ لا تسمع سوى أزيز الحشرات الرائجة بين الأدغال والأحراش المبثوثة في الحدائق، فيما تطرق مسامعنا نباح الكلاب السائبة وهي تهز السكون بين الأحايين، تلك التي تخترق صفوة الصمت لتنذر الحالمين واللصوص بالخطر، نباح تخرش السكون، ربما تفيض من الوحشة الدائرة والجوع الذي اصاب كاهلها جراء وقع الحصار، فالحصار جار على البشر والشجر والحيوان. موجاتها تحرك ملأة السكينة الهدالة في الأفق، تعبث بالأمان كعبث النسائم بستائر النوافذ المفلجة، فتبث الوجس في مزامير النفوس الساكنة.

حلَّ حسن جاء وفي جعبته عنزة تمعمع، مرتعدا مما يحيطه به من شك وظن بما آل له ظرفه، معقود بحبل الخوف، حاملا في عينيه الف سؤال واستفسار عن سبب استدعائي، يستفسر عن سر العقدة التي ارتبطنا بها سوى. يود أنير له مسلكه الذي أنحرف عن أصله، ود أن أقشع الضباب عن عينيه..

سألني خانعا عن سبب استدعائي لدائرة الأمن، عن المغزى والغاية المرادة، ود الاطمئنان على نفسه بعد أن بُلِغَ هو الآخر في ساعة متأخرة من الليل بضرورة حضوره لدائرة الأمن في بعقوبة صباح اليوم التالي... حيث قال في أرتباك:....

- صباح اليوم تم استدعائك لدائرة الأمن، وقبل ساعة من الآن بُلِغتْ بضرورة تواجدي غدا صباحا في دائرة أمن ديالى.. يا ترى؛ لِمَ استدعيت؟ ما هي المشكلة والموضوع المشترك بيننا؟ هلا أخبرتني وريحت بالي؟.

في قلب العتمة، تنعدم الحدود بين الليل والخوف، في أوج العتمة كانت الظلال تتمدد حولي، تتكاثر كما لو أنها كائنات حيَّ تتنفس في صمتٍ متواطئ. كان السر يثقل صدري، فلا يساعدني على النوم، يسافد عقلي، كأنما يحاول النجاة من شفرة لساني، أن ينسلت من رعشة أصابعي، أن تخونه خطواتي المرتبكة.

الظلمة لم تكن وحدها من تحاصرني. كان هناك حضور خفي لكائنات من وجس تهجس بها بلا ملامح، تتسلل من بين زوايا الحدائق، تراقبني، تنتظر اللحظة التي أضعف فيها. أشعر بأن للأمن جواسيس تخطره بكل تفاصيل حركاتي كالنجوم التي تضيء السماء بصمت، كأنها تُحصي أنفاسي، تُدوّن ارتباكي في سجلات لا تُمحى.

رجال الأمن ليسوا هنا، لكن أثارهم في كل مكان، كأنَّ صدى صراخ الضحايا لازال معلقًا في الهواء. أعلم أن الخطأ ليس خيارًا، فالخطأ قد يُغلق الأبواب، يُحكم الأغلال بمعصميَّ، لكن العتمة شجعتني أن أبوح لحسن السر هامسا له، وقسوة الأيام تُخبرني أن العيون تعرف أكثر مما يفترض بها أن تعرف. لازلت لا أعرف هوية الذي وشى بنا للأمن. لذا كنت

متهيب من جوارحي والمكان والظلمة وتلك النجوم التي تراقبنا بصمت.... رافقني ذلك الإحساس نتيجة القسوة والعنف المستخدم من قبل رجال الأمن ضد العامة من الناس...

ما شجعني أن أبوح له بتفاصيل ما جرى، هي الحلكة المطبقة على الأجواء، الهدوء المصفر في البقاع، الرأفة التي اشتطت بصدري كلها جنود تقابل الخوف المتصيد في المياه العكرة، الفرصة جَعلتني أهتز وأخنع لطلبه، أفرغ مخزون ضعفي وانكساري أمامه...

لابد أن يعلم بتفاصيل الحدث كي يستطيع إدارة فكره في حل لغز عقدته، كي يدبر أمر ذاته بنفسه، كي ينقذ ذاته من شباك التهمة المتهيئة له، كي يهرب من ثلم العقدة إذا أمكن.. ذلك ما يخصه ويقدره هو بنفسه.

لذا كان عليه أن يجد مخرجا لأزمته، لينزع عن ذاته الرهبة الدائرة حول، والعابثة بفكره، المثيرة لأنزيمات جسده، تلك التي لاكت خلاياه فصبت الرعشة في أطرافه. تلك الخلطة الحامضية التي زاغ بها الجسد، زعزعت أعصابه، أرهقت قلبه، أعمشت عيونه..أذا لابد من تليينها وإعادتها لطبيعتها.

لابد من منحه فرصة التفكير والمراجعة، ولملمة أوراقه المبعثرة قبل أن يشرع التحقيق مع ذلك الأصلع، قبل أن تُفلتْ براءته من يده وتطبق تلك الافتراءات عليه ومن ثم يغرق في سباته.

قلت له مذكرا برحلتنا معا للمدرسة...

- هل تذكر اليوم الذي التقينا به في المرأب أنا وأنت وداود حين ذهبنا معا للمدرسة؟.
- نعم أذكر.
- هل تذكر الحديث الذي جرى في الباص حول الانتخابات الكردية.. بعد أن تصفح داود جريدته؟ حين ذكرت بأن السيد مسعود قد فاز بنسبة كذا والسيد جلال الطلباني فاز بنسبة كذا! وأن الانتخابات ليست فيها قسائم أسماء ليدرجوا اسم الرئيس صدام فيها؛ أنما هي عبارة عن صورتان لمسعود وجلال الطلباني... الخ من حديث حول الانتخابات.....
- نعم أتذكر التفاصيل..
- من أين أتيت بتلك المعلومات؟ كيف استقيتها؟ هم سألوني بها، وكذلك سألوني أن كنتَ قد تهجمت على السيد الرئيس أم لا؟
- وماذا قلت بهذا الشأن؟
- لم أقل شيء، هذا الحديث الذي جرا بيننا، واكيد نفيت فقرة التهجم على الرئيس صدام لأنه فعلا لم يحصل ذلك.. ذكرت لهم المجادلة جرت داخل العجلة واهناك أناس يجلسون خلفنا وأمامنا، لا يمكنه أن يتجاوز على سيادة الرئيس..
- أني سمعت تلك الأخبار عن طريق الإذاعات (إذاعة لندن وإذاعة منتيكارلو) ووسائل أعلام كثيرة نقلت الخبر وتحدثت عنه.

- أذا كانت الإذاعات عنيت بذلك وبثت الخبر فالمسألة عادية في رأيي، أظن ليس لديك مشكلة كبيرة، لأنه لدى أجهزة الأمن دراية تامة بتلك الأمور عبر قسم التنصت والتحليل، فأنهم يتبعون كل شاردة وواردة تخص الوطن وأمنه.
- أنا خائف من أن أذهب! بماذا تنصحني؟.. هل أهرب إلى كلار أم أذهب للمواجهة ؟

في سؤاله كأنه قد وضعني بين شفرتي كماشة، بين أن أميل لنصحه وبين أن أجرد نفسي العقدة التي قد تلتف حبالها على رقبتي. ثم أن المسألة من المفوض أن تُدْرَسْ جيدا، ما نتائج الهرب وما نتائج المواجهة؟ هو يحسن تقديرها لأنها تخصه. العقدة تكمن بأننا كلانا لا يعرف طريق الخلاص، أين تكمن الخطورة، ومن الذي شرع بحياكة العقدة؟ ماذا دون في التقرير المغرض، وماهي أبعاد العقدة وخطورتها؟ كنا لازلنا في تيه من أمرنا، لازلنا تحت وقع الصدمة، لم نفق منها بعد. لازالت الدوشة تطرق مسامعنا دون أن نستطيع الهرب منها. في وسط تلك الدوشة وظلمة كنا لا نعرف أصل العقدة ورأس الخيط المقطوع، وما هو السبيل لنتجنب الانزلاق نحو الهاوية. فقلت له مبينا الموقف:...

- يا أخي لا أعرف كيف أجيبك على السؤال، عليك أن تقرأ الحدث جيدا بنفسك، وعليك أن تقرر مصيرك ومصلحتك جيدا، فأنت أدرى مني بسلامة وضعك من المشكلة. برأيي المواجهة أفضل من الهرب، فأنت

موظف ولديك زوجة وأطفال هم بحاجة لك ولمعونتك وراتبك، برأيي مواجهة المشكلة أفضل من تعليقها، حيث دائما ما تودي المواجهة لحل سريع للعُقد والمعضلات المرافقة، فلا توجد حلول سحرية بالهرب....

أن كنت نظيفا، وتلك الأخبار المتداولة هي عامة وليست خاصة، فأظن المواجهة ستكون أسلم لك من وجهة نظري. لأنها ستزيل عن كاهلك كل شائكة وشائبة تتعلق بك، ستزيل التهمة والخوف عنك وعن عائلتك - بينما خلاف ذلك ستبقى أسير الخوف والهرب والتهمة طوال حياتك، وقد تتضاعف الأزمة والمعاناة مع الهرب. حيث لا تعرف متى ستنتهي تلك الملاحقة من قبل رجال الامن. بالإضافة إلى أنك ستخسر الوظيفة وستقطع دابر الرزق الجاري، ستبقى تعيش كل حياتك منزويا خلف الرعب والفقر والعوز والعناء إلى أجل غير معلوم.

المسألة تمس شخصه بالمباشر؛ لن استطيع أن أفتي بمصلحته وخدمته قدر ما وضحت له مما جرى معي ... ثم أنه يجب أن يحلل المعطيات على ضوء ما هو عليه وما لديه من معلومات تخصه؛ لن أستطع أن أخدمه فيها قدر أن يخدم نفسه بنفسه، حتما هناك أسرار متعلقة بالموضوع لا أعرفها، أسرار مرتبطة بذاته وبإدارة المدرسة وحجم خلافاته معها وبالمحيطين به، ربما لكتاب الاستقالة من الحزب له دور في الأزمة.. كل تلك الأمور لا استطيع أن أدخلها في صلب

الموضـوع كوننـا لازلنـا نعـيش تحـت وقـع الصـدمة، لازالـت الحالة غامضة علينا، لم نتفحص اساسها.

وفـي الحقيقـة لـن أسـتطع أن أخمـن حقيقـة مـا سـيحدث لـه، ولا أعـرف بالضـبط أن كانـت المسـألة هـيَّ مجـرد تحقيـق أم تهمـة لاصـقة بـه.... ثـم قلـة الخبـرة والـوعي فـي هـذا المجـال يجعلنـا مكتـوفي الأيـدي أمـام أتخـاذ أي قـرار عاجـل، وخاصـة نحـن لازلنـا نجهـل أسـاس ومصـدر الشـكوى وطبيعـة وعمـق الشـكوى، لـم تكـن تحـت أيـدينا أيـة دلائـل تثبـت التهمـة أو تنفيهـا، أنهـا كانـت مجرد أدعاء من وجهة نظري.

المعادلـة واضـحة أطرافهـا، وهـي موضـوعة بـين يديـه، يجـب أن يخمـن بدقـة ويكيـل وزنـه قبـل أن يتصـرف ويسـلك سـلوكا غيـر حميـد، كـان عليـه ان يعـرف أن كانـت النتـائج تميـل لجانبـه أم لا، كـل أنسـان أدرى بنفسـه وارتباطاتـه، يعـرف حقيقـة توجهاتـه، فأسـرار النـاس لا تـدرك، بـذلك يسـتطيع أن يقـرر فـي الخطـوة القادمـة أيـن يجـب أن يكـون موضـع القـدم، وفـي أيـة أتجاه.

يـا تـرى؛ هـل جـاءت هـذه الأحـداث معاكسـة لمـا تحركـت بـه رمـال العاصـفة التـي افتعلهـا بذاتـه؟ ألـيس مـن المفـروض أن يدرك مسببات العقدة وحجم تأثيرها وقوة عصفها؟...

علـى سـبيل المثـال؛... ألـم يتعـرض لمضـايقة مـا مـن قبـل إدارة المدرسـة بعـد أن قـدم اسـتقالته مـن الحـزب؟ ألـم ينصـحوه بالتريـث قبـل ذلـك؟ ألـم ينبهـوه علـى خطـورة الحالـة؟ ألـم يمارسـوا عليـه

ضغطا ليتراجع عن قراره الغير صائب في وقت غير مناسب.. ثم ما الهدف من تقديم الاستقالة؟ لِمَ كان مصرا على الاستقالة من الحزب دون زملائه المدرسين من ذات القومية؟....الخ من تساؤلات لابد أن يكون قد مر بها أو مرت عليه أو نوقش بها...

لا بد أن حصل شيء من هذا القبيل معه، كان يجب أن يراجع نفسه ويضع المقاييس الصحيحة لكل المنغصات التي رافقته، كان عليه أن يجد حلولا للعقدة والمطبات قبل أن يطير بأجنحة ضعيفة فوق البحر، كان عليه أن يضع النقط على الحروف، لتكون عباراته الفقهية مفهومة المعنى.

كان عليه أن يعلم بأن الخطوة محسوبة عليه، والسرعة محسوبة، والتأخير في القرار يعني تأخير النتائج، كما أن كل كذبة أو غلطة في التحقيق سينعكس عليه، بل سيزيد من الطين بله. كنت قد نبهته بكل التفاصيل، وما على الحر سوى البلاغ، اللهم أشهد أني قد بلغت.

ثم ودعني وانزوى في جوف العتمة عائدا لبيته، محاطا بخلاخل الخوف تجلجل أذنيه، غيرت معالم فكره. مضى ينزف هلعا من الجسد وجزعا من الروح، جراء الصدمة التي هزت كيانه. يا ترى؛ كيف سيمضي ليلته العسيرة وهو أشبه بالمسطول، ترى أية طريق سيسلك؟ المواجهة أم الهرب؟..

بين الكبوة والنجاة، كان يسير مثقلًا بالحيرة، يلاحق ظلالًا من الأحداث تتراقص أمامه ثم تختفي، وكأنها تسخر من عجزه.

تـراوده الأسـئلة كعاصـفة، تحاصـره بخيـوط مـن الشـك والقلـق: هـل هنـاك مخـرج؟ هـل سـتكفيه حكمتـه لينجـو مـن تهمـة اشـتدت قبضــتها؟ أم ســيبقى رهينًــا لكبريائــه، يتشــبث بســلاح لــم يعــد يصمد في وجه قسوة العيون ذلك الأصلع؟

وقـف سـاكنًا، يحـاول أن يـزن خطـاه، وقـد سـقط فـي فـخ صـنعه بيـده. لـم يعـد المراقـب فحسـب، بـل بـات فريسـة فـي قبضـة الـوحش. ورغـم ثقـل الانتظـار، كانـت روحـه تسـعى لقـرارٍ يحررهـا مـن العتـق، ليُفـرغ مـا تـراكم فـي صـدره مـن طاقـة مشبعة بالأسى.

لكـن، ألـيس لكـل عتمـة بارقـة ضـوء؟ ألـيس لكـل وقـوف بدايـة انطـلاق؟ ربمـا القـرار القـادم لـيس نهايـة، بـل بدايـة فصـل جديـد لـم يكـن بالحسـبان. ذلـك السـؤال المهـم، مـاذا بعـد المقابلـة؟ ظـل يتردد كصدى في فكره.

2- مواجهة حسن

في اليوم التالي كان لزاما عليَّ أن التحق بالمدرسة لروتينية العمل وخاصة كنا أيام عمل والاختبارات، الجهد يكون مضاعفا، وكنت في داخل نفسي محرجا من استفسارات الزملاء التي لابد أن تطرح من قبلهم على طاولة الفضول، للاطمئنان عليَّ من جهة ولمعرفة تفاصل العقدة من جهة خرى.

ما أن دخلت المدرسة؛ حتى تجمعوا علي الاساتذة كالدبابير يستفسرون عن سبب استدعائي، حينها كنت في وضع لا أحْسد عليه، مرتبك، خائف من إفشاء السر من ناحية، وخجلٌ من عدم الإجابة على اسئلتهم من ناحية أخرى.. حينها كنت أشعر بأني واقع تحت مجهر دائرة الأمن، مراقب من الشيطان، لا أستطيع تشخيص نواياهم، وخاصة لازلت أجهل حيثيات العقدة والشخص الذي وشى بنا وورطنا بالمشكلة.

لحساسية الموضوع الذي يمس شخص الرئيس تجنبت الحديث مع الجميع، لا أستطيع البوح بماهية العقدة، ولم أتفوه بأية كلمة لسريتها، ثم ربما تذهب كلماتي بتفسيرات وتأويلات جديدة تنعكس سلبا على شخصي، تأخذني لأبعاد أخرى أنا في غنى عنها، تزيد من لفائف العقدة فأتورط بها فعليا، فقلت لهم:...

- الأمر لا يخص أحدا، وأنها مجرد استفسارات عامة والتحقق من معلوماتي الشخصية...

- بذلك حاولت تجنب الخوض في الموضوع، والتملص من نظرات أعينهم اللحوحة التي تحمل الكثير من الارتياب والظن الخاطئ. كنت أسمع همس بعض الألسن النمامة وأراقب لصلصة العيون اللامة، أهجس بها تدور حول محور القضية راغبة بمعرفة لغز العقدة. ابتعدت عن تلك الشلة، خوفا من أن يجرني الحديث إلى ما لا أرغب، لذا جنبت نفسي إرهاصات اسئلتهم وفحوى الاخبار، تلك التي قد تودي بي إلى التهلكة.

كنت لازلت أقف على جرف هار، بين هوة الشك وقمة اليقين، لا أعرف سلامة موقفي ولا أين تكمن مصدر الخطورة في لب القضية التي لم تحسم بعد، ولم تتكشف عناصرها.

فإذا كان المدير على علم ودراية تامة بتفاصيل القضية، هذا يعني هناك آخرون أيضا على علم ودراية بها، فأي تصرف مشين من قبلي سيحسب عليَّ ويعود بمردوده على شخصي، ستسجل نقطة سوداء في سجلي، لازال الموضوع راقدا تحت غطاء مموه، لا أعرف من يقف وراء الحدث، ولا من يريد الشر لي.

آن ذاك كانت لاتزال اولويات القضية غامضة بالنسبة لي، فكري منشغل بوجوه ركاب الباص الذين ركبوا معنا، محاولا تمييزهم والتعرف عليهم، أهجس بهم وجوه غريبة عليَّ، لا أعرفها حقا ولا أستطيع الابتعاد عنها. بقي ذلك الأمر يشغل

فكري الذي بقيَّ يدور في فلك الباص، محاولا رسم ملامح تلك الوجوه بشكل ما لأقحمها في الحدث واقربها من ذاتي، عسى أن أجد خيطا يوصلني بالفاعل الحقيقي الذي شخبط على أوراق سمعتنا بكتابة تقريره المغل علينا.

ثم الاستاذ داوود هو الآخر زاغ في المجهول، كأنه منح إجازة مفتوحة، أختفى من المدرسة تماما. صرت لا أشاهده إطلاقا على فترة عشرة أيام الامتحانات، على الرغم من أن المدرسة قريبة عن داره. كأنه غص في معمعة الشهادة كونه الطرف الثاني كشاهد على القضية.

ترى من الذي تجرأ وكتب ذلك التقرير المغرض، من الذي ورطنا في المشكلة؟ من الذي تسنط علينا في داخل العجلة وأفرغ سمه في كأس الأستاذ حسن؟ من الذي رسم تلك العلامة الفارقة من الكراهية بيننا ليفرقنا كألفة، في محاولة دج أستاذ حسن في معمعة هلاك لا تعرف آخرها؟...

قد نختلف في الرأي، وفي وجهات النظر وتلك هي حالة طبيعية وإيجابية؛ لكن أن تتحول لحقد اسود بغيض ولقطيعة وامتهان؛ فتلك مسألة أخرى غير مقبولة، فيها الكثير من الريبة، المسألة أضحت ضحلة، مراقة، صادمة، فيها من العقد ما لا يستهان بها، غدت جارحة وعدوانية بين حسن وكاتب التقرير.

هكذا بانت لي العلاقة، تستند على رِجلٍ واحدةٍ آيلةٍ للسقوط، وعلى قدرِ المصلحةِ الذاتية، هكذا فهمتها من خلال إشارة

مدير المدرسة لي، والذي بين لي من خلال تطمينه لي بأن العقدة شائكة ولها أطراف أخرى...

ولكن الفكر البصري بقي منصب فقط على هؤلاء الذين ركبوا معنا الباص خلال رحلتنا المشؤومة، يا ترى من منهم يعرفني معرفة مقربة، ليدرج أسمي وأسم داوود كشهود ضمن دائرة الاتهام؟ كيف عرف أسمي وأنا لا أعرف أحدا من هؤلاء الركاب؟.. حينها بدأت أتساءل.. يا ترى؛ كيف عرفوا أسم داود وهو الغريب عن الديرة والمنطقة ليدرجوا اسمه كشاهد معي؟...

كان داود يجلس في الوسط، عن يميني، وقد سمع تمامًا ما سمعته من حسن. لا شك أن ما حدث لي قد وقع له هو الآخر؛ فلا بد أنه فهم تفاصيل المشكلة كما فهمتها، واستُدعي كذلك إلى دائرة الأمن للإدلاء بشهادته. لذا، من الطبيعي أن أستفسر منه عمّا جرى، علّنا نجد سويًا خيطًا يقود إلى من وشَى بنا، وربما ألتقط من حديثه ما يعينني على فهم طريقة تفكيره.

كان ينبغي أن أطرق بابه، وأن أستوضح ما مرّ به. غير أن داود، رغم قسمات وجهه المتجهمة، بدا وكأنه يسعى إلى التنصل من علاقة الزمالة التي تجمعنا، مدفوعًا بكبريائه ونزعة نرجسية، وقد يكون سببها تقدمه علينا في المرتبة الحزبية. لهذا، كان يتجنب التواصل مع بقية المدرسين في تلك الفترة، وكأنه يرسم لنفسه مشروعًا خاصًا، بعيدًا عن الآخرين.

ومع ذلك، كانت علاقتي بداود مختلفة عن علاقة باقي الزملاء به. فقد جمعتنا القضية نفسها، وأصبحنا شريكين في الشهادة، مما فرض نوعًا من التقارب بيننا، على الرغم من المسافة التي حرص على إبقائها. وقد افتقدته خلال فترة امتحانات التلاميذ، ثم أعقبتها عطلة الصيف التي انقطع فيها المدرسون عن الدوام لمدة شهرين. وخلال فترة المراقبة، بدا وكأنه يتجنب لقائي عمدًا؛ إذ انتهت مهامنا في ثانوية السعدية دون أن أراه قط. ربما نسّق هذا الابتعاد مع إدارة المدرسة. وعندما استفسرت عنه لدى المدير، أجاب بأنه في إجازة بسبب مشاركته في دورة حزبية.

ترقبت لقاءه في الأسواق، مترقباً أن تكشف الأيام القادمة تفاصيل القضية التي بدت لي غامضة، ضبابية، تكتنفها الأسرار. لم أستطع أن أرى أبعد من حدود خطوتي، ولم ألتفت إلى من حولي أو إلى الأفكار المتناثرة في ذهني. لم ألجأ إلى معارفي، رغم أن البعض كانوا يرون الأمور بوضوح أكثر مني؛ فالمراقب من بعيد غالباً ما يكون أكثر قدرة على تشخيص الأخطاء وأشد دقة من أولئك الذين يعيشون الحدث.

لم أستطع تمييز العِرَّة عن الأحجار المتلألئة في قاع النهر، رغم أن الجميع كان يراها بعينٍ غير التي أبصر بها. فالناظر يرى الأشياء بعقله لا بهواجسه؛ يراها بلونها، بانتفاخها، وبريقها... أما أنا، فقد استعصت عليّ الحكمة، ولم أرَ إلا غشاوةً واحدة أحاطت كل شيء بلونٍ قاتم، كأنما أصبتُ بالعمش فجأة.

كما جسّ الخوف من الأمن نبضي، منَعَ الآخرين من البوح بآرائهم؛ فلم يجرؤ أحدهم على كشف الغطاء، لينزع عن عينيّ تلك الهالة التي غلّفت رؤيتي بالضباب.

اهتم معظم الأساتذة بالأمر؛ كلٌّ منهم، ومن منظوره الخاص، حاول أن يستخلص الزبدة ويصل إلى جوهرة القصة. رأيت ذلك بوضوح في وجه تحسين، إبراهيم، فتّاح، أكرم... وغيرهم. ومع ذلك، لم أستطع أن أكشف لهم من التفاصيل ما يرضي خواطرهم. كل ما أفصحت به كان مجرد قشور، كي لا أفسد للود قضية.

وفي ذلك اليوم كان الأستاذ حسن قد تغيب عن حضوره للمدرسة، لابد أنه قرر المواجهة وربما تسلل لمدينة كلار خفية خلال الدجى كما أوحى لي بنفسه...

لا أعرف بالضبط قراره، الاحتمالان واردان، لكنه لابد أن يسير بخط ما، وحتما أنه سر المقربين له بأسراره، أو سر أحد زملائه المقربين من المدرسين، أمثال الأستاذ تحسين الطيب، ليكونوا على دراية بجوهر القضية وتتبع مصيره مع إدارة المدرسة، ذلك ما هجست به من خلال اهتمام زملائه بالمسألة كونهم من قومية واحدة.... ومن خلال الحديث المتداول بين أصدقائه، علمت بأنه قد فضل مواجهة الأمن على الهرب ليقينه ببراءته من التهمة، وتلك هي الصفة الحسنة التي تمسك بها.

ولكن ما هيَّ ردة فعل ضابط الأمن تجاهه؟ ما هي النية المبيته من قبله تجاه حسن؟ وما حجم التهمة المدونة امامه؟ فعند مقابلتي له طرح عليَّ بعض الاستفسارات للتأكيد فقط، فلم يبين لي حجم القضية المحاكة. المسألة ليست متعلقة بحُسنِ النية وحتمية البراءة؛ أنما بحجم البغض والكراهية المدسوسة في أسلوب التقرير المكتوب، والذي لا يعرف مضمونه سوى إدارة الأمن وكاتب التقرير. ربما هناك من عرف هوامش من القضية كمدير المدرسة.

تلك هي العقدة التي وددت أن أفك لغزها، المعضلة التي صرت أبحث لها عن حلٍ في صرة الفوضى التي تفشت بيننا، علّي أسفط من بين الأفواه الملعلعة كلمة حق استخلاص منها نفسي وتحديد الغرض والمغرض بها، معونة معنوية أجدها لدى هذا أو ذاك ألمح بها فكرة أمتطيها أو ضوء أستنير به دربي، عسى أن أمسك برأس الخيط المنحل ليرتد هاجس الخوف لمحله..

بدأ الشك يتسلل إلى خيالي، وامتد إلى كل من يعبر بمحاذاة ظلي أو يرمقني بنظرة يغمرها الترقب والشفقة. أصبحت أتنصت لهمسات الجن وأميز فحيح الأشباح التي تومض في مخيلتي. لقد تغيرتُ كثيرًا عما كنت عليه قبل أن أكون شاهدًا، إذ انقلبت طباعي وسلوكي رأسًا على عقب. حتى الطيور لم تعد كما كانت في نظري، أرى وجودها في سمائي لغرض مدسوس، فأصبحت أتحاشى رفرفتها فوق رأسي، وأتوخى الحذر إذا حطّت بجواري. هكذا ظل مزاجي معكرًا طوال تلك

الفتــرة التــي قضــيتها فــي البحــث عــن ســر لغــز ذلــك التقريــر المغرض بحثا عن الواشي.

3- لقائي بـ داوود

في اليوم الثالث لم يلتحق الأستاذ حسن بالمدرسة، كأنَّ سنارة الصيد قد تلقفته، كأنَّ قدمه لزبت بجلي صمغ الفئران.. صار الكل يستفسر عن سر تأخره، علمت من أحد زملائه المقربين بأنه لم يعد من دائرة الامن في بعقوبة (مركز محافظة ديالى).

كثرت الاستفسارات من الجميع حول طبيعة المشكلة وأصل القضية، فوجدت نفسي مضطرًا إلى شرح جوهر القصة وتفاصيل ما جرى لي لرفاق حسن. كنت قد بُحتُ بما في صدري لأستاذ تحسين الطيب، لما له من روح نقية وصلات صادقة وعفوية مع الجميع، ولأنه الأقرب إليَّ من حيث المودة والثقة. أخبرته بما دار بيني وبين حسن عندما زارني في البيت ليلًا قبل ذهابه للتحقيق، ليكون ملمًّا بكامل الصورة ويُجنّبني ضغط تساؤلات زملائه الذين أصبحوا يفتشون عن مصيره ضمن قوائم التهمة. لا شك أن لهم صلة بأهله وذويه، فأردت أن أُبعد نفسي عن دائرة الشبهات، ووشايات القيل والقال، والتأويلات التي أُقحمت فيها دون إرادة مني، لأتجنب وسوسة الشك في نفوس حسن وأسرته وأصدقائه. وهكذا، وضّحت كل ما في صدري لأستاذ تحسين، علّ في ذلك راحة لي وتوضيح للحقائق.

من خلال نظرة البعض الدونية وخاصة المقربين من حسن؛ هجست في خواطرهم لعنة الذنب تتقصدني، تضعني في قوس التهمة، كأنّي أنا الذي وشيت به، أنا الذي قيدت يديه. كانت

حــواراتهم مســمومة ونظــراتهم فيهــا ألــف إنَّ وإنَّ، تلاحقنــي، كـأني مشـترك بدرجـة مـا فـي حياكـة التهمـة وأبـرام الصـفقة مـع جهـة الأمـن ضـد حسـن. ذلـك مـا خُيَّـل لهـم ومـا ذهبـت إليـه نفوسـهم المريضـة ومـا هجسـت بـه، دون أن يـدركوا بـأني مُتـوَرط بصـلب القضية كصاحبهم مع اختلاف الأدوار.

فـي ضـيافة العتمـة، لـم يكـن يـدرك حسـن أن تلـك اللحظـة سـتكون فاصـلة بـين عـالمين، بـين الحيـاة كمـا عرفهـا، وبـين الغمـوض الـذي سـقط فيـه دون إنـذار. القيـود تـزين معصـميه، تجمـد حركـة أصابعه، وتذكره بأنه الآن ضيفٌ لدى من لا يعرفون الرحمة.

يـا تـرى! كيـف اسـتقبلوه؟ كيـف عـاملوه؟ هـل احترمـوه؟ هـل ضـايقوه؟ إلـى أي مـدى اسـتخدموا معـه العنـف والقسـوة؟ حتمـا كانـت القضـية مدسـتره، مبيتـه، وإلا مـا تمسـكوا بـه تمسـك الاعمـى بعصـاه. حتمـا لـم يقتنعـوا بمبرراتـه، أكيـد رفضـوا ادعائـه بكـل حيثياتـه. لـن يتمسـكوا بـه إلا إذا كـان مـا دون فـي التقريـر شيء أكبر من الادعاء بالتهمة..

حتمـا كـان الاسـتقبال بـارداً، لا كلمـات ترحيـب تُقـال، فقـط نظـرات جامـدة تـزن مقـدار التحـدي فـي ملامحـه. هـل كانـت هنـاك شـفقة؟ هـل كـان هنـاك مرونـة؟ أم أن وجـوده بيـنهم مجـرد إجـراءٍ روتينـي؟ الأسـئلة تـومض فـي ذهنـه، لكنهـا بـلا إجابـة، تمامًـا كالغرفـة التـي أُجلـس فيهـا، فارغـة إلا مـن ظلّـه المتقلّـب تحـت ضوء المصباح الوحيد.

أيام تمر، أو ربما ساعات؛ الزمن فقد قيمته حينما أصبح يومه مختزلاً في الاستجواب المتكرر، في النظرات المشككة، في الاستفزاز الذي ينتهي إلى صمتٍ قاتل. هو يعلم أنه بريء، كما يعلم أن هذا لا يكفي. البراءة هنا ليست حقيقة، بل قناعةٌ يجب أن تتسلل إلى ذلك الرجل الأصلع، الجالس خلف المكتب، العاكف على تقريرٍ أقوى من كلمته.

المعركة لم تكن بين الأدلة والتهمة، بل بين الشك واليقين، بين سلطةٍ تفرض واقعها وبين صوتٍ يحاول النجاة. أكيد حسن ثبت على موقفه، لم يستسلم، كانت كرامته هي السلاح الذي لم يستطيعوا انتزاعه، حتى عندما توالت الأيام وبقي القيد في معصمه شاهداً على أن الحرية لا تُمنح بسهولة.

لم يكن حسن مجرد رقمٍ في تقرير أمني، بل كان شخصيةً عالقة بين الشبهات والتكهنات، بين تفاصيل لم تُكشف، وبين أسرار ظلت خارج نطاق التحقيق الرسمي.

فمنذ لحظة اعتقاله، لم تكن التهمة وحدها هي محور القضية، بل كانت هناك خيوطٌ دفينة أخرى تُنسج خلف الكواليس ليست لها صلة بالتقرير. استقالته من الحزب وانتمائه للأحزاب الكردية ربما جزء من القضية.

لم يكن التحقيق يبحث فقط عن صحة الادعاءات، بل كان يغوص في ما هو أعمق: في توجهاته، في مواقفه الساخرة التي ربما لم تمر مرور الكرام، في علاقاته الغامضة التي لم يكن يُصرَّح بها.

بدأ يفهم أن الأمر يتجاوز قضية عابرة، إنها شبكة معقدة من المصالح والخفايا والأسرار، حيث تُصنع الحقائق وفقاً لمن يملك القرار. القضية لم تكن فقط لإثبات إدانته أو براءته، بل كانت جزءًا من لعبة أكبر لا تُكشف قواعدها إلا لمن هم خلف الستار. في العتمة، أدرك حسن أن الحرية لها ثمن باهض.

لقد غص بقدميه في وحل التهمة، تجرع السم، لا يستطيع الذود عن نفسه، الوحوش تدور حوله ولا تسمح له بالتفوه. فكم من الثلم قد خزقت فكره وأزدرت خياله. أكيد تبدل طبعه وتخلى عن كبريائه، أكيد تشتى خياله وشظَّ ذهنه وظنه، نشز سلوكه وهو دائر في وسط فوضى الأسئلة المحيرة والتهم التي باتت تنزل على رأسه كالصاعقة.. كيف؟ ولماذا؟ ومن؟ ولِمَ؟ ومتى؟ وأين؟.وووووو....الخ لمعرفة دوافعه الغير معروفة.

وسط غرفة التحقيق الضيقة، حيث الضوء يتساقط كالشظايا فوق ملامحه المتعبة، وقف حسن أمام أسئلةٍ لم تكن تبحث عن إجابة، بل عن ارتباكٍ يعمّق الشكوك ويثبّت التهمة التي لم يفهم كيف التصقت باسمه.

حاول أن يرسم مسارًا واضحًا لإجاباته، أن يبني جدارًا من المنطق أمام العصف الذي ينتظره، لكن شخصيةً مهتزّة مثل شخصيته لا تحسن المراوغة. كل كلمة كانت تُوزن، كل إيماءة كانت تُسجَّل، حتى تردده أصبح دليلاً ضدّه أكثر من صمته.

عندما انفجر السيل الأول من الاستجواب، أدرك أن صبره لن يصمد طويلاً. كان مهلهلًا، مثل خيطٍ بالٍ يتآكل عند أول شدّة. لم يكن العنف هو التهديد، بل تلك النظرات التي تطلّ من وراء الطاولة، تبحث عن ثغرة، تنتظر لحظة انهياره كي تُثبت ما أُعدَّ مسبقًا.

بين ارتباكه ويأسه من النجاة، بقي لديه شيء واحد متمسك به: يقينه بأنه بريء، حتى وإن كانت البراءة مجرد فكرة لا قيمة لها في تلك الغرفة. ليس كدفاعٍ عن نفسه فقط، بل كمقاومةٍ أخيرة في وجه لعبةٍ لم تكن لصالحه منذ البداية.

يا ترى؛ هل تمكن من الصمود أمام ذلك المد العالي من أمواج الأسئلة الموجهة له؟ هل تحمل الرهبة التي تملكت قواه؟ هل تمكن بجداله المُربَك والضعيف إن يلين فكر وظن ضابط التحقيق الذي ينظر أليه بعين الصقر، وكأنه يود افتراسه، لا أن يتبين الحقيقة، تهجس في عينه تحدٍ وشكٍ لا يستطيع أن يفلت من قبضتها.

أنها ساحة النزال الأصعب في حياته، ساحة مراس دون أن يمارس مثيلها من قبل، لابد له من فطنة وذكاء وتجربة وقدرة ومرونة تعين ذاكرته على فض عقدة التهمة والصمود أمام تحدي ذلك الأصلع له..

يا ترى؛ كيف رتب أجوبته على ضوء تلك الأسئلة الحادة التي تحوي في أسلوبها قسوة مغلة، تلك التي مطروحة أمامه على طاولة التهمة؟.

.. كيف؟ وكيف؟ ولماذا؟

أكيد أنه قد دخل في محنة صيغ الكيف؟ ولماذا؟ ومن؟ ولمن؟ وأين؟.ووو...الخ التي لا نهاية لدوامتها...

في لحظات الشدة القاسية، يجد الإنسان نفسه في حالة من الارتباك والتشوش، حيث تفقد الصورة الحقيقية وضوحها، ويغدو كل شيء مشوشًا أمام ناظريه، خاصة حين يكون محاصرًا في عزلة قسرية. في مثل هذه الظروف، قد تتغير الألوان وتختلط الحقائق، ويصبح إدراك الحدود والمعالم أمراً بالغ الصعوبة، كما تتعقد عملية تفسير الأحداث وتسلسلها المنطقي.

لهذا، فإن الوصول إلى الفهم العميق لحقيقة التهمة وأصلها يتطلب وقتًا إضافيًا، يحتاج فيه الإنسان إلى لحظة تأمل وتريث، إلى مساحة من الصفاء الذهني والهدوء الداخلي، حيث تتكشف الأمور تدريجيًا، وترتسم الملامح بوضوح في عدسات الفكر والعين بعد التعرف على خيوط النسيج، ليتمكن أخيرًا من إعادة ترتيب الأحداث وفق رؤية صحيحة ونزيهة. لكن حين تُسلب منه هذه الفرصة، يصبح البحث عن الحقيقة كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، لذا تظل الصورة ضبابية لفترة أطول.

.ذلك ما كان يحتاج إليه حسن وما كنت أحتاج إليه أنا أيضا. الوقت ضاق علينا، الحالة استعصت علينا، كانت العقدة قد حلت على رؤوسنا بشكل مفاجئ، لم نكن مهيئين لها، لم تسنح

لنا فرصة التفكير والمراجعة وتدقيق للأمر لمعرفة أسس المشكلة وأبعادها؛ فلم نتحسس خطورتها إلا بعد أن تحمصت وتعقدت أمورها، أضحت التفكير في مراجعة حيثياتها غير ممكنة ومن المستحيل..

في أجواء يسيطر عليها التوتر والترقب، يدخل الضابط بوقع خطوات حازمة، وجهه صارم ونبرته لا تحتمل التردد. يرمق حسن بنظرات تخترق الصمت، كأنها تحاول انتزاع الاعتراف قبل أن ينطق بكلمة. يتقدم إليه مباشرة، بلا مقدمات، فالمستقيم هو أقصر الطرق للوصول إلى الهدف.

الضابط:...

- أنت حسن؟
- نعم، سيدي.

تتسلل إلى الأجواء ألفاظ تحمل في طياتها القسوة، مشحونة بكراهية غير مبررة، كأنها مقذوفات من لهب تتطاير بلا هوادة. لا مجال للحوار أو التفهم، فالهدف واضح والطريقة محددة، والصوت الجاف متحكم في المشهد لا يعترف سوى بالقوة. هكذا يسير اللقاء في مسار متوقع، حيث الحدود بين الحقيقة والاتهام تختلط، المسافة تنعدم، والصورة التي تُرسم في هذه اللحظات تحكم عليها اليد الأقوى، لا الألسن الباحثة عن تفسير عادل.

وقبل أن يتمم إجابته يتلقى صفعة على وجهه.. تاك – الصفعة لابد أن تكون مفاجئة وغير متوقعة لتأتي بثمارها، تفقده

صوابه، حينها يسقط أرضا والدنيا تدور في رأسه، مذهولا، لا يسمع سوى طنينا يغشي فكره لتمسح عن ذاكرته كل ما ود أن يتلفظ به وما كان قد أعده مسبقا دفاعا عن نفسه وبراءته، يتوقف ذهنه عن التفسير إلا من تلك الالفاظ النابية التي تطرق إذنيه كوابل المطر، ألفاظ فيها لغط ومسبة جارحة.

- يا كلب، يا خسيس!! تصل بك الجرأة والوقاحة أن تتجاوز على فخامة السيد الرئيس؟..
- لالالا ...لا والله سيدي لم أتجاوز عليه، لم أذكره بسوء...أنا بريء من التهمة. هذه تهمة كيدية.

يعالجه بصفعة أخرى.. تاك ...

- سيدي لا تضربني.. أنا بريء....أني ..
- اجلس هنا يا نتن سنتبين أن كنت بريئا أم لا، كل المؤشرات تثبت التهمة عليك. هناك شهود شهدوا عليك أن كذبت فلا تجد مني سوى السياط..

أكيد بعد تلك المقابلة العنيفة تنهار معنوياته، تضعف ثقته بنفسه، يفتقد القدرة على المحاورة، قد يلجأ إلى الاعتراف ليتجنب القسوة المفرطة، حينها يكون قد علم بأنه متورط ومكبل بالتهمة، لا يمكن أن يفلت منها..... هذا هو اسلوب الامن مع المتهم بشكل عام.

أكيد تهاوت عليه الأسئلة كنبال الحرب، أكيد سحقت أفكاره وأثقلت ذهنه، حيث ترهقه حتى يشعر وكأنَّ عقله يتصدّع تحت وطأتها. كل استجواب ليس مجرد كلمات، بل صفعة

تحمل في طياتها لغزًا ومغزى خفيًا، تُلقي بظلالها على إدراكه، ويتجلى أثرها في نبض قلبه ونظرة عينيه.

في غرفة التحقيق حيث يتلاشى الضوء، ويتحول الصمت إلى طَنينٍ من القهر، تُمارَس الاستجوابات كأداةٍ للقمع لا للبحث عن الحقيقة، بل لتثبيت التهمة. هنا، تتحول الأسئلة إلى شِباك صيد، تُصاغ الكلمات بحدَّةٍ مُتعمَّدة للترهيب، وتُرسم المصائر وفق رواياتٍ مُختلقة لا تمت للحقيقة بشيء. الجدران مُحمَّلةٌ بأصداء التوتر، تشهد لحظات الحسم؛ حيث تُدوَّن الاعترافات تحت وطأة الضغط لا بميزان العدل.

بين تلك الحدود التي لا ترحم، يصبح التحقيقُ أكثر من مجرد إجراءٍ قانوني؛ بل مسرحًا للقسوة المقنَّنة، ابطالها ضابط التحقيق والمتهم، حيث تُستخرج الحكايات كما يُراد لها أن تُروى لتجاري رغبة المسؤولين. وفي النهاية تدون الأقوال وتُرفع الأوراق إلى الجهات العليا، بناءً على حقيقةٍ كاذبة، تميل نحو إرادة القوة.

ربما كان ذلك ما تعرض له، كما سمعنا عن أمثاله من قصص، كتلك التي تتسرب إلينا عبر أفلام السجون أو تُجسَّد في أفلام السينما. لا شك أنه حين دخل غرفة التحقيق، استقبله ذلك المحقق الأصلع بعجلٍ، وقبل أن يتمكن من استرداد أنفاسه، وقبل أن يستفسر عن سبب وجوده. هكذا يبدأ أسلوب الترهيب المعتاد. طريقة تُجبر المتهم على الاعتراف، سواء كان مذنبًا أم بريئًا. قد يتلقى الضرب قبل أن ينطق بكلمة، ربما تأتيه الضربة الثانية والثالثة، ليجد نفسه في دوامة

الصدمة. وحين يفيق منها، يجد أن الاستسلام للأمر الواقع هو الخيار الوحيد أمامه؛ فهو الآن متورط وعليه مواجهة مصيره.

إنه مشهد تتعاقب فيه القسوة والخضوع، حيث يصبح الإنسان المقيد هدفًا لسلطة تبحث عن اعتراف بأي ثمن. تُمارس عليه الضغوط الجسدية والنفسية، تُزرع في ذهنه فكرة أن المقاومة لن تزيده إلا ألمًا، وأن الاعتراف- مهما كان زائفًا- هو الطريق الوحيد للخلاص من سياطهم ونظراتهم الجهمة.

في ذلك الموقف، تتلاشى الحدود بين الاستجواب والعقاب، بين العدالة والانتهاك. يبدو الأمر كما لو أن المتهم ليس سوى أداة لملء الفراغات في ملفات التحقيق، وكأنَّ الحقيقة ليست الهدف بقدر ما هو إغلاق القضية لمواجهة المصير، حيث سيُحكم عليه بناءً على ما استُخرج منه بالقوة، لا بما هو حقٌ وعدل. إنه اختبارٌ أقسى من احتماله، فكيف يصمد فيه العقل والقلب؟ لأن مهمة دائرة الأمن هيَّ نزع الأدلة من المتهم وتحويله لدائرة القضاء لا محاسبته.

الولاء والعدالة في منظومة الأمن محسومة لجهة النظام، تُدار التحقيقات أحيانًا وفق منظورٍ لا يعترف ببراءة المتهم أو إدانته، بقدر ما يركز على انتزاع الاعترافات بأي وسيلة ممكنة. فالمحققون يعملون لكسب ثقة رؤسائهم، ورجال الأمن يقيسون نجاحهم بمقدار ولائهم للنظام. وبهذا، تصبح العدالة فكرة هامشية، لا تحظى بالأولوية أمام ضرورات الأمن السياسي.

- هل تفوهت بكلمات مسيئة بحق رئيس الجمهورية؟
- لا سي...دي...

لم تكتمل كلماته، إذ تباغته صفعة حادة على وجهه، لتقطع سيل أفكاره وتتركه غارقًا في ألمٍ مفاجئ، يطغى على كل ما سبق من شكوك أو إنكار. يتبعها لسعة قاسية من كيبل يلهب ساقيه، فتتلاشى بقايا الصبر ويتبدد الأمل في أي تبرير منطقي. تتداخل مشاعره بين الاعتراف والإنكار، ولا يعود للأمر معنى، هل هو مذنب حقًا أم مجرد ضحية في لعبة أكبر منه؟

يأتيه السؤال مرة أخرى، بصوت حاد لا يحمل سوى الإصرار:

- هل أسأت إلى الرئيس بالكلام؟

المتهم محمرة العينين والدم ينزف من فمه، لا يدري كيف يتصرف ويجيب فيهز رأسه بالإيجاب درئا لتكرار الضرب.

- أريد أن أسمع صوتك
- نعم سيدي ...تهجمت....

حينها يصفع على وجهه مرة أخرى أشد من الصفعة الأولى، مع الركل يسمعه كلاما بذيئا:....

- يا كلب، يا حقير أأنت الجربوع تتجاوز على فخامة الرئيس؟ إذا سأنال منك.....
- سيدي ماذا علي أفعل؟؟؟؟؟ إنْ أنكرت أضرب، وإنْ اعترفت أضرب، ماذا عليَّ أفعل لتكف الضرب؟

حينها يكف عنه ويدون اعترافاته ويوقعه عليها من ثم يتركه في زنزانة انفرادية.

يُقتاد السجين إلى زنزانة خاصة تُعرف بـ"زنزانة التنعيم"، حيث يخضع لجلسات من التدليك والدعك بالسياط، يُعَوّد على هذه الصيغة كتمرين صباحي يومي حتى ينقل لسجن آخر تمهيدا لمحاكمته. عندها يُصنَّف كخطرٍ وفقًا للتهم الموجهة إليه. وقد يُوضع في سجنٍ انفرادي، بلا تهويةٍ أو بلا سريرٍ يريحه، حتى يوم النطق بالحكم، حين يُقر العدل.

لن أنسى زميلنا الذي أتهم بانتمائه لفرقة صوفية من مبادئها تكفير الأحزاب، وبعد اعتقاله بفترة زمنية قصير، أطلق سراحه بتوديعه للآخرة، لقد أعدم لأن منهجه لا يوافق منهج النظام...

ترى لماذا هذه القسوة الغير مبررة؟ هذه الكلمات تجسد واقعًا قاسيًا يعيشه كثيرون ممن يجدون أنفسهم وسط دوائر الاتهام بلا سبب.

حين يُساق الفرد إلى العذاب، يُحرم من حقوقه، ويُرهق جسدًيا ونفسًيا، ثم بعد سنوات طويلة من الألم والمعاناة يأتي الاعتذار الرسمي، بعبارات باردة لا تعيد الزمن ولا تداوي الجراح: "نأسف، لقد أخطأنا في حقك، لم تكن أنت المقصود". مبررين ذلك بالاشتباه به.. هذا إذا بقيَّ سالما دون عوق، فيقولون له:...

- ناسف على ما جرى لك، لست أنت المقصود بالتهمة. لقد اخطأنا التقدير.

ثم أنه يتقبل أعتذارهم ويبتسم في وجوههم وهو شاكرا لهم على السماح له بالخروج من زنزانة التهمة دون عوق .....هههههههههه

بعد أيه، هههههههههههههه.

بعد مرور أسبوعين على اختفاء حسن في دهاليز الأمن، صادفت الأستاذ داوود في سوق جلولاء، أمام مقهى المرحوم عبد الحسين الجايجي. كان واقفًا مع مجموعة من رفاقه في الحزب، فتقدمت منه بحذر، وأخذته جانبًا لأحدثه بسرية عن القضية التي تورطنا فيها، كونه شاهدًا رئيسيًا في صميم الموضوع. حاولت جاهدًا أن أفك لغز هذه المسألة التي تبدو معقدة ومبهمة، فقلت له بصوت منخفض:...

- أستاذ داوود، هل لديك معلومات عن الشخص الذي وشى بنا وزجّ اسماءنا في القضية؟ هل تعرف أي شيء عن الموضوع، أو من الذي تجاوز علينا؟

أردت أن أصل معه إلى الحقيقة، أن أفهم دوافع هذا الفخ الذي وقعنا فيه، وأن أحدد من كان وراء ذلك.

كل الدلائل كانت تشير إلى داوود، إلا شكوكي أنا، بقيت حائرة تدور في فلك بعيد، كالرحى تطحن بالناس المقربين والبعيدين دون أن أتبين الحقيقة، شكوكي لم ترحم أحدًا، لكنها ظلت بعيدة عنه، كأنها تخشى الاقتراب منه، أو كأن الحقيقة تختبئ خلف ستارٍ لا أجرؤ على بيانها.

يقول المثل " الذي يخفي في جعبته عنزة تمعمع " ذلك ما ينطبق على داود تماما، فكانت عنزته تمعمع ويسمعها الجميع دون أن تشد انتباهي إليها، دون أن أركز على هذا الصوت الخفي الذي ينطلق من جوفه بكل وضوح، الذي بدأ يسمعه القريب والبعيد، ظل بعيدًا عن إدراكي. فقد أغلقت أذني بأوهام الشهادة، وطمس بصري بشمعها، دون أن تفتح لي أبواب الحقيقة لأرى ما أمامي بوضوح.

تحولت ملامحه، وانزاح عنها بريق الزهو، لتتلبسها صفرةٌ تنطق بما يعتمل في داخله. غضبه يفيض، يتجلى في انقباض ملامحه وفي تلك النظرة المغمورة بالكآبة والتي تسكن وجهه وروحه على حد سواء.

صوته، لم يعد مجرد صدى داخلي، بل انفجر في زعيق مسموع لمن حوله. لم أعد أتجاهله، ولم أعد أصم أذنيّ عن نبرة العنزة التي باتت تتردد بلا انقطاع في رأسي، كأنها تؤكد على اضطرابه، تدوي في وجداني حتى أصبحتْ جزءًا من المشهد ذاته. لقد تغيرت ملامحه، ما جعلني أنتبه على زعيقه المسموع للآخرين.

في البداية كنت أعتبره متورطا مثلي في القضية كشاهد، فحاله لا يختلف عن حالي من الوجهة القانونية، فمثلما كنت أرى الصخب دائر حولي، كنت أميسه العذر في عدم مخالطة الآخرين والتنحي خلف عزلة تجنبه ويلات المغرضين، كنت انظر له بذات المنظار الذي انظر به إلى نفسي، دون أن أتهمه في صلب القضية من قريب أو بعيد، لذا ابتعدت شكوكي عنه في تلك الفترة.

عندها قال لي ردا على سؤالي:...

- علمي علمك أنها فعلا مسألة محيرة!..... ولكن لِمَ أنت مهتم بقضية حسن ومنشغل في أموره أكثر من اللازم، دعه يأخذ جزاءه، أنه كلب من كلاب جلال الطالباني.

ثم أخذ بعضه وأستأذن مني عائدا إلى مدينة السعدية مع شلته دون أن يتوسع معي في النقاش، تركني أدور حول محور حقده والقضية بعملية تركيب معقدة دون أن ينتشلني منها، كما تركني أعيد جملته في ذهني مرات ومرات حتى بدت شكوكي تلتصق به وتذمه، تركني في حيرتي التي زادت حيرة بسلوكه وحكمه القاسي على الأستاذ حسن.

ترك المكان، لكن الأسئلة لم تغادرني، بل ضربت بجذورها في أعماقي، تنبش في كل كلمة قالها، تحثني على إعادة النظر، على هدم القناعات التي كنت أتمسك بها دون أن أوجه له الاتهام صراحة. تلك الكلمات التي تشرّبت الحقد، خرجت منه على هيئة سم قاتل، تراقصت على ثنايا وجهه، تفضح نواياه وما لم يقل.

لماذا يريد التخلص من حسن؟ لماذا يتمنى له الموت؟

هناك أمر مريب، المسألة ليست بالبساطة التي كنت أظنها، لا بد أنه متورط بشكل أو بآخر. لا بد له علاقة بالتقرير المشؤوم... وإلا، كيف عرف مدير المدرسة بأني شاهد في القضية؟

تلـك الأسـئلة باتـت تتغلغـل فـي أعمـاقي، تتشـابك فـي مخيلتـي، يقينـي، وجـودي، وكيـاني كطيـور تحلـق بـلا هـوادة فـوق رأسـي، لا أملـك سـبيلًا للإمسـاك بهـا، ولا حيلـة لإيقافهـا عـن الـدوران فـي فضاء شكوكي.

لا أسـتطيع الجـزم بتورطـه فـي القضـية، لكـن شـيئًا مـا بـداخلي يصـرخ بأنـه لـيس بريئًـا كمـا كنـت أظـن. إنـه شـاهد مثلـي، لكـن هـل هـو مجـرد شـاهد؟ أم أن الظـلال التـي تتـراقص حولـه تحمـل حقيقة لم أجرؤ بعد على مواجهتها؟

كـأنني أعمـى مـن جانبـه، أرى فيـه مـا لـيس لـه علاقـة بالقضـية، بصـيرٌ، أتعثـر فـي وضـوح الصـورة المشـوهة أمـامي، أحـاول فـك شـفرة الغمـوض الـذي بـدأ يحـيط بكـل شـيء، دون أن أجـد حجـر يقين أستند إليه.

بعـد ذلـك اللقـاء، بـدأت الحقيقـة ترتـدي اللـون الرمـادي بـين الشـك واليقـين، تتسـلل إلـى جـوارحي رويـدًا رويـدًا، تتكشـف أمـامي كمـا لـو أن ضـوءًا خافتًـا بـدأ يسـطع فـي عتمـة شـكوكي. لـم يعـد الأمـر كمـا كـان، لـم يكـن إحجـامي عـن اتهامـه سـوى قيـد فرضـته الملابسـات، لأنـه كـان مـدرجًا بصـفة شـاهد فـي ذات القضـية، ممـا جعلنـي أتعامـل معـه بحـذر، أراقـب دون أن أحسـم، أشـك دون أن أتهم.

كنـت بحاجـة إلـى هـزة قويـة تخلخـل أوضـاعي وتعيـد ترتيـب قطـع الأحجيـة مـن جديـد، لتتكشـف الصـورة أمـامي بوضـوح بـلا ضـباب، تمنحنـي يقينًـا قـادرًا علـى إزالـة الغشـاوة التـي مـا زالـت

تخـيم علـى رؤيتـي. لحظـة الإدراك كانـت قريبـة، لكنهـا لـم تكـن مكتملة بعد...

الفصل الرابع

1- عثمان شمس الدين

بعد أن سمعت من داود تلك الكلمات الغامضة، ولاحظت ذلك الحقد الدفين الذي أبداه تجاه حسن، بدأ الشك يتسلل إليّ جوفي. تزعزعت القناعات وتبدلت موازين الإدراك في داخلي؛ ذهبت مداركي إلى أبعد من أن يكون زميلا لنا، أو شريكا وشاهدا في القضية. هجست به كحجر جلمود خال من الإنسانية والعاطفة، مجرد من المسؤولية الأخلاقية. بدا لي مكسوًّا بكبرياء أجوف تفوح منه رائحة فكرٍ فاسد ونَفَس أمارة بالسوء وقلبٍ مثقلٍ بالغلّ. كان عطنه كافياً لإشعال شرارة الاتهام، ولأوقن بأن له يدًا خفية في خيوط القضية، بل لعله هو من ساق حسن إلى مصيره المحتوم.

ومنذ أن اتضحت تلك الصورة أمامي، تغيّرت الأولويات في رأسي، وعدت برأيي إلى نقطة الصفر، حيث ما زال الدليل مفقودًا. بدأت أردد في داخلي أنه ليس إلا شاهدًا متورطًا كحالي، وهذا ربّما ما دفعه إلى إظهار ذلك الحنق على حسن. خُيِّل إليّ ذلك بينما كان الضباب يغشي بصري، وكأنني تجاهلت صراخ العنزة التي فضحته، في حين كنت أراه، بهواجسي، ممسكًا بطرفي العقدة بين أصابع يديه.

حيث لم يكن ذلك الحقد الذي أنبرى بين عينيه بمحض الصدفة، أنما لابد من أبعاد جزلت القصة ليكون لها دلالة وهدف، لابد من أياد خفية انشغلت في حياكة شبكة العقدة، خططت ودبرت التهمة، وقد يكون داود ضليعٌ معهم إن لم يكن سيدهم...

أعود أكرر مرة أخرى: لم يكن سوى شاهد.. مجرد شاهد لا أكثر.

تلك الصفة وحدها كانت كفيلة بأن تجعله يتأرجح بين التبرئة والاتهام، إذ لم يختلف وضعه عن وضعي كثيرًا. القضية كانت وما تزال معقدة، تثير الحيرة أكثر مما تقدم أجوبة. لكنه زادها التباسًا، حين غض الطرف عن المشكلة، كأن الأمر لا يعنيه في شيء. شعرت بعدم اكتراثه بمصير حسن، بل وبالقضية كلها. أدار ظهره، تاركًا إيّاي أواجه التيار وحدي، أبحث عن طرف الخيط المقطوع.

لم يُبدِ أي اهتمام لمساعدتي، ولا حاول أن يوضح أين تكمن العقدة. لم يسعَ إلى تفكيكها، بل أسهم في تعقيدها واشمئزازها. أضحتْ العقدة كأفعى تلتف حول رقابنا جميعًا، مع الأيام تزداد سُماً ووحشية، بينما هو يكتفي بالمراقبة عن بُعد، متوارٍ خلف فوضى المشهد، كأنه لا شأن له بها.

لم يُبدِ أدنى رغبة في نقاش القضية، ولا في حل لغزها... وكأن العقدة لا تهمه إطلاقًا.

أعود وأكرر؛.. أنه مجرد شاهد!.... مجرد شاهد.....

والحقُّ أنني كنتُ تائهًا في متاهة الطرق والتأويلات، لم أُحسن فهم أبعاد نوايا داود ولا علاقته الملتبسة بخبايا القضية. كأنني، في تلك اللحظة، أصبتُ بعقدة بلادةٍ خانقة، عمّت على بصيرتي فحجبت عني كل ما يستوجب الشك والتساؤل. لم أرَ فيه سوى وجه الحياد، ولم ألتفت لظله الذي كان يذرّ غبار التهمة وراءه في كل خطوة، وأنا غافل تمامًا عن أثره

المريب. لقد غابت عني دلائل كثيرة: علاقته الوثيقة بالمدير، درجته الحزبية العالية، خدمته السابقة في دائرة المخابرات، رغبته المستترة في التخلص من حسن، صمته الغامض في السيارة وخارجها، انعزاله عن الآخرين، قطعه لأواصر الزمالة، وخصوصًا بيني وبينه وبينه وبين حسن، وتعاليه الغريب على زملائه في المدرسة... كل تلك العلامات، كانت واضحة، جليّة... ولكنني، ويا للمفارقة، لم أشر إليها يوماً بأصبع الشك.

ولكن!!!!.. ربما لأني كنت أعيش حينها صراعا مع الذات والضمير في محاولة البحث عن لغز المعضلة، عن خيط يهديني لفك خيوطها فتغاضيت عنه، أنصب تفكيري في زاوية أخرى معاكسة لجهة داود أو خارج حدوده.

كنت أسال نفسي؛....

يا ترى، من أين له كل هذا البرود الذي يتحلى به؟ من أين جاء بهذه الكياسة التي لا تتأثر بمحيطه الخارجي قيد أنملة؟ كيف به لا يهتم لعلاقاته المباشرة مع الزملاء، مع إننا ندير حلقة واحدة تخص التلاميذ ورفع مستواهم الدراسي؟ ترى من يمتلك مفاتيح القضية؟.

أيمكن أن يكون على علم بفحوى القضية ومفتعليها؟ هل تحت يديه معلومات تغنيه بحيث تجعله يكون مطمئنا وباردا بالشكل الذي يظهر على سلوكه؟؟؟؟؟

الزمن كفيل بالإجابة على هذا السؤال.

إن جـوهر القضـية لا يمسـنا نحـن كـأطراف طارئـة بقـدر مـا يـنهش كيـان زميـلٍ لنـا، بـات اليـوم يواجـه أزمـة تتعـدى حـدوده الشخصـي لتطـال اسـرته ووجـوده كلـه. دون اختيـار أو إرادة منـا، وجـدنا أنفسـنا فـي قلـب معركـة لا نعلـم كيـف نشـبت، لكنـي أصـبحت علـى أحـد طرفيهـا، وداود علـى الطـرف الآخـر. السـؤال الـذي يثقـل ضـميرنا الآن: مـا الـذي يمكننـا فعلـه؟ بـأي شـكلٍ يمكـن أن نمـد لـه يـد العـون قبـل أن تفترسـه ذئـاب الظلـم والتجني؟

إنهـا ليسـت مجـرد قضـية عـابرة، ولا مأسـاة فرديـة تنتهـي بانتهـاء الحـدث؛ إنهـا مأسـاة تتسـع دوائرهـا لتلـتهم عائلـة بأكملهـا. أم عجـوز مفجوعـة، وأب يقاسـي الهـواجس، وزوجـة تنـوء بالحمـل وحـدها، وأطفـال لا يـدركون إلا أن عمـاد بيـتهم يتهـاوى أمـام أعيـنهم. حتـى الجيـران، أولئـك الـذين عاشـوا معهـم سـنوات التشـرد والنـزوح مـن خـانقين إلـى جلـولاء إبـان حـرب السـنوات الثمـان، يتكسـرون ألمًـا لمـا يحـدث. تلـك الحـرب التـي لـم تُبـقِ علـى يـابسٍ أو أخضـر، دفعـتهم إلـى الفـرار نحـو الأمـان. واليـوم، بعـد أن ظنوا الخطر صار خلفهم، عاد ليدقّ أبوابهم في شكل آخر.

فـي جلـولاء، انطلقـت الأسـرة فـي نسـج حيـاة جديـدة، امتزجـت فيهـا خيـوط الـود والصـداقة مـع أهـل المدينـة، وشـكّلت الجيـرة الطيبـة روابطًـا إنسـانية قويـة أصـبحت مـع الـزمن مـلاذًا للأمـن والتضـامن. وسـط هـذا النسـيج، تـألق اسـم الأسـتاذ عثمـان شـمس الـدين؛ رجـل نـادر فـي دماثتـه، رفيـع فـي تعاملـه، بسـيط فـي

حضوره، نبيل في جوهره. تحوّلت صداقته إلى ركنٍ دافئ في حياة الأسرة، وكأنها امتداد طبيعي لدفء تلك المدينة.

حين اشتد غموض القضية وأصبحت لغزًا يؤرّق أخ حسن، دعاني الأستاذ عثمان إلى جولة في شوارع جلولاء لمناقشة خفاياها، وأصرّ أن أرافقه في هذه الرحلة، إيمانًا منه بأن الحوار المفتوح قد يكشف المخفي ويضيء الغامض. كان هدف اللقاء أبعد من مجرّد استفسار، بل كان محاولة إنقاذ، بحثًا عن طرف خيط قد يقود إلى الحقيقة التي ضاعت منذ اختفاء حسن قبل عام، حين دخل دائرة الأمن ولم يخرج منها، اختفت أخباره تمامًا عن الأهل والأصدقاء.

في تلك اللحظة، كنت قد عدت توا من اليمن، حيث قضيت عامًا في التدريس فرارًا من الحصار الأمريكي الخانق على العراق، ذلك الحصار الذي أنهك البلاد والعباد معًا. ظننت أن العودة في العطلة ستكون للراحة واللقاء، غير أن الأحداث كانت تنتظرني لتفاجئني، فطفحت الأزمة على السطح من جديد، كأنها لم تكن لتُحلّ في غيابي.

أوضحت لهم جوهر القضية بالتفصيل، مستعرضًا ما حدث خلال رحلتنا في العجلة وما جرى معي في مديرية أمن ديالى. كنا نتجول في شوارع محلة الطليعة الجميلة، بين شجيرات الدفلة والقصب والآس، بينما كانت الزهور المبعثرة تنثر عبيرها في الأفق في ذلك المساء الهادئ. وبينما كنا مستغرقين في الروائح العبقة، انشغلنا بمناقشة قضية حسن. تحاورنا، تجادلنا، وشرحت لهم كل صغيرة وكبيرة، آملاً أن

نصل معًا إلى حل اللغز، ليتمكنوا من فهم المشكلة بوضوح، ولأبرئ نفسي من التهمة التي تكبلت بها.

عندها سألت أخوه عن مصير حسن! أن سمحوا لهم بزيارته وملاقاته، قال..

- لا نعلم شيئا عن مصيره ولا عن مكان سجنه، ولا أحد يقدم لنا مساعدة بهذا الشأن.

من خلال النقاش أحسست بأن أخوه يضمر في ذاته حقدا تجاهي، كأني لي ضلع في تهمة أخيه، لم يقتنع بأني ضحية خبث كما هو أخوه حسن، ولكن مع اختلاف الأدوار، ربما لأني ليس لديَّ ما يشفي غليله من دلائل تفسر له توضح عقدة الأمر بشكل دقيق وناضج، دلائل تبين تفاصيل أعمق بعدا وأكثر نضجا ولمعانا مما كانت لدي، لصقل الحقيقة وتبيانها على ماهيَّ..

ربما المسألة لازالت فيها جوانب مظلمة، غامضة، ضبابية، حينها كنت لازلت أبحث عن الذي بز غله في كأس شرابنا، عن ذلك المارد الذي دك بحنق أعناقنا، عن الذي كتب تقريره الخبيث وورطنا، عن الذي عكر صفوة الأجواء بيننا. كنت لازلت أود معرفة؛ كيف عرف مدير المدرسة بأني مجرد شاهد في القضية ولست متهما بها؟ فهو لم يكن معنا في الباص في حينه!....

فأوعزت ذلك إلى كونه مديرا للمدرسة التي نعمل بها، إضافة لمكانته الحزبية والوظيفية؛ فلابد أن يكون ملما بمشاكل

مدرسيه. يعود ذلك إلى طبيعة دوره الإداري والحزبي، حيث تتوفر له قنوات متعددة للحصول على المعلومات ذات الصلة، سواء من خلال دائرة الأمن، أو الجهات الحزبية، أو المؤسسات التربوية المعنية. ومن المحتمل أن يكون هذا الإلمام جزءًا من إجراءات تضمن استمرارية العملية التعليمية، لا سيما مع وجود مدرسين أساسيين ضمن القضية، مما قد يستلزم اتخاذ تدابير مسبقة لتعويض غيابنا من خلال التنسيق مع مديرية التربية لضمان سير الدراسة وجودة التعليم المقدمة للطلاب.

في تلك المرحلة، كان أكثر ما استوقفني هو تجاهله التام لتلك العنزة الصغيرة التي كانت حاضرة كأنها شاهد صامت على واقع مريب. لم يبدُ عليه أي قلق من مصير حسن، وبدا كمن يرتدي قناعاً من اللامبالاة. كانت تصرفاته تتماوج بين الغرابة والتناقض، ما بين صرامة موقفه وهدوء يخفي اضطراباً داخلياً، ربما نتيجة تداخل سلطة الحزب بتاريخه الأمني الغامض.

شيئاً فشيئاً، تسلّل إلى داخلي شعور بالاشمئزاز من واقعٍ صار يُدار بأنياب الحصار وأدوات القمع. لم يكن الأمر مجرد ضائقة اقتصادية، بل كانت مرحلة انحلال جمعي، نهش الفقر النفوس قبل الجيوب، وخنق الأرواح بخوفٍ مبرمج وإملاق لا يرحم. تساقطت الأقنعة، وبدأت ملامح الإنهاك ترسم على الوجوه خطوطاً عناء لا تزول.

هبوط العملة كان صدمة تختصر كل شيء لفهم الواقع. ستة آلاف دينار كانت معي تعني ستة آلاف دولار، لكنها في السنة الثانية من الحصار تحوّلت فجأة إلى ما يعادل ١٨٠ دولار فقط. هذه الأرقام لم تكن مجرد خسارة مالية، بل رمز لتدهور عميق بات يهدد بقايا الكرامة. بدا الوطن كمن يسير نحو المجهول، وما عدت أجد في هذا الخراب غير فرصة هروب، لأنسحب بصمتي نحو الهامش، بحثاً عن بصيص أمل في اليمن... ذلك الملاذ الذي لم يكن سوى قارب نجاة أمام الانهيار.

كانت رحلتي هروبًا من صخب التوتر وضغوط الحياة، شعرت خلالها وكأنني طائر يحلق بحرية دون قيود. الطبيعة احتضنتني بأجوائها الساحرة، حيث نسيم الهواء، وصفاء الماء، وامتداد الأرض الخضراء. هناك، وجدت نفسي في عالم بعيد عن التعصب والانشغال بالمصالح الضيقة، أدركت أن الحرية ليست مجرد غياب القيود، بل هي شعور ينعش الفكر ويهدئ القلب. ربما أراد الله أن نتعلم من الطبيعة كيف نحيا بصفاء، لكننا غالبًا ما نغفل عنها وسط مشاغلنا ومشاكلنا اليومية.

المفارقة اللطيفة، خلال عودتي للعراق كنت أشعر بالغربة فيه لما أشاهد من فقر وبؤس منتشر بين صفوف المجتمع، وخاصة بين الطبقات التي تعتمد في معيشتها على رواتب الدولة، حيث بعد سقوط قيمة الدينار أمام الدولار الأمريكي تراجعت أحوال الناس كثيرا وارتفعت الأسعار حتى وصلت

قمتها شيء لا يطاق، وصلت لنقطة يعجز الفرد على أن يرقعها بعد أن توسع الفتق فيها، صعب عليه أن يواكب درجتها أو يسايرها، مما دعت البعض إلى الانحراف عن منهجه الخاص أو تخطي حالة العجز بالهرب من الوطن، شعرت بالضغط النفسي الذي قد طال جميع شرائح المجتمع؛ حتى الذين فلتوا من سور الوطن، لأنهم لا يمكن أن يتخلوا عن جذورهم.

كما أني بعد عودتي شعرت ولأول مرة بأني أعيش خارج الضغوطات النفسية والحزبية التي كانت تلاحقني، تخلصت من خفارات الحراسة الليلية التي كنتُ أجبر على خوضها وأتناوب عليها مع رفاقي، تجردت من الواجبات التي كانت تناط لي، صرت سيدا مبجلا ومحترما في نظر أعضاء المنظمة الحزبية وغير متابع من قبل عناصر الحزب، على الرغم من أن السيد (رشيد زيولي) كان قد كتب تقريره الخبيث عني، مدعيا بأني هارب من الحزب ومن العراق.

ذلك ما عرفته بعد عودتي للعراق حين استدعيت للمنظمة الحزبية، لأجيب عن استفساراتهم الخبيثة، عن سبب مغادرتي العراق لليمن بشكل مفاجئ، كأنه يمنع على المواطن السفر.

حين كنت في اليمن، ظل فكري يئنّ من وطأة القضية التي حُشرتُ فيها عنوة. لم أكن يوماً ممن يسعون لصناعة ضجيج أو التورط في ساحات الشك، لكنني وجدت نفسي في وسط دوامة نُسجت بخيوط غيري. شعور الغربة عن الحدث وعن

تهمتـه طـاردني كعُقـدة فـي الـروح، أثقلتهـا التفاصـيل وغمـوض النوايا.

أكثـر مـا شـغلني هـو الـزمن بـين الثـاني مـن أيـار، حـين وقـع الحـدث، والثالـث مـن حزيـران، حـين تـم اسـتدعائي. شـهر كامـل يفصـل بـين الحـدث والتحقيـق فـي تهمـة خطيـرة: قـذف رئـيس الجمهوريـة. هـل كانـت التهمـة فعـلاً عاجلـة؟ أم أن فـي التـأخير إشارات لما هو أعمق من مجرد إجراء رسمي؟

تسـرب لـي شـعور بـأن الأمـن لـم يتـأخر عـن تقصـير، بـل عـن تقـدير. كـان علـيهم أن يوازنـوا بـين الحـدث وظـروف المدرسـة التـي كنـا فيهـا؛ وقتهـا كانـت الإدارة منهمكـة بالامتحانـات، ومغادرتنـا فـي ذلـك التوقيـت كانـت سـتُحدث فراغـاً لا يُحتمـل تربـك الادارة والتلاميـذ والامتحانـات. وقـت لـم يكـن وقـت فوضى.

أمـا عـن صـاحب الـبلاغ، فاسـتبعد أن يكـون قـد تـوانى. مـن يملـك الجـرأة علـى الإدلاء بتهمـة بهـذه الخطـورة لا يُخـاطر بتأخيرهـا. التـأخير كـان ممـن بيـدهم القـرار ليدرسـوا القضـية، ليتريّثـوا، أو ليتأكدوا أن الضربة لن تُربك إدارة التعليم.

وفـي داخلـي ظـل السـؤال يتـردد: لمـاذا أنـا؟ مـا علاقتـي بكـل هـذا؟ كـل مـا أردتـه هـو أن أخـرج مـن هـذا الغـلّ الغريـب... وأعـود كمـا كنـت: مجـرد إنسـان يـؤدي عملـه بقلبـه، لا لاعبـاً فـي مسـرح سياسي لا علاقة لي به.

لم تخرج القضية عن بالي قط، وفي لحظات الفراغ أجلس في وحدتي اراجع حيثيات القضية متهما بها كل رفاقي ومعارفي، لم أبرء أحدا قط، محاول حل لغز القضية دون أن أصل لنتيجة مرضية. بت أشك بكل شخص يسقط نظري عليه، بكل من يلمع أسمه بذاكرتي وبمقدار بعده وقربه من صلب القضية. تشابكت خطوط الطول والعرض في ذاكرتي بحيث جمعت كل رفاقي الذين أرتبط معهم بصلة في بوتقة واحدة دون تمييز، دون أن أصل ببحثي إلى يقين يشعرني بالأمان ويزيح عن ذهني هوام الشك.

عدت أدراج فكري لقرار تركي البلد، وعلمت بأني قد اتخذت القرار الصحيح في ذلك الوقت، لما آلت إليه الأوضاع بعد أن تحولت أحوال الناس من سيء إلى أسوء ومن انحطاط إلى تدهور جراء قيد الحصار، وقد أخذت بالآية الكريمة لتذلل الصعاب (هو الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)، صدق الله العظيم.

على أية حال كلما بعدت ميلا أعود واصطدم مجددا بقضية الأستاذ حسن، حتى أني استغربت كثيرا من فترة حجزه الطويلة في زنازينهم دون محاكمة. وقبل أن أعود إلى اليمن كنت قد التقيت مجددا بالأستاذ عثمان شمس الدين طيب الذكر، الذي نقل لي أمتعاض أهل حسن من بلادة دوري في حياكة القضية ضد أبنهم، وعرفت بأني موضوع في دائرة الشك والاتهام الصريح من قبلهم، وذلك بتوريط حسن في التهمة المنسوبة إليه.

لـم يخطـر ببـالي يومـاً أن أشـك ولـو للحظـة فـي الأسـتاذ داوود، ذاك الـذي انكمـش فـي عزلتـه كجمـرة تسـتعر تحـت الرمـاد، متقـد الـذاكرة، واعٍ لمـا يـدور حولـه، غـارق فـي صـمته العميـق، متواريًـا عـن الأنظـار. الجميـع أجمـع علـى ضـلوعه فـي صـياغة سـيناريو القضـية، الكـل اتهمـه بتضـخيم المأسـاة... إلا أنـا. كنـت وحـدي أغـرّد خـارج السـرب، منحتُـه تسـاهلاً لا مبـرر لـه، حسـبته مسكينًا تـورّط شـاهدًا كمـا تورطـت أنـا، ولـم يخـالجني شـك واحـد فـي نوايـاه... حتـى جـاء الأسـتاذ عثمـان، ونفـض الغبـار عـن بصيرتي، حين قال لي...

- هـو؛ هـو لا أحـد غيـره، هـو الأسـتاذ داوود مـن كتـب التقرير ضد حسن.
- كيـف تجـزم بـذلك؟ مسـتحيل أن يكـون هـو، أنـه مجـرد شـاهد فـي القضـية مثلـي، ثـم كيـف يكـون كاتـب التقريـر شاهدا في القضية؟
- نعـم هـو، لا بـد مـن أن يكـون فـي القضـية شـاهدين! فـأن تعسـر وجـود شـاهدٍ ثـانٍ، فسـيكون كاتـب التقريـر هـو الشاهد الثاني على الحدث.
- أحسـنت يـا صـديقي، أحسـنت يـا عثمـان، الله ينـور عقلـك مثلمـا نـورتني، كيـف غفلـت عنـي هـذه الفقـرة، لقـد نـورت فكـري، بـارك الله بـك، كيـف غابـت عـن ذهنـي هـذه النقطـة.... الآن جعلتنـي أقـرأ الحـدث بوضـوح، الآن أصـدقت القـول يـا عثمـان. شـكرا لـك... يـا لله.... كـم كنـتُ غـافلا عـن هـذه النقطـة طـوال تلـك المـدة المريـرة، الآن بـان الحـق وزهـق الباطـل، لهـذا السـبب أشـعر بـه يتهـرب

من مواجهتي، لهذا السبب قال لي دعه يأخذ جزائه هذا الكلب الحاقد على العراق، هذا الجلالي (أي ينتمي لحزب جلال طالباني) إذا هو.. هو فعلا هو الذي كتب التقرير، وهو الذي ود التخلص من حسن....

كأنه بتوضيحه الفكرة لي قد قطر في أذني وعيني قطرات الصحوة، حينها طرقت أذني صوت عنزته وهي تمعمع بأعلى صوتها، حينها فهمت غايته بعد أن طنت أذني بمغزى ما أطرأ نقاشي معه حين قال لي:-..

- " لم أنت مشغول بقضية حسن، دعه يأخذ جزائه، أنه كلب من كلاب جلال الطلباني".

قال عثمان:...

- اراك صافنا؛ هل تذكرت شيئا ما؟ هل ذكرتك بموقف؟
- نعم ...في موقف سابق حين سألته أن كانت له دراية عن كاتب التقرير الذي ورطنا، قال لي.. "أنسى الموضوع، دعه يأخذ جزائه، أنه أحد كلاب جلال الطلباني."....
- ماذا؟ .... هل قال ذلك؟
- أنسى الأمر... نعم هو.. أنه هو .. لا أحدا غيره يتجرأ ويتفوه بهذا الوضوح، كما تقول أنت، هو الذي له يد طويلة، لقد تعلم الخبث من جهاز المخابرات.
- هذا دليل واضح على أنه هو من كتب التقرير، ولكن لأنك مكبل بالقضية اضحيت معصوب العينين.

الغشاوة جعلتك لا تبصر الحقائق كما هيَّ، وكما يراها غيرك.

- فعلا هذا صحيح، نعم هذا صحيح، وهذا ما أشعر به، وإلا كيف عرف مدير المدرسة من أني شاهدٌ في القضية لولا تقربه منه.
- أحسنت. حتما أتفق مع المدير أو أطلعه على تقريره قبل أن يخبر دائرة الأمن.

بعد هذا اللقاء الذي هزني، جعلني أسترجع أحداثا سابقة لم أهتم بها في حينها، وبالذات لقاءنا في العجلة ونحن ذاهبون للمدرسة، تذكرت سكوته وقوة صمته وعمق حنقه البائن على قسمات وجهه العابس. تصفحت صفحات الذاكرة التي لم استدرجها، محاولا استذكار كل صغيرة وكبيرة جمعتني بداود، لقد تسللت لدهاليز الذهن، تجاوزت محيط الحدث والدوائر المتشابكة، صرت أفسر جيدا معمعة العنزة التي لم أركز على عزفها بشكل فطن سابقا.

2- منغصات القضية

في حكاية تقول:...

كان الغراب يعيش في ظلال الغابة، يتأمل العندليب وهو يغني بصوته العذب يطرب الطيور، ويكسب محبة جميع الحيوانات. شعر الغراب بغيرة دفينة، فقد تمنى لو أنه يملك مثل هذا الصوت الساحر ليكون محبوبًا بين الطيور الأخرى. دفعت الرغبة الغراب إلى تقليد العندليب، لكنه لم يدرك أن صوته الخشن لا يمكن أن يضاهي نغمات العندليب الشجية. حين أطلق الغراب صوته محاولًا الغناء، ارتبكت الطيور، ثم سرعان ما طارت مبتعدة، متجنبة ذلك النعيب المزعج. بدلاً من نيل المحبة، أثار الغراب استياء الحيوانات، التي اجتمعت وقررت طرده من الغابة. وهكذا، وجد الغراب نفسه وحيدًا، يعيش في الصحاري والأراضي المفتوحة، بعيدًا عن الطيور التي كان يسعى لمودتها.

هجست بداود ود أن يقلد ذاك الغراب في سلوكه وتصرفه ونشزه رفاقه قبل أعدائه، أدانه الكثير، وحنق عليه أقرب ناسه ورفاقه. فمنذ ذلك اليوم صار يعيش في عزلة تامة وهو ماقت الجميع والجميع يمقتوه، باتوا رفاقه لا يأمنوا على أنفسهم من غدره، وبقت تلك العنزة تمعمع في حجره يسمعها الجميع إلا هو، وستبقى تؤرقه حتى يوم أجله حين تُطمر قذارته.

يا ترى! كيف غفل حسن عن نعيب الغراب، عن ذلك الصوت الخفي الذي كان ينفذ من مسامات جلده ومن وجه ومن حدقات

عينيه التي تسبح في بحر من الريبة، كان ذلك واضحا لمحيطه، بائن في أعماق مشاعره وهو يشهر بذاته دون أن ينتبه على قرقرته الناشزة؟ ربما لأنه حديث العهد بيننا.

أيَّة غشاوة ركبتنا وأطبقت على ذهن حسن بالذات؟ بحيث لم نفكر ولو للحظة بلون المكر المتجهم بوجه داوود، لم نسمع ذلك النداء الخفي الفاضح الذي مثل شخصيته وعبر عن مكنونه، لم ننتبه على قبح الصفرة الذائبة في سمرة وجهه ولا على رائحة الحنق المنبعثة من الفاظه.

يا ترى! من يتجرأ أن يكتب تقريرا في موضوع حساس، بحيث يعرض به حياة أسرة كاملة للخطر أن لم يكن عديم الإحساس والضمير؟ أن لم يكن متطفلا في حياته ونواياه على فضلات المناصب والرفعة التي يرتجيها من اسياده؟ ليجد لشخصيته المهزوزة مكانة في المجتمع. أنه كذلك بلا هوية من وجهة نظري، فالشخصية تبنى بناء بالسلوك والثقافة والإيباء والمواقف، ولا تكتسب بالغش والنفاق والتصرم والمنصب وبسرقة أرواح الآخرين.

من يستطيع أن يكتب تفاصيل حدث ما برمته، وبالدقة المتناهية التي كُتب بها التقرير دون أن يكون جزء من واقع الحدث؟ دون أن يكون مشارك بالفعل في الحدث؟ بحيث فصل القضية وركب أجزائها لتكون ملائمة على شخصية حسن كما يبدع الرسام في تجسيد فكرة اللوحة. ذلك الشخص الموارب، هو الشيطان بعينه.

كل الدلائل تشير أليه، تتهمه بإيقاد فتيل الفتنة، كل الوقائع تبصم بجرم قلمه.

حمدت ربي بعد أن وصلت للقناعة التي ابتغيها والتي وضحت لي الحقيقة الغافلة عن ذهني، ففي داخلي كنت قد شكرت الأستاذ عثمان شمس الدين من أعماق قلبي والذي هجست به بمثابة مصباح الطرق أنار دجى دربي، فأنا ممتنا له لمى قام به من دور بحيث قلص المسافة بين العين والذهن، لقد كشف لي عن مساحة شاسعة تكمن خلف النوايا والذاكرة لم أكن منتبها عليها. لقد أوقد فتيل الذاكرة لأعيد ترتيب الأوراق وأقرأ الحقيقة بطريقة سهلة، كأنه كان بمثابة الوحي، حين رفع عن صدري تلك الغمة، تلك التي أثقلت كاهلي وعرقلت مسيرتي في الحياة.

في الحقيقة الشخص المغموس بوحل العقد لا يرى تفاصيل الحدث مثلما يراه آخرون من منظار المراقبة، مثل الأرض التي نعيش عليها، لا نتحسس طبيعتها الكروية إلا أذا ابتعدنا عنها لنشاهدها كما تصورها الأقمار الصناعية. تلك هيَّ الحقيقة الناصعة التي جسدها الاستاذ عثمان في المشهد دون أن أفطن عليها، لقد جعلتني أنظر للأمور بشكل مغاير عما كنت أتوقع..

بعودتي إلى عجلة الباص التي أقلّتنا من مرآب جلولاء، لم ألحظ شخصاً ذا أهمية أو هيئة تثير الشكوك في ذلك اليوم. كل من علقت ملامحهم في ذاكرتي كانوا من أصحاب الدخل المحدود، من البسطاء الذين يلهثون خلف أرزاقهم، يحاولون

عبور أزماتهم بأقل الخسائر. فقراء من الطبقة الكادحة، يبحثون عن سلال الرزق بين متاهات الحيرة وتضاريس العوز، تحت وطأة الحصار الذي أرهقهم. أغلبهم كانوا من المسنين والعجزة، أولئك الذين لا يُشغلهم من الحياة سوى توفير لقمة العيش لأبنائهم. لا تهمهم التوجهات ولا تشغلهم الانتماءات، بقدر ما تشغلهم أيديهم المتعبة وهي تفرش رغيف الأمل على موائد أسرهم المكلومة. أيدٍ خشنة، صبورة، تُصرّ على أن تمنح أبناءها ما يعينهم على الجلد، وعلى عبور التحديات التي باتت تتراكم وتتشابك في دروبهم يوماً بعد آخر.

الحصار لم يكن حبلًا يُرى، لكنه التفّ حول الأعناق كحكاية قديمة لا يُعرف كيف بدأت، ولا متى تنتهي. كبل الأيادي وأقدام الناس، سلبهم فضاء الحرية، وكتم عنهم أنفاس المبادرة. كان الحصار يزحف بخطى واثقة، وبتفاهم عقيم، من أول وهلة بدا دميماً، ثقيلاً، لم تحتمله اسسهم الهشة.

الدولة كانت منشغلة بشؤونها، بضجيج الإعلام، الحروب، موائد التصريحات. لم يكن لها اهتمام بشؤون الناس، لذا ما أن اشتد الحصار؛ حتى باتوا يتلمّسون أثر الحسنة كأنها قطرة ماء تشفّ العرق عن جبينٍ يابس.

توالت الأيام، وتراكمت أزمنتهم بلا سند. الخُذلان صار لباسهم اليومي. ومع ذلك، لم تهن نفوسهم، ولا ارتمت أرواحهم في قاع اليأس. بل صاروا يبحثون عن الرزق في جوف العدم، مستندين على الله والبساطة والصبر.

لا بد أن يكون للحقد البغيض من مسلمات أولية سممت فكره، قبل أن تسمم قلبه ولسانه ونواياه. دوافع البغض كانت واضحة للعيان، مكنونة في قيافة شخصه، كأنها البسته طاقية التهمة دون أن يدرك، أو أنه كان يدرك ولا يبالي للصلافة التي عرف بها وتعود عليها من خلال تدريبات دائرة المخابرات التي عمل بها، كانت الحالة قد تقمصت ذاته وشخصيته.

كما أن العلاقة الحميمية التي تجمعه بالسيد مدير المدرسة بسبب تقارب الدرجة الحزبية فيما بينهما، أعطت له تلك الكارزمة الغريبة التي تصلف بها، والتي بدورها قربت المسافة بينهما ليكشف له عن وجه القضية ويسره بتفاصيلها، ربما أخذ بمشورته قبل أن يكتب تقريره الخبيث.

لذلك ود مدير المدرسة تنبيهي عن دوري في مسرح الحدث ليخفف من وطأة ثقل الهم من على متني، عندها كشف لي عن دوري في تفاصيل القضية كشاهد وليس كمتهم. وربما الذي دفعه إلى أخباري بذلك ضميره الحي، كوننا أبناء حي واحد وتجمع اسرنا صداقة طويلة.

ربما حيكت خيوط القضية على رواق في غرفة الإدارة، وخاصة بعد أن صفعهم الأستاذ حسن في تقديم استقالته من الحزب دون مقدمات ودون مبالاة، مما جعلهم يشعرون بامتعاض ومهانة وإهانة لشرف حزب البعث، فوجدوا تلك الكلمات على لسان حسن فيها خذلان وتصغير، لذا ودوا إعادتها إليه بشكل غير مباشر ليكون عبرة لمن أعتبر..

ربما كان المدير هو الآخر ضحية مكر داوود وتخطيطه، ليجعل من القضية رأي عام مشترك. حيث أصحاب التقارير دائما ما يضعون ذواتهم خلف الكواليس تجنبا للمفاجئات، ليجدوا من يدافع عنهم في المحافل حال غيابهم. ربما فرض عليه الحالة وجعله بين المطرقة والسندان، حيث لا يستطيع أن يرفض أو يساوم في مضمون التقرير لأنه يمس كرامة وقامة شخص الرئيس بذاته، وبذلك لا يستطيع أن يرفض صيغة التقرير أو يعارض بثه.

إذا بخبث تقريره كان قد أشبك الخيوط بعضها ببعض، بحيث ورط حسن وورطني وورط ذاته ومدير المدرسة وأسرة حسن وأصدقائه ودائرة الأمن ودائرة القضاء بحيث جعلنا جميعا ندور في فلكه كالكواكب السيارة..

أشعر بأن حسن كتب لنا قصيدة بعد أن تذكرنا في زنزانته قائلا فيها:...

رحلتُ

وما كنت أنوي الرحيل

لكنّ ريحًا ساقتني إلى الضياع

صرختُ

لكن الصدى أغفل أنيني

فبان الصمت أجدى وأنا في زواياه أحترق

أرسم وجهي فوق السيول
علّه يُزهر في الفيافي قلمًا
يخطُّ ذاكرةً الأوجاع

أحمل خيط الريح في راحتي
أربطه بجذور الهوى
أقيس المسافة بيني وبيني
وأجدني في المنتصف
لا بداية لي
ولا نهاية تشير أنني وصلت

الضوء في العتمة لا يفزعني
لا يلهمني
بل يفضح الرماد المركوم في القلب

3- الدوامة

بعد رحلة طويلة من البحث والتدقيق وسط متاهات الشك وظلمة الحيرة، تمكنتُ أخيرًا من القبض على الشيطان، من أن أمسك برأس خيط الحقيقة الذي كنت أفتقده. رغم التأخر في الوصول إلى الإجابة، إلا أنَّ لحظة الإدراك جاءت قبل أن يُغلق ملف القضية نهائيًا... لقد مضى عامٌ من الصمت المحمل بالألم، أرفق عناءً نفسيًا وبحثًا مضنيًا في دروب الشك. عامًا من الحيرة والتوجس، حتى أصبحت القضية غارقة في التعقيد والغموض دون أن يُفك لغزها. عاما من التضعضع والحيرة المجنة، فيه دخلتْ القضية حدود الغسق والعُقد والتصرم، ولكن ها أنا اليوم أمسكت بخيط الحقيقة، وأحرق الشك باليقين.

في تلك الفترة تكبلتُ بوحدة أنستي قرف القضية، انزويت خلف حاجز البعد، كي لا أسمع زعيق العقدة يتردد في عقول البعض، تلك التي لا يمكن تخطيها دون أن أعزل ذاتي عن منسوب التهمة التي بللت قدميَّ. عندها كنت قد وصلت لمعادلة جدلية، بحيث كلما طالت مدة حبس حسن، زادت المشكلة تحميصا وتعقيدا وتحميضا في أذهان الجميع وبذات في أذهان ذويه ودائرة الأمن جدلا واستسلاما. الذين وجدوا أنفسهم محصورين في مستنقع العقد. أما أصدقاؤه حتما تأثروا بغيابه، انكلت عليهم قسوة الحياة البسمة والصبر والتأني، تهجس بهم في جدل مستمر بحثا عن الحلم بين إنياب الفكرة.

الراحة لم تكن حاضرة أو تقلصت مجالاتها.. بل تلاشت مع تفاقم الم الحياة. ضئلت مع تعاقب الأيام، انزلقت الأشياء نحو

التجريد، وانسحب المعنى لصالح التيه والفراغ، حتى صار التفكك الذاتي أمرًا واقعًا لا مفر منه.

أما حسن الذي لا أحد يعرف عن أخباره شيئا، كان قد نصب الفخَّ لنفسه بيديه. لم يسقط فيه وحده، بل جر أسرته إلى وحل الاتهام، حيث لم يبقَ من خيار أمامه سوى التشبث بالصمود، وشق طريق الخلاص عبر عتمة المرحلة، قبل أن تبتلعه دماسة سرمدية.

أشد ما يفقم مأساة هذه العقدة؛ هو غياب الأستاذ حسن، ذلك الاسم الذي يتردد بيننا كظل خافت، حاضر رغم غيابه، مجهول المصير في عتمة الأيام التي أخفته بين ثناياها بلا أثر. انقطعت أخباره تمامًا، حتى بات محظورًا عليه لقاء ذويه، الذين وجدوا أنفسهم عاجزين عن معرفة موقع سجنه، لا عنوان يهديهم إليه، لا خبر يطمئنهم أو يصدمهم بالحقيقة. تاهوا بين الشائعات التي تتردد بصوت خافت بين الناس، تلك التي تتعالى كطعنات تنذر بأنه ربما لقي حتفه في ظلام الزنازين. وهكذا، استسلموا للواقع، فاض بهم الشعور بالارتباك والوجل، حتى بات موت حسن عند البعض أمرًا مسلمًا به، شأنه شأن كثيرين غابت عنهم شمس الحرية في متاهات السجون.

باتت القضية أكثر حساسية حتى غدا الاسم محظورًا على الألسنة، فلا أحد يجرؤ على التفوه به أو الخوض في البحثٍ عنه، خوفًا من الانجرار إلى دوامة الاتهام. لم يتجرأ أحد على السؤال عنه سوى أهله، ومع ذلك، فكل محاولاتهم اصطدمت

بجدار الصمت، عاجزين عن العثور على أي أثر يقودهم إليه، غير قادرين حتى على تعيين محامٍ يدافع عنه لغياب أي معلومة تحدد مكان احتجازه.

راحت شائعات إعدامه تنتشر بلا مصدر أكيد، كريحٍ تتخلل الأبواب المؤصدة. لا أحد يدري إن كانت من دسائس الحزب، أم من خطّط لاصطياده، أم أنها تجلٍّ ليأسٍ مريع تسلّل إلى هواجس الناس نتيجة طول فترة احتجازه. الصمت الرهيب الذي لفّ القضية كان بحد ذاته إعلانًا غير معلن عن مصيره، كافيًا لزرع الذعر في قلوب رفاقه ومحبيه. صار الترقب عادة مجلة، والتوقعات القاتمة منطقًا طبيعيا، في زمنٍ صار فيه القمع قانونًا يأخذ به.

كانت النفوس تتآكل من داخلها ببطء، كما ينخر السوس خشب الأبواب القديمة، تشبه العثّة في صمتها وشراستها وهي تأكل كل شيء بصمت. الخُدش ترك ندب في الشعور الإنساني، سُلب من القلوب طمأنينتها، ومن العقول اتزانها.

يبدو أن التقرير الأمني كان عاملًا حاسمًا في تحديد مصير حسن، كتب بأسلوب الخبث بحيث لا أحد يستطيع تجاوزه. خبرة استقاها من دائرة المخابرات. حوى على اتهامات خطيرة، فالإساءة العلنية للرئيس صدام حسين، وهو بحد ذاته يكفي لتبرير أقصى العقوبات، ناهيك عن الأمور الأخرى التي دس في التقرير من انتمائه لفصائل الانفصال أو لحزب معين أو لجماعة المعارضة.. الخ. .. مع أني قد أنكرت تطاول على الرئيس خلال استجوابي؛ إلا أنَّ الأمن كانوا مقمحون في

صيغة التقرير المعد، لن يستطيعوا تجاوز فقراته المدسوسة قيد شعرة. لذا ودوا منه اعترافا لتجنيب ذواتهم تهمة الإهمال والغفلة، فأجهزة الأمن ذاتها توجد عليها مراقبة من عناصر تعمل في جهاز الأمن نفسه..

خلال المقابلة كنت قد أعددته سؤالا عابرا كبقية الأسئلة لمجرد التأكيد أو النفي، لأنه كان مجرد استفسار، الغاية منه الجزم من عدمه، كوني لا فكرة لي عن صيغة التقرير، فكل ما دونته هو مجرد تهيؤات. كما أن الواقعة كانت قد جرت في داخل عجلة باص مليئة بالركاب، فحتما لن يتجرأ الشخص من أن تصل به الوقاحة لحدود السب العلني إلا أذا كان مجنونا أو معتوها. وأعتقد تلك الفقرة تضع المحقق في شك من صحة التهمة، لكنه لا يستطيع أن يتجاوز الخبث المدسوس ويتحمل ارهاصات تكذيب التقرير دون دليل.

في الحقيقة يمثّل هذا الجانب أحد أبرز مواطن الضعف في التقرير المُعد ضد حسن، إذ انعكس ذلك في قصور كاتب التقرير وإدارة الأمن عن معالجة القضية بجديّة منذ بدايتها. فقد تمسكت الإدارة بجزئية محددة دون إجراء تحليل شامل للحدث من حيث الزمان والمكان، كما أنها لم تُعنَ بتحليل مفردات التقرير وربطها بسياق الحدث- هذا من وجهة نظري. ولم تُبذل أي محاولة جادة لاكتشاف الأبعاد الخفية خلف كلمات التقرير، بما فيها من حقد أو التباس أو تحريض دفين. وقد بقيت القضية معلّقة في رقبة دائرة الأمن، نتيجة إصرار كاتب التقرير على تضمين إساءة والتي لا يمكن

تجاوزها أو التغاضي عنها قانونيًا. ورغم وضوح الغاية التي تسعى إليها فقرات التقرير لكل من يطلع عليه، دون حاجة للتأويل أو الدخول في تجاذبات النيات، بقي جهاز الأمن ملتزماً بإجراءاته المؤسسية في إحالة المتهم إلى القضاء.

من ناحيتي، أبرئ دائرة الأمن من الإجراءات المتخذة في القضية، إذ هدفت تلك الخطوة إلى تجنّب تحميلها مسؤولية التقصير. فطبيعة القضية شديدة الحساسية، لذلك اختارت الدائرة الحياد حفاظًا على استقرار الدولة ورمز سيادتها، السيد رئيس الدولة. ثمة خطوط حمراء لا يجب تجاوزها، ومحاولات التشويش التي تظهر من حين لآخر تبرّر وجود الأجهزة الأمنية، كونها حائط صدّ ضد كل ما يهدد أمن الدولة واستقرارها الفكري.

أما خلال رحلتنا للمدرسة، فقد كنا مكدّسين داخل العجلة في ظروف غير إنسانية، ومع ذلك، جاء التقرير منحازًا، متجاهلًا الواقع. حتى رجل الأمن لم يدرك أفق الحدث، وتعامل بسوء تقدير. والأسئلة الجوهرية لم تُطرح: هل اعترض أحد على ما قيل؟ ما كانت ردود أفعالنا؟ التحقيق افتقر إلى الحياد، وكأن النية كانت محسومة مسبقًا.

كان سؤالا غبيا مع واقع الحدث. سؤالا فيه الكثير من التجني، لأنه من المستحيل أن تصل الجرأة بالشخص تحت ذلك الظرف الشاذ من التفوه والتجاوز وهو يعرف مسبقا ردة فعل الركاب من حوله، ليس من باب الدفاع عن السيد الرئيس؛ أنما لتجنيب ذواتهم التورط الذي قد يجرهم لمعمعة السين جيم

التي لا تنتهي منغصاتها. لذا من وجهة نظري كان من المفروض أن يحاسب كاتب التقرير ويتهم بالكذب والتلفيق والتجني، لأن الكيدية واضحة في نيته وأسلوبه وضوح الشمس...

كان ينبغي على جهاز الأمن تبرئة حسن من التهم الموجهة، إذ لم يكن ليذهب طواعية لمواجهة ضابط التحقيق في قضية بهذا الحجم، لولا ثقته المطلقة ببراءته. إلا أن تصرفاته العبثية، كاستهزائه المفتعل واستقالته غير المبررة من الحزب وانتمائه لجهة أخرى، سلطت عليه الأضواء وجعلته في موضع الشبهة، خصوصًا إذا كان تقرير الحزب تضمن توصية بالمحاسبة. لقد أوقع نفسه وأسرته في دوامة الحيرة، وجرّ الجميع إلى هذه المعمعة معه.

ما يؤلمني حقًا هو حالة التذمر والانكسار التي نخرت بنيان عائلته، حتى دفعت ببعض أهل الخير من معارفهم إلى التصدق عليهم لتجاوز أزمتهم. حين علمت بسوء أوضاع العائلة ماديا بعد أن زحف الحصار عليهم كباقي الناس، فكرت في مد يد العون إليهم، حيث تأججت نيران العاطفة بجوارحي وباتت تلسع ضميري كونه كان زميلا لي في المدرسة، وددتُ أن أخفف من لجاجة الحصار عن أسرة حسن وهم يمرون في شدة بعد توقف مرتبه حتى ينتهي التحقيق. نبع ذلك الإحساس من الحالة الإنسانية التي فاضت في داخلي، حاولت جاهدا أن أرفع الغم والهم عن كاهل الاسرة التي تفاقمت الأوجاع عليها على حين غفلة. لكن

محاولاتي باءت بالفشل، فالكبرياء الذي اتصفوا به وعزة النفس التي لازمتهم غلبت إرادتي، تجاوزت حالة الضعف والهوان الذي أطبق عليها، لم يتقبلوا أية معونة تقدم من قبلي كوني محاط بدائرة الشك والتهمة التي تورط بها حسن...

وأنا في سهدي كنت أهجس برجال الأمن تراقب حركاتي، تتلصص الأماكن التي أتواجد بها، تراقب حركة الدود والحشرات وهيَّ تقف على سقف الحدث، تتعقب الهواجس والأنفاس التي تتأفف بسبب الحدث، تترصد خطواتي وخطوات أصحابي، لا أدري إن كان ذاك الهاجس الذي كان يخالني حقيقة أم مجرد وجس وتحسس خاطئ؟

هكذا كنت أشعر بخيوط العقدة تدور حولي، ولن تقف على حدود التهمة، لأن الذي يسكت عن الخطأ في نظر القانون فهو شيطان أخرس يجب أن يحاسب حساب المتهم، وأنا كنت قد سكت على تجاوزات حسن من وجهة نظرهم، أو بمعنى أخف لم أعر لها أي اهتمام لحجم التهمة. لذا فأنا من الوجهة القانونية متهم، لأني لم أحافظ على قدسية الرئيس. وقد تزحف التهمة على آخرين من الذين التقيهم في مشاويري، وقد ينظر إلينا كعصابة متآمرة خطرة أو كجهة معارضة لسياسة الدولة... الخ من تهمٍ من السهل الصاقها بمن يريدون التخلص منه. قد تكال إلينا وتقيد خطواتنا بأدوار الخيانة دون أن ندري...

بقيَّ حسن جليس سنتين وشهرين في زنازين الظلم تحت وطأة تهمة كيدية، عانى فيها مرارة الجوع وقسوة البطش وخذلان

القريب، وتعرض للسب والذم والقذف والمهانة والذل، لا يحتمل الوقوف أمام عصف تلك الريح الصفراء جبلا إلا وتلاش قدره. ومع ذلك، ظل صامدًا، يواجه الزمن بشجاعة وصبر وإصرار نادر، مستندًا إلى يقينه ببراءته، وإيمانه العميق بعدل الله

لقد نال ما نال من قسط العذاب وسخط السوط ما يكفي لتحويل جسده إلى هيكل من رماد، لولا أن تفاعلت ذرات الرحمة في صدره وصدر القاضي، الذي شمَّ رائحة الفتنة عن بعد، فعرف الزيف وبات يتحرّى عن العدل.

تمسّك حسن بالصبر المُرّ، وتطلّع إلى الغد بروحٍ تتسلّل من شقوق الليل المعتم، حيث ومضت له بارقة أمل خاطفة في حندس الظلمة، نفضت عن قلبه غبار الهزيمة. تشبّث بالعروة الوثقى كما يتشبّث البصير بعصاه، حين صقل فكره بالحكمة، وتدرّع بالورع والأناة، في وجه وساوس الفتنة التي أطبقت عليه ككماشة من نار.... لكنه أبى الانكسار، وشقّ درب صبره، متشبثًا بحقه كما يتشبث الغريق بقبس نجاة. ظلّ جالسًا، منتصبًا في وجه العواصف كنخلة باسقة في فلاة، تواجه الريح بعناد، رغم أن داخله كان ركامًا من الانكسار، هشًّا، أجوف كقصبة تتمايل مع الألم كتمايل السكران في لجّ الليل.

ومع ذلك، لم ينفكّ يسترق القوة من ضعف ذاته، من حلمٍ يواسي وحدته، ومن إيمانٍ يعيد تشكيله مع كل انكسار. تغذّى من رحمةٍ تسكن خلده، ومن عجزٍ صار له وقودًا، ومن يأسٍ

رقّ قلبه حتى صار رحيمًا، فولّد منه همةً تخلّقت في أعماقه، التمسها نورًا خافتًا تحدّى به عتمة روحه.

عندما عصفت به الحياة وأسقطته أرضًا، لم يجد يدًا تمتد نحوه، ولا صوتًا يطمئنه. كان الخذلان محيطًا به، العجز يتسلل إلى أطرافه كالبرد القارس. لكنه، في تلك اللحظة بالذات، الهمته الفطنة فالتفت إلى الداخل. فتش في روحه عن المعين، فوجد قوة كامنة في الظاهر ولكنها مليئة بالإيمان والتقوى، قوة لا تنضب من العزم واليقين، فتمسك بالحبل المتين... لم ينتظر يدًا ترفق به، بل استند إلى جدار التقوى، وأدرك أن خلاصه كان يسكنه منذ البداية.... تذكر :عندما يصيبك الخذلان؛ لا تتوقف عند محطاته، أمضِ قُدمًا في سعيك، هكذا تجد الحياة.

مع مسحة التفاؤل؛ كانت في كل دقيقة من تلك الفترة تسقط ورقة صفراء من شجرة صبره، توحي له بقرب الأجل عاجلا كان أم آجلا؛ حتى تراكمت تلك الأوراق تحت قدميه لترسم له مساحة خريف العمر بألوان الذبول: الأصفر، والأحمر، والرمادي المنكفئ على ذاته. أنها النهاية الطبيعية لكل حي. ذلك ما أوحى له بضعف الصبر اوحى وتقلبات الألوان في النتيجة الحتمية للحدث مع تبدل طباع البشر. كان قد تخيل الواقع قبل قدومه لدائرة الأمن وبعد قدومه.

صار يقرأ في تغيّر ألوانها انقلاب الطباع والأفكار بين لحظة وأخرى، هجس بتقلب النفس؛ فصفرة خوفه تماهت مع رماد الرعب الساكن في صدره، ومع خضرة أحلامه التي بدأت

تتلاشى تحت غسق العتمة... حتى باتت أيامه مسودة، صفحة مثقلة بعجزٍ يرفض أن يُمحى. باتت كل فكرة نجاة تومض في رأسه تَحترق مع شهقة عجزه، وكل أملٍ صغير يُطارد خيبته، ينطفئ قبل أن يبلغ سعيه.

تلك التقلبات أوصلته إلى حالته ميؤوسة منها تماما، معدمة، معدة لتستقبل لفحة الشوط الأخير من لعبة الاختفاء، ليحترق بشرارة الحقد، ليرتفع شواظ النار ودخانه في الأفق، حتى يسدل الستار عن قضيته وتطوى جلجلة الرجاء كطي السجل للكتب.

كل لحظات حياته في السجن كانت تشعره بنهاية قريبة، حزينة، تشعره ببرودة أنفاسه وهو متعلق بلحظاته الأخيرة من العمر دون رغبة، مستسلما للقدر، للحقيقة المرة التي ترسم على وجهه علامات خط النهاية، يهجس بالثعابين تحاصره، تقترب منه، كلما فكر جديا بنجاته، هكذا بات اليأس يشن هجماته ويقترب من حدوده...

لقد سُلب القدرة على التأمل، كل ما تاق إليه هو لحظات عابرة يلتقي فيها عائلته قبل أن تُسدل الستارة على قضيته إلى الأبد. بلغ منه اليأس مبلغًا أقعده عن التبصر، عن إيصال صوته إلى من يحبهم... أما هم، فلا يعرفون شيئًا عن مكانه أو عن مصيره، لقد صاروا جميعا أسرى في ذات القضية، تائهين في وادٍ سحيق من العذاب، كقطيع خراف تائهة ضلت الطريق. جميعهم عانوا من وقع ذلك الصمت المدوش والحيرة المذلة والنزف المستمر.

فـي فتـرات العجـز تقرصـه آفـة الصـمت، تلـذع ذهنـه، فيلتـع الجـو بالوحشـة والسـكون، فتسـقط أفكـاره مـن رفوفهـا لوهـدة الحيـرة كالأطبـاق المتكسـرة، فتجرفـه موجـات الصـخب المضـطربة لحـدود الاستسـلام، تجـرده مـن أي تأمـل بـراق يخطـف فكـره، يـراق لـه، فتسـقط أحلامـه فـي دماسـة العـذاب كشـهب لا تـدرك غايتها، فتغور في العتمة دون أن يستل منها فرصة نجاة قط..

تلـك الحالـة التـي باتـت تتكـرر عليـه بـين الأحـايين، كانـت تتخللهـا ومضـات رحمـة تجـدد عزمـه ويقينـه وصـبره بالغـد، مـن خلالهـا بـات يستشـعر ذاتـه مسـيرة مـن قـوة خفيـة تقـوده لـدار القـرار، تلهـم إحساسـه بأنـه عـالق فـي وحـل سـمج لـزق، معلـق بخـيط واه مـن الرأفـة، متعلـق فـي ظـل تجاذبـات متداخلـة بتلـك الحالـة مـن العنـد والرجـاء والحنـق، متشـبث بحلقـة الحيـاة تشـبث الطيـر اللاهـث بالهواء وهو فوق البحر.

ذلـك الإحسـاس الـذي يجتاحـه كـان يرهقـه، يتولـد مـن اليـأس المسـيطر عليـه، مـن غصـة الـنفس، مـن القسـر الـذي يهـدده بالطوفـان مـن خيانـة الزمالـة. أنـه يعلـم تمامـا بـأن صـبغة الحقـد لونـت قـدره، البسـته أسـمال باليـة مـن ذلـك التجنـي، جزلـت أحلامـه بقدحـة زنـاد. غـدى لهمـس المـوت طنـين يشـرخ صـوان أذنيـه بالتأنيـب والتـذمر، أنـه يعـيش بـين قوسـي اليـأس، كقطعـة ثلج يدركُ نهايته الوشيكة.

العـذاب السـليط والوحشـة المرعبـة غزلـت لـه ذلـك الصـمت المريـع المحـيط بـه؛ ليتحـول ظلـه لعقربـة تغـز فكـره بـين الحـين والحـين، تـذكره بمصـيره الأسـود. ذلـك الصـمت مـع اسـتمرار

العناء يتحول لعجز لن يتجاوز حده، يحيل السياط المهينة التي تعود على رؤيتها لسيوف تنتظر رقبته، لنار تذيب ضعفه وهوانه، لن يستطيع تجاوز تلك التحديات بإيمانه وبراءته والأمل الذي يملأ قلبه. لقد تعود على التجاذبات الصاخبة في داخله، لعجزه في مقارعة الواقع الذي يعيشه، دائما ما كان يلجأ إلى الله في هوانه، فلم ييأس من قنوط رحمته قط، بقيَّ متعلقا بثنايا الأمل..

خلال تواتر الأيام وسكون الحالة؛ ضاقت عليه أنفاسه، تراكمت حسابات الزمن دون حل، عفن الجسد، تشبع حزنا وشجنا، اكتسبت ملابسه عفونة جسده نتيجة رطوبة زنزانته الكئيبة، الانفرادية؛ حتى شعر بعظام جسده باتت تلين، لفقدانه مادة الكالسيوم وفيتامين D لعدم تعرضه للشمس، لقد تعود على جلسة القرفصاء الطويلة حتى أنحت رقبته وانحنى ظهره وتراخت مفاصل الجسد، نازعه الزمن على التحمل وإبداء المقاومة ومحاولة المحافظة على حسن قده.

السكون والقلق والوحدة الملعونة ومرفقات الحدث... كلها طعنات صامتة نخرت روحه، بدّلت ملامحه ونسفت مفاهيمه. لم يبق من حسن ما قبل الاعتقال سوى هيكل من لحم وذاكرة، أمّا الجوهر فقد تبدّل؛ الأفكار انقلبت، الأحلام اصفرت، الأهواء ذبلت. الجدران ابتلعت ابتسامته، الحزن تجهم في وجهه كوشم دائم. شعْرُه تلون بالبياض، وكأن الزمن نفضه فاسقط كل شيء جميل عالق به. الكوابيس صارت ترفقه. صار يكلم نفسه لينسى مأساته، يشطّ خياله علّه يروّض خواء

صبره. كأنه علّق حظه بخيط براءته، ومضى يدور في حلقة تحليلات مريرة تُغذّي قلقه، ذلك القلق الذي أنكأ جسده ببثور الخوف ورعشة العزلة. اليوم بالنسبة إليه لم يعد يمرّ كسواه، بل يتمدد في ذهنه كدهرٍ يُؤرق وعيه ويقضم رجاءه.

الكوابيس أضحت تغزوه بكثرة، تراوده باستمرار، تهرش ذهنه، تدخل الرعشة في مفاصل حياته، بات يفز مع كل طرقة يطرقُ بها باب زنزانته. فالقدر يلاحقه في ظنه وأحلامه وفي الحقيقة، يسرق منه وسنه وراحته، يشعره بالضيق والقلق والخطر المحيط به. كل لحظة يتوقع أن ينفذ به القصاص.

حالة الحزن والكآبة ما عادت تنتهي مراحلها، ما أن ينتهي من فكرة حتى يسقط في هوة ذهنه فكرة أخرى تلطخ ملامح وجه بالهم والغم، تهجس بها أفكار شياطين تريد أن تنهي جدل لعبته. هكذا بقيَّ في قوقعة القدر يتأرجح بين ظن الأمل ويقين المصير، ساهدا طوال الوقت، متأملا غفوة تشذب ذاته، تنسيه قدره دون أن تأتي تلك الغفوة إلا كغيوم الصيف لا رعد فيها ولا مطر.

متى ما فكر بالهرب من واقعه، تمسكت به ذاكرته، تعيده لزنزانته، تذكره بالأحداث والمصير الذي ينتظره، فيعود لبساطه يستدرج خواطره دون أن يمسك بتلابيب نجاته.. فهو لم ينسى لحظة دخوله دائرة الأمن قط، لحظة انقضاض رجال الأمن عليه كالدبابير، تلك الهمجية ما عادت تختفي صورها عن ذهنه، بدأت تراوده باستمرار، تدور في فلك فكره كالرحى وهيَّ تسحن ذاكرته. ما تزال وحشيتهم تلتف حول

رأسه كأفعى لا تنام. أما زنزانته الجديدة، فصورة أخرى من سجنه السابق: جدران صمّاء، قطرات ماء تطرق جمجمته بصخب رتيب، وجهاز إنذار لا يهدأ صخبه، ينوح طوال الليل. في كل زاوية وسيلة جديدة لتعذيب روحه وجسده، مزيج من القسوة والاستفزاز، لا يترك له فسحة لالتقاط أنفاسه..

كثيرا ما يشتط فكره ويتذكر عائلته، كثيرا ما يتأمل ضحكة زوجته وكركرة أطفاله بعيدا عن الإسفاف الملحق به كذئب يتربصه.. ذكريات العائلية تزيده هما، تثقل كاهله كأكوام الحطب المعدة لصهر جسده، ومع ذلك ظل يحلم بقدحة رحمة تفسح لرؤياهم، بشذى البراءة تعيده إليهم، على الرغم من أن كل تلك التأملات يراها تخفق في سماء سعيه كنجوم ساهدة خلف الغيوم التهمة.

من أين يأتي بالمستحيل لفك عقدة ظنه؟ الأبواب كلها مؤصدة، والنية راكدة في الدرك، الروح ملظة، مقيدة بالتهمة والأكاذيب والأحقاد الضغينة التي ركبته..

خلال تلك الفترة ألتمس بعض اللحظات الشاردة، لحظات مرت به بمثابة زخات صيف بللت قدميه، اقتنصت ذاكرته، أستلذ بها، تأملها كنقط تحول جديدة. حينها كان يعيش في تيه من أمره، كان يعد نفسه للحظة القصاص، حينها أنشغل بالتهويلات والتهيئات التي شغلته وبالوعكات المصاحبة، فدرب ثناياه على التمعن والصمت وتحمل الموقف قدر الإمكان.

بين لحظة ولحظة كانت خواطره تنبئه بلحظة النهاية، دون أن يدرك بأن نهاية المطاف لها طرق متشعبة، فيها حلول مختلفة قد لا تنتهي بذات المصير المشؤوم وبما يجول في فكره من قدر. كأنَّ للسياط التي انهالت عليه، لها دور في بلورة فكرة النهاية لديه، لأنها توحي يقينا بثبات التهمة عليه، فبذلك سعى خلفها ملبيا نداء خواطره المضطربة دون جدل.

كان قد هيأ نفسه لتلقي الجلد وتجرّع أقسى العواقب، تمامًا كما كان الجلاد السادي يتهيأ لممارسة طقوسه ببرود لا يكترث. وأحيانًا، كان يشعر أنه يستعد للجلد من يد جلادٍ مسكين، منفيٍ في غياهب النسيان، لا ذنب له سوى تنفيذ الأوامر. فلم يكن مطلوبًا من الجلاد سوى أن يُحسن أداء مهمته كي يُرضي أسياده. هكذا كانت تسير الأمور، خارجة عن إرادة الجميع، وكأن الجلاد لم يكن سوى أداة ترجمة لظلمٍ دفينٍ يعتمل في فكر الحاكم، يتحوّل عبره القهر إلى أثرٍ محفور على أجساد المظلومين، دون أن تكون له رغبة حقيقية فيما يفعل.

زمن أجرد أدمغ فكره بالهلوسة، تركه مغشيا بين المطرقة والسندان لا يفقه لغة الجلاد ولا الجلاد يفقه لغته. بقيَّ وحيدا برفقة الظن والانا المجروحة، لم يعد يدرك كم من الزمن قد مضى على هوانه وهو نائم في قبوه المظلم.

4- تحديد جلسة المحاكمة

مـرّ حسـن بمرحلـة طويلـة مـن التشـنج والانكمـاش بعـد سـنتين مـن المعانـاة، حتـى غابـت عنـه متعـة زقزقـة العصـافير التـي اعتـادت أن تُوقظـه كـل صـباح، حـين كانـت تتقـافز بـين أغصـان شـجرة التـوت الوحيـدة فـي باحـة البيـت.. لـم يعـد يهنـأ بـدفء الشمس وهـو قـابع فـي زنزانتـه تلـك التـي كانـت تُدفق فـي عروقـه طاقـة هادئـة تبعـد عنـه خمـول الجسـد وكسـل الأيـام. لـم يـذق فطـورًا يُرضـي الـنفس دون أن يطالـه وخـز التأنيـب، بينمـا ترتسـم في عين سجّانيه نظرات قاسية تفضح ذلك الجحود الصامت.

لـم يعـد يُطربـه صـوت الشـحرور، ولا شـدوه الشـجيّ، وتناسـى أغنيـات فيـروز التـي كانـت تبهجـه مـع كـل فجـر، وهـي تنبعـث مـن إذاعـة بغـداد مـع أوّل خيـوط النهـار. كـانَّ ذلـك الصـوت الملائكـي ينسـاب مـن مـع هـديل الطيـور مـن أبـواب البهجـة، حـين تمتـزج الشـمس بالعمـل، والحـب بالحيـاة، والأمـل بالغـد. لكـن شـيئًا مـا قـد انكسر... ولم يعد كما كان.

كثـرت المطبـات والمعانـاة فـي دروبـه، بـات لا يغفـى قبـل أن يأخـذ جولـة فـي فقـرات معاناتـه، وقـد تطـول بـه الجولـة فيصـاب بـالأرق حتـى سـاعات الفجـر، هكـذا كـان يختـزل الهمـوم المتراكمة في ذهنه، والمكبوتة على صدره بالآه والحسرات...

أمـا الكـوابيس المتجـددة فحـدث ولا حـرج، أصـبحت رفيقـة سـره، دائمـة الزيـارة لخـواطره، بحيـث أضـحت تتـدفق مـن المحـيط بـنهم، تنبـع مـن أجـواء السـخط، تخـرج مـن فـج الحيطـان لـ تـرغ

فـي ظنـه كمـا هـي النـواميس والبراغيـث الهائجـة فـي مسـتنقعات الشـك. تصـيخ أذنيـه لتـدب الرعـب بأوصـاله، تفسـر لـه تـأويلات الغـد وحجـم الخيبـة المشـاعة فـي فكـره المهفهـف، تبـين لـه النتـائج قبـل وقوعهـا، تحصـره فـي زاويـة الاستسـلام والمقـت، بحيـث لـن يسـتطع أن ينجـد نفسـه إلا والقيـد مبـرم فـي معصـميه. لينكـب على وجهه ذليلا، شاكيا لله عجزه وهوانه وقلة حيلته.

تتابعـت الأيـام تفتـك ببعضـها، وهـو علـى حالـه لا يسـتطيع أن يُفـك كربـه ولا يلـوح فـي الأفـق رجـاء. وضـعه غـامض، متـأزم، عـالق فـي قبضـة المعانـاة، متشـبث بخـيط رفيـع مـن الحيـاة، القهـر يجلـده والصـبر يغـزه بالسـخط، وقـد فُـرض عليـه سـجنٌ لا يمـتّ للإنسـانية بصـلة، يحمـل مـن القسـر والإذلال مـا يخنـق حتـى بصيص الأمل.

ظـل يتـأرجح بـين هوانـه وعذابـه، حراسـه مـدججون بالسـلاح، مغسـولي الأدمغـة بمحلـول الحـزب ومبادئـه، لا يعرفـوا للرحمـة شـكل أو معنـى، بـل أنهـم يتصـرفون وفـق مـنهج معـد لهـم كروبوتـات آليـة بمـا يمليـه علـيهم أسـيادهم مـن أوامـر الـدوائر الأمنيـة. عملهـم محـدد بتقـديم فرائسـهم للعدالـة كأضـحية العيـد، كقـرابين تطيـل عمـر الـرئيس، علـى الـرغم مـن أن الـرئيس وحسـب اعتقـادي الشخصـي لا يعلـم بكـل مـا يحـاك مـن جـرم باسـمه، ولكـن لله عيـون تـرى وتقـدر (ويمكـرون ويمكـر الله والله خير الماكرين).

وإذا مـا حصـل لـه مكـروه؛ ستمضـي تلـك العقـدة معـي إلـى الأبـد كغـراء ملتصـق باسـمي، كـوني شـاهدا فـي القضـية. حتمـا سـألام

مـن قبـل الـداني والقاصـي، وبالـذات مـن قبـل معـارفي وذويـه، رغـم أنـي متـورط بصـلب القضـية مثلمـا تـورط بهـا هـو ودائـرة الأمن والقاضي، ولكن كلٍ باختلاف دوره.

لا منـاص مـن أن يطـالني شـرر مـا يصـيبه، فقـد تورّطنـا جميعًـا، بـلا ذنـب ولا اختيـار، وصـرنا نـدور فـي فلـك الاتهـام الـذي التـفّ حـول عنقـه كطـوق خـانق. لا أحـد يشـعر بوجعنـا، فالنـاس أسـرى النتـائج، لا يغوصـون فـي أعمـاق الحقيقـة، بـل يكتفـون بالقشـور المتداولـة والكـلام الممضـوغ علـى ألسـنة العامـة، يحنقـون علـى شخصـيات المسـرحية دون تحديـد الفـوارق. فـي النهايـة، لـن يـرأف بنـا أحـد ولـن يُنصِـفنا بكلمـة، لـن نجـد مـن ينتصـر لنـا أو يمنحنـا حـق الـدفاع عـن أنفسـنا. وإذا مـا انفجـرت تلـك البالونـة التـي تـزن الهمـوم، فلـن تكتفـي بتـدميرنا فقـط، بـل سـتطيح بمـا تبقـى مـن اسـتقرار مـن حولنـا، تمامًـا مثلمـا سـتدمّر حيـاة حسـن وأسرته.

*****

بعـد انقضـاء السـنة الدراسـية الثانيـة، عـدت مـن جديـد إلـى الـوطن لأقضـي إجـازة الصـيف بـين الأهـل، وصـلت مدينـة جلـولاء فـي يـوم الخمـيس الأخيـر مـن شـهر حزيـران مـن عـام 1994 م، بانتهائهـا كانـت قـد مضـت سـنتين مـن القلـق والـروتين والصـراع النفسـي علـى مكـوث حسـن فـي سـجنه. ذلـك القلـق كـان قـد شـمل السلسـلة كلهـا التـي وضـعنا غـراب البـين بـين كماشـة تقريـره تحـت المجهـر، مثلمـا وضـع نفسـه فـي الخانـة المقابلـة لتميـزه بسواد القدر..

كان قلق داود يتغذى على احتمال براءة حسن ونجاته من التهمة، إذ كيف سيواجه الحزب والمجتمع بعدما ضلّلهم؟ وكيف سيحتمل نظرات الحنق بعين حسن وأهله؟ كان يتمنى لو يُمحى حسن من الوجود، فيُدفن سره معه، ويصعد هو درجات السلم الحزبي والوظيفي بلا عوائق ولا تهديد. لكن القلق لم يغادر ذهنه لحظة واحدة؛ طيف حسن ظل يحوم حوله، مثلما يحوم حولنا، يعكر صفو حياته كما يفعل معنا، ويزرع في قلبه كراهية لكل من يمت له بصلة، حتى وجهه المصفر صار يستفزني.

كنت قد عدت من اليمن مرهق التفكير بسبب غموض مصير حسن، مهموما، مذموما، وكأني أنا من أودى به وجعلته ينال العقاب والعذاب النفسي والظلم الجائر، المشكلة والعياذ بالله دخلت في نفق العقد، لا أمل من فك قيده، لا حلول تزيح غطاء الإيهام عنه وعن أسرته. ذاك ما كان يقلقني ويزيدني إحباطا مثل كل مقربيه واصدقائه، الكل عجز عن فك لغز أحجيته، وكأنَّ التهمة التصقت به كشعر رأسه.

لا ضوء بارز، لا سراج في الأفق، بقيت الأزمة تستعر في كوتها بالنفايات التي ركمها غراب البين فيها، بحيث لا نرى منها سوى خيط دخان في عيون المراقبين والمتابعين لحيثيات القضية.

تلك الحالة المستديمة جعلت أصدقاء حسن ينظرون إليَّ نظرة دونية، كل يفسر الحدث من وجهة نظره، بين مشكك وجازم، وبين بغيض قانت ولئيم مخل، الكل كال التهم جزافا ومن

وجهة نظر شخصية، بحيث حلل الحدث من زاويته... فيما سبق كنت قد وضحت ملابسات القضية للأستاذ تحسين، وقد تفهم موقفي جيدا وكان على قناعة تامة من أن داود وراء ظلم حسن في حياكة خيوط العقدة...

عدتُ من اليمن إلى مدينة جلولاء في أواخر حزيران، دون أن ألتقي أحدًا من معارفي خلال اليومين الأولين من وصولي. وما حيّرني؛ كيف علمت الأجهزة الأمنية بموعد دخولي إلى العراق ومكان إقامتي، رغم أنني لم أغادر المنزل إطلاقًا، ولم أتواصل مع أحد، لا بالزيارة ولا بالاتصال، ولم يتواصل معي أي من الأصدقاء كذلك.

بعد يوم من وصولي؛ طرقَ باب الدار شرطي الأمن عبدالباقي سعيد(الله يرحمه)، جاء يخبرني بضرورة حضوري جلسة محاكمة حسن يوم الأحد في تمام التاسعة صباحا في مديرية الأمن العامة في بغداد. حيث قال:..

- يوم الأحد في تمام الساعة التاسعة صباحا عليك التواجد بمديرية الأمن العامة في بغداد لحضور جلسة محاكمة حسن، لا تتأخر.....

بتبليغه لي كأنه فتح صنبور القضية من جديد، صرت أتصفح الأحداث نقطة بنقطة، متذكرا تفاصيلها الصغيرة والكبيرة وما جرى بيني وبين الاستاذ عثمان، متذكرا الوقائع بحذافيرها من لحظة ركوبنا العجلة ولغاية لقائي الأخير بداود قبل سنة من الآن. وقد عزمت على أن أذكر التفاصيل بحذافيرها أمام

القاضي، وددت أن أزج داود بالتهمة لما نغص علينا حياتنا وكركب أمورنا وقلب حياتنا خلال تلك الفترة، وددت أن أشرح له حنق غراب البين على حسن.....

لن أنسى طنين الكلمات أبدا" دعنا نتخلص منه أنه كلب من كلاب جلال الطالباني"..

لتتضح للقاضي الصورة الباهتة التي جسدها داود ورجال الأمن بالتهمة الكيدية الواضحة للعيان. كنت عازما أن أنهي مأساته كليا، ففي تلك الليلة حفظت كل ما يجب أن أشهد به أمام القاضي لفك ملابسات القضية، حفظت البؤس الداجن في وجه داود والسم المغروز بكلماته والحنق الدائر في نظرات عينيه..

ومن جانب الآخر، شعرتُ بالطمأنينة حين علمتُ أنه ما زال على قيد الحياة، يملؤه الأمل بأن يُفك أسره ويبرأ من التهمة الظالمة. أما شائعة وفاته، فلم تكن سوى فبركة من المنافقين وخرافة من خرافات الحاقدين الذين وجدوا في محنته موضع شماتة، خاصة بعدما طالت أيام سجنه.

مرت تلك الليلة ككابوس على صدري، كل فكرة تسحبني إلى أخرى أعمق، أشد وطأة، أكثر إحكامًا في التعبير، وأقسى وقعًا في داخلي، كأن العقل بات يعقد جلساته الخاصة لترميم وترتيب ما سأقوله، قبل مثولي أمام من بيده القرار. تساءلت مرارًا: هل ستكفي جرأتي لصنع المعجزة وسط جدران المحكمة الباردة؟ هناك، حيث الكلمات ليست حروفًا فقط، بل

مفاتيح نجاة أو أبواب هلاك. عليَّ أن أختار عباراتي كما يفعل المحامون حين يصوغون مصائر الناس، أن أغزل حججي بنبرة تجمع بين التأثير والإقناع، دون أن يرتجف صوتي أو تخونني العبارات. إن هدفي واضح: أن أفك حبل المشنقة عن رقبته، أن أروي القصة كما يجب أن تُروى، دون تلكؤ أو زلل، دون أن يشوب صوتي ضعف أو تردد. عليَّ أن أكون شجاعًا بما يكفي لأقدم البأس... وأجعل السم في كأس داود لا على لساني.

ذلك المكان يحمل مهابة تثير القشعريرة، فهو في أعين الدولة وحزب البعث والقانون مزارٌ مقدّس، لا يُمسّ، وتهابه العامة كما تهابه السلطة. لكنه في نظر العدالة الغائبة والشعب المقهور، أحطّ الأماكن وأخسها وأشدّها قسوة. هناك، لا صوت يعلو فوق صوت حماية السلطة، ولا عمل يُقدّم إلا لترميم جدرانها من التآكل. من يعملون هناك لا يغفرون الزلل، ولا يعذرون اللسان إن أخطأ النطق، خاصة إذا خرج المعني على نهج الحكم، حتى لو انطلقت النوايا بإخلاصها للوطن.

لذا الناس ترتعب من أسمه (مديرية الأمن العامة في العراق)، أسم تهتز له الأبدان والمشاعر، أنها حقيبة تُهَمْ جاهزة، اسم لوحده يكفي لزرع الرهبة في الصدور. إنها ليست مؤسسة فحسب، بل مختبر وجل جاهز للتُّهم، ومرجل سخط يغلي بالرعب الخام، تتشكّل داخله تفاصيل التنكيل التي تليق بمن دخل بحثًا عن الحياة، ليجد نفسه على عتبة الموت

النفسي. إنها الحد الفاصل بين عقوبتين، لا رجاء بعدهما. من خرج منها يخرج بنصف عمر، ومن اقترب من أسوارها ذاق حرارة الجمر، فكيف بمن غاص في دهاليزها وسبر أغوارها؟ إنه لا يعود كما كان... إن عاد.

تعتبر دائرة الأمن السور الآمن والجدار الصلب الذي يحتمي به الرئيس وأعوانه من الريح العاصفة، والسف الذي يقصي به على رقاب أعدائه، بها يقاضيهم ويفشي مخططاتهم. أنها بؤرة النار ومحرقة المنكوبين من أبناء الشعب والخارجين عن القانون والمسيئين للحزب ولشخص السيد الرئيس..

مرت ليلة عصيبة عليَّ، عانيت خلالها الكثير من التجاذبات، ولا اذكر بأني سهوت لحظة واحدة، كنت منكوسا على نفسي، منعزلا عن الأهل تماما، أصارع جيوش الفكر المضطرب بعنفوان وقلق، ذلك الفكر الذي سرق الوسن من الحدق، حتى شطت خيوط الفجر في درجات الأفق.. عندها استفقت على جلد من الرهبة، أقرأ الأدعية وبعض الآيات مما أحفظ عسى أن تزيدني ثباتا وقوة في مواجهة المد الهيولي المؤازر لذلك الرعب، والذي بات يزعزع أعمدة اليقين ويفض في الجوارح خزائن القلق. صرت أرتب تفاصيل الأحداث في الذهن من الألف إلى الياء على حسب الأهمية والحدث، برحت أجلد الذات بالذات وأنتقي التعابير المبجلة السحرية مما كنت قد دونت في وقت المساء، ومما اعتقدت بأنها ستلين فكر القاضي وتقنعه بالبراءة..

في تلك الحقبة، بلغ الحصار ذروته، فارتفع جدار المعاناة فوق طاقة الوطن والمواطن معًا. اجتاحت الأزمات أزقة العراق وشلت مفاصل الدولة، حتى غدا القرف هو السائد، والتدهور شاملاً الآفاق. تفجرت سلسلة من الأزمات المتوالدة: أزمة البترول ولّدت أزمة النقل، والغلاء أنجب عجزًا في الشراء، فغرق البلد في دوامة من الشلل الاقتصادي والاجتماعي. شملت الأزمات كل ركيزة من ركائز الحياة: من المواد الغذائية والإنشائية إلى الصحة النفسية ومواصلات بعد أن شح البترول، والأخطر من كل ذلك تولدت أزمة العلاقات الاجتماعية والإنسانية والأسرية، بل انحدرت القيم، وتآكلت الثقة، وانهارت السلوكيات بعد أن طغت أزمة الثقة بين البشر. ومع استفحال الفقر، صار المواطن يتنقل بين الأزمات زحفًا على البطن، تكبّله العُقد، وتحرقه براكين الغضب المتفجرة في العقول والقلوب، حتى وصلت بنا الحالة لنعاني من أزمة ماء الشرب والهواء النقي.

نتيجة لسوء الظرف تأثرت الحياة برياح الأزمات التي افتعلتها الحروب والتي فرضتها أمريكا بفرض الحصار على العراق، بحيث أنحنى سعر الدينار أمام قيمة الدولار الأمريكي انحناءة مذلة، بعد أن كان الدينار يعادل دولارا قبل حرب الكويت؛ صار سعر الدولار يعادل ثلاثة آلاف دينار عراقي عام 1994. واو.. وألف واو.. أنه انحدارٍ شاقولي مذل، كانحدار جبل صخري نحو الهاوية...

مـن الطبيعـي أن يصـاحب هـذا الانحـدار الاقتصـادي طوفـان مـن الأزمـات التـي أنهكـت جسـد الدولـة وقوّضـت مفاصـلها. وحـين يـدير الوجـود وجهـه علنّـا، لا يلـوّح فقـط بانهيـار اقتصـادي أو فوضـى اجتماعيـة، بـل فـتح أبوابًـا لأزمـات غـص بهـا المجتمـع نتيجـة ضـعف الأسـاس الـذي يقـف عليـه الفـرد. الأزمـات التـي اجتاحـت الـوطن تولـدت مـن رحـم الحصـار. فلـم تكـن مجـرد أرقـام فـي تقـارير رسـمية، بـل كانـت اختبـارات قاسـية لـروح الإنسـان فـي متاهـات المعنـى. تحلّلـت بنيـة الدولـة كتحلـل الجسـد حـين تغيـب عنـه العنايـة، تراكمـت الأزمـات كعشـبٍ بـريّ ينتشـر دون ضـوابط، كظـلالٍ يختنـق بـه الغـروب، لا بحثـا عـن النـور، بل استسلاما لغموضٍ ليس له تفسير.

مـن رحـم الأزمـة الاقتصـادية، تولّـدت أزمـات نفسـية وثقافيـة وصـحية واجتماعيـة وبيئيـة وحتـى الـدين لـم يسـلم مـن امتـداد هـذا السُّـم الزاحـف. وكـأن الـوطن قـد باغتـه ظـرف مـتهكّم كشـف هشاشـة الصـبر، مـزّق نسـيج ثبـات الفـرد والأسـرة والمجتمـع. فالأزمـة ليسـت سـوى مـرآة عاكسـة أظهـرت شـروخا فـي فهمنـا لمقـاييس الحيـاة مـن عـدل وجمـال ومقـدس. لـذا فـي دوامـة الغـلاء، انجرفـت الـذات خلـف الواقـع المـادي المتـدهور، والـذي جعـل مـن السوق معبدًا، ومن الرغيف ملاذا، ومن الحاجة عبادة قسرية.

غـدا الـوطن كمـا لـو كـان بئـرًا تفـوح منـه رائحـة الأزمـات، أزكمـت النفـوس، وأوهنـت الضـمائر، وكسـرت الـرابط بـين البشـر. تفسّـخت العلاقـات لا لأن الحـب غـاب، بـل لأن الحاجـة تجاوزت الحد ودعست على المشاعر.

كنا بحاجة لمعلّم صوفي، ينهك جسده ليوقظ الوعي فينا، ليتركنا أمام أحد الخيارين: الفوضى... أو تجاوزها.

تبدلت وجوه الناس بألوان الأزمات، تشربت ملامحهم صبغة المصالح الشخصية. اختلط الأسود بالأحمر والأصفر في لوحة قاتمة من القهر والمعاناة. انبثقت من رحم الفاقة أحداث دامية: جرمٌ، قتلٌ، سرقةٌ، تهجيرٌ، طلاقٌ، فقرٌ، وهجرٌ... وكأن الإنسانية تخلّت عن ذاتها.

خلّف الحصار جرحًا غائرًا في الثقة، أصاب شريان المجتمع في عمقه، وشلّ مفاصل الحياة. حتى النقل بين المدن بات معضلة بعد أن شحّ البترول، حيث وجدتُ نفسي غارقًا في تلك المعضلة وأنا أشقّ طريقي إلى مديرية الأمن العامة في بغداد... الرحلة شهدت على الزمن البغيض، لم يكن فيه الوصول مجرد انتقال، بل اختبارًا للاحتمال والصبر.

تلك الأزمات على أشكالها أضحت سرطانا جلديا، نترك البقع في الوجوه، تأكل الأخضر وتقضم اليابس من العود، بحيث غدى الجميل قبيحا في نظر الناس، تلك التي باتت لا تنظر سوى لبطونها..

ومن الطبيعي أن يتأثر قطاع النقل بتلك الأزمة، حيث العجلات تحتاج إلى بترول وإلى عجلات تسير عليها وقطع غيار، وبما أن البنزين قل إنتاجه والعجلات توقف استيرادها، والمصنع عطل بالقصف، لذا صارت المركبات تقتصد في البنزين والعجلات إلا للضرورة مقابل تضاعف أجرة النقل.

شح البانزين، بذلك شُلّتْ المواصلات بين المدن، صار العبء ثقيلا على المسافر لقلة المركبات العاملة في قطاع النقل، كما ارتفعت أجور النقل عن الحد المعقول أمام ثبات رواتب قطاعات الدولة - لقد تجاوز سعر النقل بين المدن مرتب الموظف الشهري أضعافا مضاعفة، بعد أن دنى مرتب الموظف إلى حد الغير ملموس. حيث أصبح مرتب الموظف يعادل 3 دولارات في الشهر بعد أن كان قبل الحصار يعادل ما قيمته 300 دولار.

كل ذلك التغيير حصل خلال الثلاث سنوات الأولى من الحصار الذي دام لثلاثة عشرة سنة من سنين العجاف، فلم ينتهي الحصار ولم يحتل العراق إلا بعد أن أنهك الشعب تماما.

الفصل الخامس

1- شقاء الرحلة

جلستُ مع طلائع الفجر، حيث تتسلل خيوط الغبش بخفةٍ إلى الأفق، الأطياف تلامس الحدق، تهمس لي، تدهشني، تلاطفني... شعرت كأنني قطعة صلصال بين يدي الزمن، تُشكّلني لحظة بلحظة. كانت الحالة ضبابية، والهواجس تتقافز في رأسي بلا استئذان كعصافير خائفة. كيف أدير أمري وسط هذا التقلّب؟ كيف أهيّئ نفسي لرحلة قد تكون الأهم في مجرى حياتي، رحلة أواجه بها الظلم وأقاوم الانكسار؟ ملامحي غطّاها القلق، وجدت نفسي دون وعي متعلقة بظل قدر يقودني في دهاليز القضية. لا قرار واضح، بل انقياد لهوى الفكر حيثما مال.

لأطرد ما تبقى من ذباب الوسنٍ المترنّح على أجفاني، غسلتُ وجهي، توضّأت، وسجدت في ركعتَي الفجر، أدعو الله أن ييسّر لي أمري في رحلةٍ أجهل مداها، لكن قلبي معقود على نية الخير، بحثا عن النور في عتمة السواد.

مرت بي لحظات صمت مريعة، أهجس في داخلي تكمن صرخة محبوسة لم تجد منفذا لها، تجلجل واقعي، ما أن خفقت في ذهني؛ حتى سلتت الهدوء مني، أخلت عني السكينة. لحظات خرساء موحشة مرّت عليّ كلهبة نار، مجنة، جردتني عن محيطي، غدت تطرق منازل الأنا في الأعماق بطقطقة من الالتباس والغموض والحيرة، دون أن أستطيع أن أتجاوز أثرها، جعلتني منزوع الإرادة، لا أرى ما يراه غيري، تلاشت ملامح الواقع من فكري، شعرتُ بالفراغ يكتسحني،

عندها سرقت نفسي من سرحاني، ارتديت ثيابي وتوكّلت على الله، متجهًا نحو مرأب العجلات في محلة الوحدة.

في عتمة هذا المدار المتقلب، أرهقتني أمواج الرعب التي لا تهدأ، نفَرت ذاتي من قدرٍ لم أعد أتبينه. نقلتني لحالة نفسية مجنة، عبثية، أصابت جوارحي قبل أن أقحم ذاتي بالمواجهة، عبثت بمخيلتي، صببتُ جام غضبي على غراب البين اللعين.. طغتْ ثورة المشاعر، لا تهدأ ولا تكتمل قراءتها، اجتاحت كياني كإعصار فكرٍ بلا ميناء ترسي به، تركتني أرتعش في هُوةٍ بلا يقينٍ... لم أكن أدرك ما ستؤول إليه الأقدار، لست على يقين مما سيرام، خُيّل إليّ القرار شجرة تتلاعب بها ريحٌ سهجة، تساقطت منها الأوراق، بقيت عريانة في العراء تتأمل أن أعيد لها رونقها. هكذا بدت تتساقط أفكاري كتساقط الأوراق في الغابات. أهجس ذاتي منهكة نفسيا في الوقت الذي به يدب بها نشاط فيروزي لكسر ذلك الطوق الذي قيدنا.. وأنا أمضي في طريقي؛ أحسست بقلبي يُقذف إلى دهاليز الفوضى، حيث لا ثبات، ولا من يد تسنده. تجرّني الوحدة بين أضلاعها، تُلهب سعيي وتزيد الروح أوْجاعَا. كأنني رُميت في لعبة لا أفهم قواعدها، وأُجبرت على خوض تلك اللعبة. لا أعرف حقيقة سر العقدة، بينما مصيري يُنسَج في كفوف آخرين. أهجس بذاتي تمضي بخواء الظن، هزيلة، كفيفة، لا تمسك بصولج اليقين، ولا تقذف كرة الشك.

لحظات مجنونة سبغت المشاعر في نزعة من العناء النفسي، سوغت الذات لعبة بيد القدر، لم أجد قدرة في ذاتي على

المقاومة والصمود، قدرة تمنحني ثقة تامة لأنهي هذا الجدل، لأترفع بها أمام القاضي سعيا خلف الحلم المراد، وكل أملي أن يؤازرني البخت وأن أنهي مشوار العسر القادم بمقدرة واتقان وتفان بعون الله..

في حقيقة مخيلتي جعلت الظرف غريمي، عدوي. تركني في متاهة أفكاري، لم أجد للظرف وجه مقروء، بل ارتدى أقنعة الشك، صار غريمي كداوود، بل هو داوود بعينه، ركب شخصيته وأرتدى قناعه ثم صار غريمي، تواطأ مع القدر في حبكِ فصول الخديعة.

لم أعد أفرق بين المصادفة والمكيدة، فالعجز استحال إلى شجيرات أشواك تناثرت في طرقي دون أن أعي، أضحت له سهاما تربك سعيي في تحديد شهادتي وتسليك مشواري في إنهاء جدل القضية، صارت تربك حساباتي المعقدة. تجردني طاقتي وتنسيني مهمتي. أضحت روحي متأرجحة، متلكئة، تود أن تنهي المهمة بأسرع وقت لفك شناطة غراب البين عن رقبتي.

بما أن سعيي المراد هو سعيٌ خَيّرْ، يزكيني، يزيح عن صدري هوام الشك والهم والغم والقرف والحيرة التي جثمت عليَّ من يوم استدعيت للشهادة قبل سنتين، إذا لابد أن أمضي خلف السعي لأجلي الوجس عن الروح العاجزة، فلابد من وثاق أعتمد عليه ويقينٍ اتحزم به أمام القاضي ليأخذ بشهادتي، دعني أنسى المتاعب واتمسك بحبل الله والصبر والأمل..

ها هو الفجر ينهض صادحًا مع الطيور الجانحة بين أغصان الشجر، يبعث في الروح لحنًا من الأمل لغدٍ مشرق، زارعا في القلب بذور الثقة. غدت تنساب الراحة في كياني كما ينساب الندى على أوراق الصباح، رقراقه، حانيَّة، لا تطرق الباب، بل تتسلل بوداعة مدهشة إلى الروح. الفكرة التي كانت تؤلمني كشوكة في البدء؛ أينعت، سلست، نضجت كثمرة طيبة، تشهد على صبرٍ لم يَضعْ، وعلى تيهٍ وجدت له نهاية. هكذا صرتُ أرى الخاتمة... لا خسوفًا يطوي النور، ولا كسوف يسرق الطريق، بل فجرًا يسبق القرار إلى المحكمة.

خرجت من البيت متفائلا وحيدا برفقة ذاتي وقدري وهمومي والأمل يحدوني، داعيا الله أن يوفقني، أن يزيح عني عقدة الرهبة، لأنَّ العقدة مرتبطة بالرئيس. أهجس بملامح الحلم تتوضح صورها في الحدق كلما بات يقترب الظن من اليقين، أضحى الحلم يرافقني كصدى العندليب وهو يبهج الصباح، يطربني، يريح اعصابي ووجداني..

وأنا أخطو نحو المرأب؛ لم أعد أسمع لنعيب الغراب أثر في سماء القدر، كأني تجاوزت مراحل العقدة، تحولت صفات الياس السلبية التي كانت تصاحبني لحالة إيجابية، صارت ترعى شؤوني، تواكب سكينتي، نقلتني من قوس اليأس لقوس النجاة والأمل، تاركة كل موجات القنوط التي كانت تصاحبني فيما مضى خلف أثر أقدامي..

عقدت العزم أن أضع الأمور في نصابها، وأمنح رواية حسن خاتمتها الحاسمة. كنت واثقًا أنني سأضع اللبنة حيث يجب،

وأكشف الغموض الذي حيّر القاضي وأربك رجال الأمن وأصدقاء حسن وأسرته. تلك العبارات التي استعصت عليَّ الفهم والتأويل، قررت أن أفك شيفرتها، وأُعيد التوازن إلى ميزان العدالة. لن أعود خالي الوفاض، بل سأتمسكً بالعروة الوثقى، سأستند إلى يقين لا يتزعزع، حتى يعود كل شيء كما كان: صادقًا، نابضًا بالحياة، متوهجًا بألوانه الأولى ونكهته الأصلية.

خرجت من الدار بحدود السادسة صباحا، اللسان تعطر بالأدعية وآيات من الذكر الحكيم، لازالت العائلة مغشية بسباتها، مستهامة بنومها تحت لسعات برد الصبح الشفيفة... حينها أخبرت والدتي الغالية بخروجي، أشرت لها بذهابي لبغداد لأكمل بعض إجراءات جواز السفر الروتينية، حينها كانت قد جلست لتقضي فريضة صلاة الفجر..

بين المنزل والمرأب الذي لا يبعد سوى مسافة قصيرة، مضيت مشواري الصباحي بتحصين معدتي بصمونة من القيمر البلدي، حلاها شهد العسل فازدادت دفئاً وحنيناً. حيث مررت بركن المعيديات، أولئك النسوة اللائي يفترشن الأرض أمام محل "الباتا" الشهير للأحذية، يبعن القيمر والجبن بروحٍ تعبق منها رائحة الماضي. ثم اتخذت لي فسحة صغيرة عند مقهى عبد الحسن، قرب تقاطع السكة الحديد مع الشارع العام، لأرتشف استكان شاي يُهدئ البال ويسترضي المعدة. بعدها تابعت طريقي إلى المرأب، فإذا به خالٍ تماماً من الناس والعربات، كأن الزمن توقف لحظة وصولي.

في ظل أزمة البنزين المستفحلة، لم يكن في المرأب أية عجلة نقل. وإذ أمضي بخطاي المتثاقلة نحو المرأب، استوقفني مشهد لفيف من الناس مصطفين على رصيف الشارع العام، قبالة بناية مديرية ناحية جلولاء. عيونهم معلقة بخيط الرجاء، تترقب أية مركبة قادمة تقلّهم نحو غاياتهم. اصطفتُ بجوارهم، ووقفت بينهم كعابر سبيل، أشاركهم صمت الانتظار، نرفع أبصارنا نحو الأفق، علّ نسمة رحمة تنقذنا من ضيق الكرب، وتبشّر بانفراجة تلوح في الأفق.

باتت الحسرة تشتعل كفتيل النار في أعماقي عن ما كنا عليه سابقا وعن ما وصلنا إليه جراء عنجهية الحكم وسلوكه، وعن الغل الذي اصابنا وحاصرنا جراء تخبط القرارات الغير مدروسة.

المسافة بين بغداد وجلولاء قرابة 160 كم، أي أحتاج لساعتين من السفر في أقل تقدير لأصل دائرة الأمن. كانت الساعة تشير إلى السادسة صباحا، الرحلة غير مضمونة، المرأب خالياً تماماً من العجلات، لا أثر لحركة تُذكر، حتى مركبات الجيب العسكرية التي تحولت إلى سيارات أجرة، صار أصحابها يملؤون خزاناتها بالنفط الأبيض الكيروسين بدل البنزين لشحته، محاولةً لتسيير معيشتهم عبر تسيير حياة الآخرين داخليا.

وقفت مع الجمهور الحائر من الناس، كلٌّ يحمل هدفه بين عينيه؛ من تاجر يروم عمله، إلى مريض يسعى خلف علاج، إلى جندي يلتحق بوحدته، إلى موظف يود إنجاز معاملته في

وقتها، إلى رحّال لا يعرف الاستقرار. كان الحضور متنوعاً في شكله ولباسه: البعض قادم بالدشداشة والعقال أو الطاقية، وآخرون يرتدون القمصان والبنطال، بينما اصطف بيننا عدد قليل بزيهم العسكري، وآخر كان بالزي الكردي، في صورة تحكي فسيفساء المجتمع العراقي في لحظة انتظار.

لكلٍّ منهم سعيه، أما أنا، فكان سعيي لا يشبه سعي أحد. وحدي أحمل غاية مختلفة، غاية تتعدّى إنجاز معاملة أو بلوغ موعد أو تجارة؛ إنها حياةٌ تتأرجح بين يديّ، تنتظر أن أفكّ كربتها. أنا الوحيد الذي غايتي تختلف عن غايات هؤلاء جميعا، أنا الوحيد الذي تكمن بيدي فك كرب شخص من الخطر. أنا الوحيد مقيد بساعة الوصول، أحاور القدر في سباق لا يحتمل التراخي والتأخير. أولئك جميعاً يمكن أن يؤجلوا شؤونهم ليومٍ آخر، إلا أنا؛ يجب عليَّ أن أدرك مرامي قبل فوات الأوان، قبل أن تفلت زمام الأمور. لا أملك رفاهية التأجيل. فإن لم أصل في الوقت المناسب، قد تفرط خيوط النجاة وتتلاشى الفرصة إلى الأبد.

لكن مَنْ مِن هؤلاء سيتفهم غايتي وسيفسح لي المجال لأتخطى حاجز الأزمة؟ من ذا الذي سيفهم أن غايتي ليست مجرد عبور، بل نجاة؟ من ذا الذي سيتنازل عن مقعده ليسهل أمري، لأصل في الوقت الذي تُقاس فيه الأرواح بالدقائق؟ منْ؟ من سيرى أن خلف ملامحي المتعبة شهادة تُنقذ حياة بريء وأسرى من الفاقة، من منهم سيُدرك أن التأخير ليس مجرد عقبة، بل خطيئة؟

مَنْ؟....مَنْ؟

ربما إن تأخرت، سيتأخر تحديد مصيره إلى أجلٍ لا يُعلم، وربما يُقَرّ دون الاعتماد على شهادتي، فتُغلق أمامه أبواب الإنصاف. قد يُعتبر غيابي تخلّفاً، أو أسوأ من ذلك، هروباً. لكنني أعلم مصير حسن محتوم بتواجدي في المكان وبالساعة المحددة، حيث يعول على تواجدي المتهم وأهله منذ سنتين وشهرين، مثلما يعول على حضور القاضي الذي هو الآخر قد تكبل بورطة قد يحاسب عليها أمام الله إذا ما أخطأ في قراره أو أسرع. كل دقيقة تأخير ليست مجرد وقت ضائع... إنها احتمالٌ يُبدّل المصير.

تأخرتُ... نصف ساعةٍ وربما أكثر، لكنها بدت لي دهراً تلا دهراً. كان الانتظار يخنقني، والعين تترقب شبح الرحمة يقدم من بعيد. بغداد لم تكن مجرد وجهة، بل منفذ الأمل الأخير. تنهّدتُ حزناً، كأنّ كل زفرة تحمل معها مرارة سنةٍ من البُعد. الوجوه حولي مُنهكة، والمكان يضج بالضجر والضجيج، اليأس يزحف نحو الظهيرة اللاهبة. كنتُ جزءاً من هذا الإعياء العام، لكنني أحمل فوقه عبء الحر والعناء الغياب والتأخير، وصدمة ما آلت إليه أحوال البلد خلال سنتين قضيتها بعيداً في اليمن، ظننتني أبتعد لأتنفس... فإذا بالبلد قابع بهواجسي وهو يختنق أكثر.

كنا أكثر من عشرين شخصًا مصطفين على الرصيف، ننتظر عجلة تقلنا إلى وجهاتنا. ومع مرور الوقت، بدأ الازدحام يشتد، إذ كان ينضم إلينا شخص أو اثنان كل خمسة دقائق،

حتى بات المكان لا يسعنا. صار من الصعب أن نظفر بمقعد في العجلة القادمة، فالجميع يسعى للوصول في الوقت المناسب، والجميع يطمح إلى مقعدٍ مضمون. إن وصلت عجلة، حتما ستندلع موجة من التدافع والتنافس على المقاعد بين المنتظرين، مشهد صار جزءًا من روتين البلد، حيث قلة المركبات وشح الوقود جعلت التنافس حاضرًا في كل الميادين.

كأن الوقت يتعمد أن يسابقني، وكل دقيقة تمر تُثقل عليَّ عبء التأخير. الساعة تجاوزت السابعة والنصف، والمحكمة لا تنتظر المتأخرين، بل تبني إجراءاتها على دقّات الساعة. كيف السبيل إلى الوصول قبل التاسعة؟ كيف تُبلغ القاضي وتكون في القاعة كما هو مطلوب، وهذا الزحام يبتلع كل محاولة للّحاق بالموعد؟ في بلدٍ صارت فيه الحركة رهينة الندرة - ندرة المركبات، ندرة الوقود، ندرة الفرص، وندرة الحظ لأصحاب العقد، باتت مثل هذه المواقف اختبارًا للصبر لا يقل رهبة عن إجراءات المحاكمة ذاتها.

أشتدّ وتيرُ القلقِ في داخلي، أضحى القدرُ يلهثُ خلف جزعي الذي ركب مركب عجزي، يا تُرى ماذا أفعل؟ هل أخبرُ دائرةَ أمنِ جلولاء لتُعيننني بقدراتها وتُساعدني على الوصولِ لمأربي قبلَ فواتِ الأوان؟ لا أدري كيف أُداري وضعي في تلك اللحظاتِ الحرجةِ من عمرِ القضية، المسألةُ محيّرة، والأمرُ خارجٌ عن حدود السيطرة. فيما مصيرُ حسن يبقى معلقًا بخيطِ

واهٍ من الحظِّ وتجني القدر، وبذلك الرهان الخاسر الذي بات يضيق عليه وينحسر في ذهنه مع تقادم دقائق الزمن.

إذا ما تأخرت قد يؤخر القاضي بته قرار القضية لشهر أو لأشهر وربما لسنة قادمة، هذا يعني يبقى حسن قابع في زنزانته حتى الموعد الجديد، وأبقى معلق المصير حتى يوم الفصل الجديد، وقد أمنع من الرجوع لمواصلة عملي في اليمن حتى تحين المحاكمة، فيضيع عقد عملي ومشواري التدريسي في دجى الظرف.

كان الخيال قد جرّدني من واقعي، وصار يدحرج القدر بين متاهات الظن، بين فِكَرٍ مشتّتٍ ومصيرٍ عبثي. كنتُ بواقع الحال متقلب المزاج، أتأمل أن تُمنح لي أجنحة لأجتاز بها المسافات وأختصر الزمن. كان وضعي غريبًا إلى حدٍّ بالغ؛ إذ انصَبَّ فكري وعقلي في دورق العجلة في الوصول، منشغلًا بكيفية تجاوز الأزمة في الوقت المناسب...أضحى عقلي كالرحة يدور في أروقة القضاء، بينما جسدي منطرح بين شِلّة من المنتظرين على الرصيف كالأجداث، لا حياة فيها سوى التنهيد. بين الحين والآخر يعيدني أحدهم إلى الرصيف بسؤال عابر، فأفلت من قبضته عائدًا بخيالي إلى قاعة المحكمة، ثم يجذبني آخر بسؤال جديد أو شكوى من الملل...

- بالله هل هناك من يرضى بهذا الحال، يجب أن أكون في بعقوبة لأستلم كتاب التعيين اليوم...
- وآخر يقول: علي الالتحاق بالوحدة قبل أن يعتبروننني غائبا ومتخلفا أو هاربا من الخدمة العسكرية...

- وأخر : إذا لم أجلب البضاعة اليوم غدا سأجلبها بسعر مضاعف، الأسعار في فوران وتصاعد مستمرة...
- وأخر: يجب أن أصل إلى الدوام قبل الثامنة، والآن الساعة تشير إلى الثامنة...

طال الانتظار، وغَصّتْ الأمكنة بدوشة المنتظرين، تفيض بالملل والسأم. ضاقت النفوس ذرعًا، وغلى الغيظ في الصدور، حتى راح البعض يسبّ أمريكا والدول المتحالفة والمجاورة، تلك التي شاركتها في فرض الحصار الجائر. وجوه غائرة، منهكة، طفحت بالعوز والفاقة، مصفرة باهتة كلّيمونة معصورة، يغلفها جفاف كأنما طُليت بلون الزعفران لسوء التغذية. أجسادهم توارت تحت أردية عتيقة، أسمال بالية لا تليق بشعبٍ يجلس فوق بحيرة من النفط، لكن نكبته جعلته كالغارق في ظله.

الحالة تمثل شكلا من أشكال المأساة، فالعراقي الأبي، الشهم، الكريم، المعطاء، لم يتعود على الذل والهوان عبر التأريخ.

وسط تلك المأساة الراهنة، انقشعت الغيوم فجأة وتبدّد الضباب الذي حجب رؤيتنا، وذلك مع وصول شاحنة قلاب الطوب عند الساعة الثامنة وعشر دقائق قادمة من جهة قرية شيخ بابا شمال جلولاء. توقّفت أمامنا في طريقها نحو مقالع الطابوق في المقدادية. بدا عليها أنها أفرغت حمولتها للتو من الآجر في شيخ بابا، ثم عادت لمقالع المقدادية لتحميل شحنة جديدة.

لم يُضِع السائق الفرصة، فاستغل وجودنا ليعرض نقلنا، طمعًا في كسب بعض الدنانير الإضافية.

ركب الجمع الغفير المركبة دفعة واحدة، فلم أعد أميّز نفسي عنهم، إذ تلاشى الفرد في زحام الجماعة. لم يكن يعنيني سوى الوصول، حتى وإن تأخرت عن الموعد المحدد أو اللحظة المناسبة، قبل أن يُؤجل التحقيق. كانت العجلة تلهث في داخلي، تحفّزني الغاية لألحق بالزمن، ويؤازرها خوف خفي من أن أُحاسب من قبل جهاز الأمن لتأخري عن المثول أمام القاضي. فقد يُفهم تأخري على أنه تخاذل أو تهرّب من المواجهة، أو عدم رغبة في الإدلاء بالشهادة... وعندها، يُبنى الحكم على ما في جعبته من حجج وظنون.

إذا لابد من الاستعجال والتشبث بالعجلة لتجاوز أزمة المسافة بشكل من الأشكال، لابد أن اسبق المسافة وأختصر زمن الوصول. فالقانون لا يفهم لغة الشارع، ولا يعترف بالمطبات، ولا بأزمة الوقود وشح المركبات، إلا إذا أخذت حالة الأزمة في نظر الاعتبار.. لابد أن أدرك القاضي وأضع إرادتي بين يديه، حتى لو تأخر بي الزمن، ربما يحسب عبثية الظرف وفاقة الأزمات التي عصفت بالمجتمع، ربما تكون للعدالة رأيٍ آخرٍ مناقضٍ لما هو سطحي وملموس. رأيا دفينا بين ثنايا فكر القاضي والورق المسطر أمامه، به يتجنب المماحكة والمجادلة في لِجَاجِة عقم القضية، وما يدريني الظرف، علّي اتواجد بالوقت المناسب لأضع النقط على الحروف مثلما قررت. المهم أصل قبل انتهاء وقت العمل، لازال هناك من

متسع أمل يحدوني، يجلي الهم من على الصدر. حيث القاضي لم يكن في حال أفضل من حالي وحال حسن قط، كلنا ندور في فلك القضية التي ورطنا بها غراب البين، يجب أن نرسي على بر مجتمعين....

وددتُ لو امتلكت أجنحةٌ كأجنحةِ عفريتٍ الجن، ذاك الذي نقل عرش بلقيس من مأربَ إلى حضرةِ نبيِّ اللهِ سليمان في طرفة عين، كي أشقَّ السُّحب وألتحف الغيب، فأكشط الغشاوةً التي حجبت عن القاضي وجه الحقيقة في لحظةٍ فاصلة. وددتُ لو أتحلى بصفة السحر والشعوذة لأخترق حاجز المستحيل، لا عبثًا بل سعيًا للحقيقة، أن أُشحَن ذاتي بطاقةٍ كهرُبائيةٍ إيجابيّة، لا تُطفئ الزمان، بل تحرق المسافة بيني وبين دائرة الأمن، فأكون حيثُ يجب أن أكون، في اللحظة والدقيقة، في الزمنِ الذي لا يُعوَّض.

ارتقيت مع المجموعة البالغ عددها بحدود 25 - 30 شخصا أو أكثر، معظمهم من كبار السن أصحاب المحلات التجارية وقلة من العسكريين، فمنهم من قصد أسواق الشورجة للتبضع، وآخرون قصدوا وحداتهم العسكرية، وعددا آخر هموا في مراجعة الدوائر المدنية في مركز المحافظة (بعقوبة)، كدائرة الجنسية أو التربية أو مديرية الجوازات أو مركز المحافظة أو المستشفيات.. الخ.

كان سائق الشاحنة الذي يرتدي دشداشة وعقال على رأسه؛ أبا أن يوصلنا قبل أن نجمع له أجرة النقل، وكان قد أصر على مضاعفتها بحجة غلاء البنزين..

مـع أول اهتـزازٍ للمركبـة، التصـقنا بجـدرانها الداخليـة، تلـك الجـدران المتسـخة المتلفعـة بغبـرة الجـص واصـفرار الآجـر المحتـرق، كأنهـا شـاهدة علـى عبـور أزمنـة متراكمـة مـن البـؤس. الأرضـية اكتظـت ببقايـا كسـر الآجـر ونثـار الجـص، بـدت كـأرضٍ عبثيـة خمـد عنهـا اللهـب وبقيـت نفاياتـه. وقـف الجميـع علـى أقـدامهم، يتـأرجحون كأشـجارٍ فـي مهـب ريـح عاتيـة، يهتـزّون مـع تمايـل "قمـارة" الشـاحنة التـي تقـاذفتهم بـلا رحمـة. العجلـة، وهـي تتهـادى فـي عبـث المسـارات، تتجـاوز المطبـات النشـاز والحفـر المتنـاثرة كفخـاخٍ مدسوسـة. وامتـد سـير الامتحـان حـين بلغنـا عقـدة المسـافة بـين السـعدية ومنصـورية الجبـل، تلـك الرقعـة التـي تختـرق بحيـرة حمـرين مـن يسـارها، طريـق غيـر معبـد ملـيء بـالحفر والنقـر، حيـث كـل حفـرةٍ تعـد نـداء وصـرخة تجفـل كاهلنـا، وكـل انعطافـة نشـازٌ آخـر يشـل تفكيرنـا. تلـك التـي تعرقـل سـير العجلـة فـي طريـق يعـد الأسـوأ ضـمن المسـافة. طريـق ترابـي دائمـا مـا يتعـرض للتعريـة بسـبب ارتفـاع منسـوب البحيرة في فصل الربيع.

لـم نكـن نسـتطيع الجلـوس فـي حـوض المركبـة، لكثـرة مـا تنـاثر فيـه مـن كسـر الآجـر ونُثـار بـودرة الجـص أو البـورك الأبـيض، وهـي مخلفـات حملٍ سـابق مـن مـواد البنـاء تُركـت فـي القـاع مـن دون تنظيـف. بعضـها تحـوّل إلـى مسـحوق نـاعم، وبعضـها ظـلّ كجـذاذة خشـنة تحـت أقـدامنا. حتـى بطانـة القمـرة مـن الـداخل طالهـا الغبـار الأبـيض، فعلـق بثيابنـا حـين اضـطررنا إلـى الاستناد إليها خلال حركة الشاحنة.

لم تكن ظروف الرحلة تسمح لنا بالجلوس على أرضية حوض الشاحنة؛ واجهنا اهتزازات القمارة التي زعزعت توازننا بعناء شديد، قلة الأوكسجين، وحرارة شمس حزيران اللاهبة، ناهيك عن سحابة الغبرة التي صاحبتنا عبر مسافة البحيرة. أما العجلة، وهي تتخبط في النقر والحفر، فكانت تُربك وقفتنا، فنبدو أشبه براقصي باليه مترنحين، نتمايل، نتعثر، نحتضن بعضنا تارة، ونسقط على بعضنا تارة أخرى، خصوصًا الواقفين في وسط الحوض.

عانينا كثيرًا ونحن نخترق مفازة طريق البحيرة الترابي خلال عبورنا للبحيرة. فقد تسببت الثلم والحفر، التي خلّفتها الطبيعة وعجلات الحافلات والشاحنات التي لا تهدأ في طريق غاصٍ بالحصى والحجارة والمطبات المخفية، تحته طبقة ناعمة من غبار ناعم مسحوق، ترسب بفعل الدوس المتكرر. هذا الغبار كان كافيًا ليثور من أقل حركة، فتتعكر به الأجواء وتثقل به أنفاسنا حتى أحسسنا بالاختناق. تشبّعت صدورنا به، وترطّبت خياشيمنا به، بينما تغيّرت ألوان ثيابنا التي صُبغت بالغبار وتعطرت برائحته، ووشت خصلاتنا بنُثاره، فلم ينجُ منه إلا من غطّى رأسه أو لفّه بغطاء الغترة.

تمتد المفازة نحو سبعة كيلومترات، تعبر خلالها سدة ترابية تشق البحيرة من جانبها الأيسر. تلك السدة، بفعل المدّ والجزر وارتفاع منسوب المياه، تتعرض باستمرار للتجريف والتآكل، إذ تتلاطم الأمواج بجانبها وتنهش أطرافها. ومع كل موسم فيضان، حين ترتفع المياه حتى حافة الطريق، يتحوّل المرور

إلـى مغـامرة محفوفـة بـالخطر، خشـية أن يخسـف الشـارع تحـت عجلات المركبات العابرة.

كمـا أن قيـر الشـارع قـديم جـدا، وهـو ذات الشـارع الـذي أنشـأ قبـل أربعـين سـنة دون أن يعبـد، أنشـأ قبـل إنشـاء السـد علـى نهـر ديـالى، شـارع ممتـد كثعبـان مبقـع بـين وديـان وتلـول حمـرين المنيعـة، والـذي لـم يجـد اهتمامـا مـن قبـل الدولـة، علـى الـرغم مـن أنـه يختصـر المسـافة بـين جنـوب محافظـة ديـالى وشـمالها، لقـد تخلـت الدولـة عـن كثيـر مـن خططهـا المهمـة بسـبب انشـغالها بالحروب المتعاقبة.

خـلال هـذه المسـافة والتـي نلنـا مـن خلالهـا كـم وافـر مـن العنـاء والشـقاء والغبـرة، والتـي تخلخـل فيهـا اجسـادنا؛ كنـا قـد تحملنـا عـذاب تلـك المسـافة علـى مضـض، حتـى أدركنـا المنصـورية ومن ثم المقدادية بعد عناء ساعة ونصف من المسير..

ومـا أن وصـلنا مـرأب المقداديـة حتـى أخـذنا قسـطا مـن الراحـة علـى رصـيف الشـارع العـام، البعض منـا أمتـد علـى ظهـره ليـريح عظامـــه التـــي تضعضـــعت، أضـــحينا أشـــبه بالمَسْـــاطُيل والمخمـورين متـرنحين فـوق الرصـيف، بـين صـاح ومبهـوت ممتـد علـى ظهـره وجلـيس مـذهول، مرهـق، الوجـوه مشعشـعة، كنـا كألفـة نبـدو للنـاظر كشـلة مجـانين، أو مـن المكبسـلين مفتقـدين اللمعـة فـي الوجـوه، كالعـابثين بأشـكالهم وأرواحهـم فـي حفلـة تنكرية.

خلال انتظارنا في مرأب المقدادية والذي دام نصف ساعة من الزمن، كنا قد استغلينا تلك الفترة بغسل وجوهنا من صنبور حنفية مطروحة داخل المرأب، ثم ارتشفنا كأسا من الشاي من ساقٍ متجولٍ يرتزق على زبائن المرأب، شعرنا خلالها بشيء من الراحة وإعادة الأنفاس لطبيعتها.

في الحقيقة تكررت معاناتنا في المقدادية مرة أخرى مع أزمة عجلات الأجرة وابتزاز سائقيها المسافرين. بسبب شحة البنزين، كان قد أبا سائق الباص توصيلنا إلا بمقابل أجرة مضاعفة أيضا، مستغلا أزمة العجلات في المرأب.... أخيرا استقللنا باص صغير ذات اثني عشرة راكبا متجهين لبغداد.

كانت قد استغرقت رحلتي من مرأب جلولاء لغاية دائرة الأمن في بغداد ثلاث ساعات من الزمن، نفضت عن جسدي العناية والقيافة والنظافة والفتنة والراحة بعد أن افتقدت الصبر والأمان والزمن.

ما أن وصلت مرأب النهضة في بغداد بحدود الحادية عشرة صباحا؛ حتى وقفت جانبا على رصيف الشارع العام خارج مرأب النهضة، مؤشرا بيدي لعجلات التكاسي العابرة باتجاه منطقة البلديات التي تتواجد فيها مديرية أمن العامة في جانب الرصافة، لم أنتظر طويلا؛ حتى ارتقيت أحداها لتقللني لمأربي وأنا شبه منهك.

كنت آنذاك قد تأخرت عن موعد المحاكمة المفترض إقامتها بساعة ونصف تقريبا. لقد غُلس الحال، تأخرت مجبرا عن

محضر التحقيق، لكني أخيرا وصلت دائرة الأمن قرابة الحادية عشرة وربع بعد عناء واضح. كان القاضي متفهما سبب تأخيري لذا لم يشير إلى سبب تأخيري، قيافتي ومنظر العناء البائن على محياي يشهدان بذلك، حيث جئتهم بشخصية أخرى لا تشبهني، وكأني خارجا من ساحة حرب.

كانت شوارع بغداد شبه مهجورة إلا من عدد قليل جدا من المركبات العابرة وقلة من البشر الدائح خلف رزقه. يطغي على المدينة آثار الحصار بوضوح، آثار مقروءة على معالم الأبنية وفي وجوه الناس وشحة العجلات في الشوارع؛ حتى الأشجار كانت تشكو ظرفها وسليط الحر وجفاف الأنهار وإهمال البلدية. أشعر بالمدينة أضحتْ تأن بائسة، كئيبة، حزينة، تعصر القلب، لم أشهد أي تطور طارئ على معالمها يبهج النفس، كأنها أصيبت هيَّ الأخرى بأمراض العصر والأنيميا...

كان سائق التاكسي الذي أقلّني إلى مديرية الأمن رجلاً في أربعيناته، واهناً كأنما نُخرت قوّته تقادم السنين والهموم المرافقة. تقاطيع وجهه الحادة تسرد حكاية شقاء طويل، أما جسده النحيل، فقد أنهكه الهوان حتى التصق جلده بعظامه، فبان هيكله واضحًا للنظر. كان يرتدي دشداشة بيضاء تزيده شحوبًا وتتماهى مع خصلات شعره الأشيب وزغب لحيته الفاترة. رغم عمره المفترض، بدا كهلاً تجاوز الستين، يُتوّج رأسه بغترة بيضاء كأنها كفن يتوشح به. عيناه غائرتان، وعظام وجهه نافرة، كأنه ليس له علاقة بواقع الحياة.

خلال الطريق إلى دائرة الأمن، والتي امتدّت رحلتها لنحو ربع ساعة، انسلّ صوت السائق، بنبرته الفضولية المألوفة، إلى صمتي المشوب بالقلق. كان يبدو ذكيًّا، بعينين تشبهان المجهر، ترصدان كل شاردة من ملامحي المضطربة وهو يسألني:...

- لمَ أنت ذاهب إلى دائرة الأمن؟ هيئتك لا تدلّ على أنك أحد رجالهم، فلو كنت منهم، ما استأجرت تاكسي! ثم إنك لا تحمل سلاحًا.

كان محقًّا، فقد رآني في هيئة أشبه بالتائه، وجهي مصفر، شعري أشعث، وملابسي المترهّلة تعبث بها ريح الطريق وغبار الصيف. العجلة أُجبرنا على فتح نوافذها لعطل أصاب جهاز التبريد، فاندفعت موجة حرّ خانقة – تجاوزت ثلاثة وأربعين درجة – غسلتْ وجوهنا بعرقٍ لا يُمهِل. امتزج العرق بالغبار، فارتسمت على الوجوه خرائط من الكدح، كأنها وشم البؤس.

قلت له، وأنا أمسح عن جبيني آثار الحر بقطع مناديل الكلينكس:

- صدقت يا عم، لست من رجال الأمن. جئتُ بصفة شاهد في محاكمة أحد المتهمين بسبّ السيد رئيس الجمهورية.

قطّب الرجل حاجبيه، ومال إليّ قليلًا:

- بـالله عليـك، أشـهد بـزور هـذه الـدعوى وكـذبها. سـيكون ذلك في ميزان حسناتك، وما عند الله لا يضيع.

ابتسمت، وربّتُّ على كتفه قائلاً:

- اطمئن، يـا عـم. هـو بـريء فعـلاً. لـم يسـبّ الـرئيس. إنهـا قضية كيدية... لا أكثر.
- هـذا الـذي جرنـا للمأسـاة التـي نحـن عليهـا، مـع الأسـف هنـــاك أنـــاس لا تخـــاف الله ولا تـــرأف بالنـــاس {{وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ}} صدق الله العظيم.

كـأن الرحمـة هبطـت مـن عليائهـا، فحلّـت علـى لسـان ذلـك السـائق، فأنطقـت فكـره بلغـة لا يُجيـدها إلا مـن لُسـع بنورهـا. لـم تكـن كلماتـه محـض سـؤال عـابر، بـل كانـت نفحـة مـن نـور، ولأنهـا تهمـة كيديـة فقد جعل الله للرحمـة صـورا شـتى تقابلنـا فـي طرقنـا بأشـكال مختلفـة حيـث تبـزغ لنـا، تصـادفنا لتـذكرنا بـالله، وإلا مـا كـان نطـق بهـا السـائق لـولا أن لسـعته تلـك الرحمـة فـي تلـك اللحظـة. ومـا كـان ليسـألني بهـا ويترجـاني لـولا الإنسـانية التـي غشـت ضـميره. عبـرت لتـذكرني بـأن فـي هـذا العـالم وجوهـاً لا تـزال تـؤمن بالعـدل وإن صـمتت، وتُجيـد الشـهادة وإن لـم تُستدعَ.

لقـد كـان فـي وسـعه أن يصـمت، أن يبلغنـي وجهتـي كمـا يقتضـي واجبـه، دون أن يتـورّط فـي مسـألة لا تعنيـه. لكـن الرحمـة مـرّت كسـحابة صـيف علـى روحـه، فبعثـت فيـه قلقًـا، وأجّجـت فيـه إنسـانيةً فاضـت بكلمـات بيضـاء، خرجـت مـن صـدره كحمـائم

سلام، لتحط على أسوار قلبي، وترسم على ضميري وميضًا لا يُنسى.

اللغط الذي يعصف بعقول بعض البشر ما عاد مجرد اختلاف في الرأي، بل استحكم حتى صار عقدةً خانقة، تتحول عند البعض إلى إساءةٍ، وإجحافٍ، واستبدادٍ يلتهم معاني الإنصاف. ينقلب الحوار إلى استطالةٍ في التهم والتأليه، إلى بهتانٍ ما كانت لتتحمله جبل أشم فكيف بإنسانٍ ضعيفٍ لا حول له ولا قوة؟ هل نسي هؤلاء بأن الرئيس بشرٌ مثلهم؟ لمَ نرفعه إلى مقامٍ لا يليق إلا بالربوبية؟ تلك هي مصيبتنا حين يخلط بعضهم بين احترام المنصب وتأليه الشخوص، فيتسابقون إلى التملق طمعًا في مكسبٍ أو إثبات ولاء أمام أعين الحزب وأجهزته.

أليس الأجدر أن يُحاسب من يكفر بالله، لا من ينتقد من هو عبدٌ مثله؟ إن الانحراف عن جوهر القيم لا يبدأ من السقوط في الخطيئة، بل من السكوت على الظلم حين يُلبَسُ ثوب القداسة.

كان السائق قد أنزلني على بعد 100متر من الباب الرئيسي لدائرة الأمن العامة، حيث أخبرني بمنع وقوف العجلات أمام الباب الرئيسي بصورة مباشرة، فأشار إليَّ بالنزول والترجل والرحمة تلوك لسانه وهو يوصيني بها خيرا.

- كن صلبا ولا تنسى رحمة الله، فأنك ستنقذ أنسانا من موت لا يستحقه.

- مـــع الســـلامة يـــا عـــم، أطمـــأن، اوصـــانا الله بأنفســـنا وبالآخرين خيرا، ولا يمكن أن نتجاوز قدرنا.....

كمـا اوصـانا رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم بمكـارم الأخـلاق واللـين فـي التعامـل مـع الآخـرين، فـأن هنـاك قـوة كبيـرة جـداً داخـل الشـخص تدفعـه إلـى الأمـام، تقـوّي عزيمتـه؛ حتـى يجعلهـا علـى مسـتوى التحـديات، فيقـاوم التيـارات المنحرفـة بقـوة، هـذه النفسـية دائمـا مـا تـدعو إلـى الله والأمـر بـالمعروف والنهـى عـن المنكـر، دائما الأمل يحدوها في تغيير الواقع.

2- مديرية الأمن العامة

ترجلتُ من سيارة الأجرة على بُعد نحو مئة متر من بوابة دائرة الأمن، ثم سرتُ بخطًى واثقة نحوها، حيث كان جنديان مسلحان يحرسان المدخل. قدمتُ نفسي لهما، وشرحت سبب زيارتي قبل أن يبادرا بسؤالي عن هويتي وسبب وجودي. سارع أحدهما بالاتصال باستعلامات الأمن الداخلي، وكأنه كان على علم مسبق بقدومي، أو لعلها مجرد إجراءات مألوفة مع الزائرين.

طلب مني مرافقته، فمشينا معًا عبر ساحة البناية الواسعة، تلك الساحة الوسطية التي تتجاوز مساحتها ألفي متر مربع. تتوسّطها حديقة دائرية صغيرة، لا يزيد نصف قطرها عن عشرة أمتار، يكسوها عشب أخضر وتنتثر فيها شجيرات باسقة وزهور نديّة. لمحْتُ صنبور ماءٍ مخصصًا لريّ النباتات، فانتهزت الفرصة لأغسل يديّ ووجهي مما علق بهما من غبار الطريق. بأصابع يديّ مرّرتُ على شعري، أرتّبه قليلًا، علّني أُخفي ملامح التعب والأرق التي ارتسمت على محياي. قادني الجندي لغرفة الانتظار، وهي غرفة صغيرة بحجم 4×4 تقع في الركن الأيسر من البناية...

ما إن دخلتُ الغرفة حتى باغتني وجود داوود، كأنّه أنهى شهادته للتوّ، كأنه ينتظرني كالقاضي والمتّهم ومنغصات القضيّة. كان يرتدي ذات الأناقة التي عهدتُها عليه في الحافلة: قميص أبيض ناصع وبدلة سوداء منسّقة بعناية وكأنه لا

يرتدي غيرها. رأيته يحدّق فيَّ بشغف، كأنّه استعاد طمأنينته لمجرد رؤيتي، فرحّب بي بودٍّ ملحوظٍ واتّساع صدرٍ لا يُقارن بالجفاء الذي قوبلتُ به حين سألته ذات مرّة، عن أصل جذور القضية وتشعّباتها في سوق جلولاء.

وجدته خانسا على كرسيه البلاستيكي الأبيض، مواجها لمدخل الغرفة، كأنّه ينتظر قدره. كانت ملامحه مثقلة بالهم والتفكير، توحي بحيرةٍ مشوبة باليأس أو بالندم، وكأنّه غص في مراجعة داخلية مريرة لما وجس من تورط إذا ما كانت النتيجة لا تطابق غايته: ماذا لو بَرُئ حسن من التهمة؟ بدا وكأنه يلوم نفسه على التسرّع في صياغة التقرير، أو على عدم إحكام الرواية بما يكفي لتأمينها من بدايتها. فمنذ أن خطّ ذلك التقرير، لم يلتقِ بي، لم يناقشني، ولم يسألني عن رأيي في حسن. ربما أدرك، في أعماقه، أنّ تبرئة حسن قد تعني تهديدًا صامتًا له... انتقامًا مؤجلًا ينتظره.

ما أن شاهدني حتى جفل، وقف على قدميه مرحبا، مصافحا، منفتح الأسارير، مبتسم ابتسامة صفراء عريضة طغت على محياه، طلبا مني الجلوس بجانبه.

في يسار مدخل الغرفة كانت موضوعة طاولة كبيرة من الألمنيوم، يجلس خلفها رجل بلباس مدني، كان يبدو أنه منشغل مع أحد المراجعين، هكذا هُيئَ لي الوضع، وعلى الضلع المقابل لنا توجد كنبة خشبية مفروشة ببساط من قماش المخمل المورد، يجلس عليها شخص يرتدي اللباس العربي (الغترة والعقال). ربما كان ينتظر دوره في التحقيق..

جلستُ إلى جوار داود على كرسي بلاستيكي أبيض، وكلي أمل أن يكون قد غير رأيه وبدل نظرته وخلع عن قلبه ما علق به من أحكام تعود لسنتين قضت. سألته بهدوء: –

- هل شهدت؟ هل أتمت المحاكمة؟

أجاب بثقة مصطنعة، تعتريها نبرة حنق وسخط دفين: – --

- نعم، شهدت...

كان حديثه مشحونًا، كأنه يحاول استمالتي إلى ضفته، ليُصبغ شهادتي بصبغة نياته. نظر إليّ بنظرة تحمل قدرًا من الحدة، ثم قال: –

- اسمعني جيدًا... بعد قليل سيدعونك للشهادة، وسيسألونك إن كان قد تهجّم على السيد الرئيس. قل لهم إنّه قد سبّه وأهانه بألفاظ نابية. علينا أن نتخلص من أمثال هؤلاء الخونة، لا ترحمه، إنه كلب من كلاب جلال طالباني. شدّد على أنه أهان الرئيس أمامك.

أصغيتُ لحديثه وتحريضه المحتدم دون أن أنبس بشفة، وكأنّي أسمع نعيبَ غرابِ البَينِ ينذر بالفاجعة. كان الغضب قد طغى على بصيرته، وغلب حلمه، فصبّ جام سخطه في كأس حسن، كأنّ عقله قد فاض بما اختزن من شوائب الماضي وترسّبات الشك. ربما كان في نفس حسن شيء من ذلك الذي يُتهم به، نزعة دفينة لاعتزازٍ قوميّ، وهي في أصلها غريزة لا تُدان. لكن أن تُسقط على إنسان وُجد في لحظة انفعاله

اللفظي حكماً قاسيًا دون أن يسب ويخرج عن حدود العلن، فذلك إجحاف بحقه يفتقر إلى الإنصاف. هو فعلا لم يسبّ الرئيس، وهذه هي الحقيقة التي أعرفها، فبأي حقّ تُلصق التهمة به جزافًا، وتنسج حولها رواية مشوبة بالتحامل

لم تنصف الدولة العراقيين، بكل فسيفساء أطيافهم وقومياتهم. تسرّب الفقر والعناء والأمراض النفسية إلى عمق المجتمع، رغم أن العراق يُعدُّ بحسب المقاييس، من أغنى دول العالم. ومع ذلك، بقينا واقفين على هامش الحياة حفاةً القدمين، نعيش عيشة الكفاف، كأننا منبوذون من نعمة الوطن أضحت نفوسنا في حالة غرارة وخطيئةٍ، يطغى عليها الحزن والخذلان. ربما هذا ما جعل حسن يتأفف ويتململ، يضيق ذرعًا بالأوضاع، ويحاول فك أغلالٍ كبلته كما كبّلت الملايين سواه.

بصوتٍ يائس، أشبهَ بلسعة ريح غاضبة، طرق أذني بكلمات كأنما صكَّها بقطعة فلين من الغيض تماما، كأني لم اسمع شيئا، لم أعد أسمع سوى صدى فراغ مريب. تحوَّل الكلام إلى ضجيج، كأنه بنى حاجزا بين نواياه ونواياي. سورًا من صفيح بارد يعكس صدى الخبث والنية المريبةً عليه." إنما الأعمال بالنيّات، وإنما لكل امرئ ما نوى ". صدق رسول الله (ص). حيث نظراته باتت أقوى من صمته، وصمتُه كان أعلى من كلامه، كأنه بات يصرخ أذا ما انظر إلى ما وراء المعنى، محاولا إنقاذ نفسه من الطامة التي تنتظره..

جاء حديثه في الوقت الضائع، يحاول لملمة عناصر خبثه. كل شيء تجمّد. الأنفاس تقطّعت على أعتاب الإدراك، العقل

غشـيّ بسـواد النيـة... فلـم يجـد سـوى سلاسـل كذبـه تُطـوّق عنقـه بخيوطٍ من الريبة.

فـي دهـاليز مديريـة الأمـن أشـعر بـذاتي كأنهـا قـد دخلـت أرض الحـرام، باتـت فـي مواجهـة شرسـة مـع أقطـاب الشـر، الضـمير قـائم كجمـرٍ تحـت الرمـاد، أواجـه خصـمًا لابـد فـي الخفـاء. ذلـك المعتـوه مـا كـان حديثـه معـي سـوى اغتـراب لا مـأوى فيـه، لـم تكـن كلماتـه سـوى ألغـامٍ ود تفجيرهـا تحـت قـدمي. لـم يكـن بيننـا وِصـال ولا حتـى نفـور، مـن يـوم الـذي انتسـب فيـه لمدرسـتنا كـان قـد عـزل نفسـه فـي محـيط ضـيق، فـي خـواءٍ جـافّ لـم تلِـد لقـاء معرفة، سوى نفرةٍ لا تُنسى.

كـان غريبًـا؛ منعـزلا، نرجسـيا، متكبـرا، لا يطلـب القـرب ولا يُعطيـه. يـرى ذاتـه دون سـواها، لـذا تجنبنـا، وكأننـا فـي عينيـه مجـرد ظـلالٍ علـى هـامش حضـر مجده. لقد قدرنا ذلك كونـه ابـن ريـف لـم يصـدق ذاتـه، لا تجـارب لـه، يـود أن يسـتر نقصـانه بوشـاح مـن الترفـع المصـطنع. علـى الـرغم مـن أنـي كنـت أرى نفسي أميرًا عليه، لتواضعي وطيبة قلبي. لم أهتم بأمثاله.

جلوسـي إلـى جـواره كـان أشـبه بكمـينٍ معلّـقً بخـيطٍ، قـد يـدخلني الفخ بلحظـة غفلـة. لـم أكـن حـرًّا أبـدا، بـل رهينـة وهـم مرسـوم فـي وجهـه. شـعرت بـأنني هـدف يـود الامسـاك بـه، الخدعـة ماثلـة فـي نظـرات عينيـه، وفـي يـده بهيئـة المصـافحة. اللحظـات وإن بـدت عاديـة، إلا أنهـا مكشـوفة للعيـان، ملغومـة، تـدور فـي بقعـة أمـن الدولـة حـول قضـية حسـن... حيـث الهـواء مشـبّع بالرصـد والتجسـس، الكلمـات قـد تتحـوّل إلـى تهـم. كـل شـيء لـه عـين

وآذان: الكاميرات قد لا تلاحظ، لكنها عيونًا جاحظة لا ترمش، وأجهزة تنصت تصغى حتى لصوت تأملي، مدفونة في الجدران وبما تحت الكراسي. بل الجدران ذاتها تُنصت، الكراسي أداة تسجيل تخزّن الهمسات، الأرضية تحفظ بصمات النَفَس. العيون تقرأ الملامح وتغوص في النوايا، والآذان تلتقط صدى نبض القلب وعُسر التنفس.

هنا، كل ما هو بريء يصبح مشتبهًا به، وكل حركة تُفكّك وتُحلَّل، تُقرأ خارج سياقها. المكان محرّم على السكينة. تهجس بأن الهواء معبأ بالسموم والشكوك.

ظلّ متمسكًا بمنهجه القديم كأنَّ لا سبيل له سواه، لكي يستمدّ منه بقايا هيبةٍ ذائبة في الزمن، وأملاً وهميًا في استرداد شيء من ذاته الضائعة في تلك المتاهة. لم يكن ذلك ناتجًا عن قناعة، بل عن خوفٍ دفين من السقوط دون أن يستطيع أن يعيد لذاته قيافتها، من انكشاف الذات أمام من عرفوه طويلًا خلف الأقنعة: القاضي، جهاز الأمن، الحزب، والرفاق. التغيير، بالنسبة له، لم يكن تطورا - بل فضيحة. لم يجرؤ على تغيير فكرته، لأن التغيير يعني بالنسبة له الانكشاف، التعري، سقوط القناع. سيكون فرجة للآخرين بكذبه وتلفيقه ونفاقه. فآثر أن يبقى في ذات الدائرة من البغض والإصرار والعناد، ينهك نفسه دفاعًا عن فكرة جوفاء، عن قناع بالكاد يُمسك على وجهه الصغير. كان قد صغُر في أعين الناس، وهو يعرف تمامًا أنه قد أفلس: من الحق، ومن الهيبة، ومن الكفاءة، ومن الله قبل كل شيء. ومع ذلك، لم يكن أمامه إلا

التمسك بذلك الغيّ، متأملا أن يحتفظ بكرامته، حيث إذا ما فشل في سعيه، يكون قد أفتقدها أمام الجميع.. لأنه ليس كل الحزبيين مثله دون اخلاق وقيم، تلك العقدة متجذرة فيه شخصيا، والتي حاول لفها على رقابنا، لكنها في النهاية ألتفت عليه.

أصبحنا جميعا ندور في ذات الدوامة، وأصبحت هي الدافع القوي له ليتمسك بموقفه وعناده ليثبت للآخرين قوة انتمائهِ للحزب وتمسكه بالوطنية الزائفة وهو يتبع بذلك المنصب والدرجة، لذا شحن فكره بالغل، عمق في داخله عقدة التشفي وأرفاق التُهم ليحتفظ بقيافته.

لذلك فضلت السكوت على مماحكة أفكاره المريضة. إصراره على التخلص من حسن كانت هيَّ نقطة الفصل بيننا، وهي نقطة ضعفه وانكساره أيضا...

ثباته على رأيه فضح غرضه أمام أعين الجميع، دليلا قاطعا على كتابته التقرير المغرض ضد حسن. لذلك ورط الجميع، حيث لا أحد يستطيع تجاوز خبث التقرير المكتوب. كما أنه لن يستطيع أن يتراجع عن زلته أبدا، قد يعرض نفسه للمسائلة والعدالة بعد أن شغل دوائر الدولة الحساسة بخبث نيته، شغل دائرة أمن المنطقة ومديرية الأمن العامة وقاضي التحقيق وإدارة المدرسة والتلاميذ وأسرة حسن...الخ.

أنه بحكم الماجن، لم أستطع مجادلته تحت ذلك السقف المرعب، لذا فضلت السكوت والتنصت. هجست بقرص

الشمس تغازل ضميري بدفء حرارتها وأنا جالس بجانب كومة فحم يحترق، انا أدرك وهو يدرك بأن الزمن لن يبقي منه سوى رمادا يتطاير في الهواء...

هجست في تركيبة عقليته عقدة روضت شخصيته على نمط خاص؛ كأنَّه استلهم مقوماتها من عقلية جهاز المخابرات، هذه الصفة شكلت في ذاته جدار صد ضد كل من يحتك بجدار النظام، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار موقعه الحزبي الذي تدرج إليه وحنينه الدائم لجهاز المخابرات، كأنَّه مارس عمل المخابراتية أملا بإمكانية إعادته لعمله السابق في جهاز المخابرات...

أما أنا؛ شعرت بوجودي الغير طبيعي في تلك البقعة وكأني الشيء الغير مناسب في تلك اللوحة، مشتت الفكر، ضائع، أود أن أدلي بشهادتي وأخرج من تلك اللوحة على محمل السرعة. شتات الفكر يسلط رعبا على القلب، يجرد أوصالي من الثبات، أهجس بالخواء يحيط بي من كل جانب، يا ترى من الشخص الجالس أمامنا؟ من ذلك الذي يستند على جدار الحائط؟ من ذلك المُعَقّل القابع على تلك الكنبة؟ الهاجس يرتعب من كل شيء موجود في هذه البناية، حتى من السقف والحيطان والخزانة والطاولة، من ذلك الخواء الدائر في الفضاء الغير متناهي، من الهواء والأثير المتلصص على الأفواه والآذان. الرعب في كل مكان له صورة من الصور، عابث في كل شيء، لربما أجهزة التنصت مزروعة في سقف الغرف وفي ملابس الجالسين..

لم يكن الجالس خلف الطاولة شخصًا عاديًا. لا بد أنه ضابط أمن أو منتسب لإحدى دوائر السلطة، فهذه البقعة محصّنة، لا تطأها قدم غريبة، ولا يعمل فيها سوى من ارتضى لنفسه أن يكون كلب حراسة للنظام. عيونهم مدرّبة، أنوفهم أشبه بأجهزة تعقب، تشمّ التفاصيل عن بعد أميال. إنهم أبناء دائرة الأمن... دائرة الخوف. اسمها وحده يزرع الرعب، فكيف بمن يعملون تحت لوائها؟ لا أهجس بهم بشرًا، بل كائنات شُحنت بالأوامر، جُرِّدت من الرحمة، مدرّبة على الاصطياد والتتبع. وحوش لا تعرف التردد، ولا ترتعش أياديها، حتى وإن ارتعشت القلوب من حولها.

لذلك آثرتُ ألا أجادل داود، ولا أناقشه، ولا أخوض في سجال معه، فما خفي من الخطر أعظم من أن يُغامر المرء بكلمة زلِقة. آثرتُ الصمت، ففي ذلك المكان لا يُسامَح المخطئون. جلستُ ثابتًا، كصخرة لا روح فيها ولا فكر، لا لسان لي ينطق، ولا نفس يتردد، سوى عينان تدوران في محيطي كأنهما مجسّات إلكترونية ترصد وتُسجل، تلتقط الإشارات من وجوه المارين، تقرأ ما خُطّ على الجباه من خوف أو سطوة، وتعدّني بصمت للمرحلة القادمة...

لم يطل جلوسي في تلك الغرفة أكثر من ربع ساعة، بعدها جاءني أحد الجنود يبلغني بضرورة الامتثال أمام القاضي للأدلاء بالشهادة.. حيث تم أعادة فتح جلسة التحقيق مع الأستاذ حسن مرة أخرى للاستماع لشهادتي، وذلك لاتخاذ قرارا نهائيا بالقضية المنسوبة له.

كـان داود قـد سـبقني إلـى الإدلاء بشـهادته، كمـا أخبرنـي. أمـا تـأخري عـن حضـور جلسـة التاسـعة والنصـف، فلـم يـأتِ علـى ذكـره أحـد، كـأن التـأخر بـات عرفًـا مألوفًـا فـي ظـل أزمـة النقـل التي تفتك بالبلاد، والتي كنّا قد ناقشناها مرارًا.

قبـل أن ينـادي علـيَّ المنـادي لأدخـل قاعـة المحاكمـة، وقبـل أدلائـي بشـهادتي بـدقائق، كـان القاضـي قـد نبـه حسـن إلـى مسـألة خطيـرة وحاسـمة، ذلـك مـا عرفتـه منـه لاحقـا، حيـث قـال لـه بالحرف الواحد:....

- أسـمع يـا حسـن أذا مـا تطابقـت شـهادة الشـاهد الثـاني مـع شـهادة الشـاهد الأول، فـأعلم بأنـك مـدان، وأنـي ملـزم أن أحكـم عليـك بالإعـدام شـنقا حتـى المـوت حسـب القـانون، هذه فرصتك الأخيرة.

وبـذلك وضـعه بـين قطبـي كماشـة المصـير، أدخلـه فـي دوامـة الصـراع المريـر الغيـر مجـدي، لا حولـة لـه ولا قـوة إلا بـالله، جعلـه يعـيش حالـة جدليـة مـع القـدر الآنـي، لـيس لديـه أيـة فرصـة للنجـاة أو للهـرب مـن واقعـه المـر؛ إلا بالرجـاء المـراق علـى طـرف لسـاني، خاصـة فـي ظنـه كـان قـد وضـعني ضـمن كفـة الأعـداء المتـآمرين عليـه دون تفريـق، توقـع بـأني وداوود علـى اتفاق مسبق في حياكة صيغة التآمر عليه.

طـاف بـه بركـان الخـوف، لـن تُخمَـد نيـران صـبره إلا بعـد أن يسـتمع لشـهادتي، أنهـا دوامـة لـيس لهـا أول ولا آخـر، لفتـه بلفـائف الأسـى، دَرَسَـت فكـره بـأتراس الشـك واليـأس، الـتمس

عجـزه، مـا برحـت غـدت ترتعـد أوصـاله، أوشـك علـى تَلَقّـفْ مصـيره بـلا شـك، أنهـا لحظاتـه الأخيـرة الحاسـمة، أنهـا الجولـة الأخيـرة مـن نزالـه مـع القـدر، ضـبحت الـنفس وافتقدت طراوتهـا، أضـحت تجـر أذيـال الخيبـة والعنـاء إلـى خـط النهايـة، لـم تنفـع مبرراته في إقناع القاضي ببراءته.

نسـبة النجـاة مـن المصـير المحتـوم ضـئيلة جـدا، تكـاد لا تـرى بـالعين المجـردة، أنهـا تحـت قيمـة أعشـار الواحـد مـن وجهـة نظـر حسـن، مقرونـة بمـدى تعـاطفي معـه وتعـاطف القاضـي معـه، مقرونـة بالرحمـة المراغـة فـي نفسـي، أنهـا نسـبة مبهمـة بالنسـبة لـه، مغلوطـة. لـذا تكَّبِـلَ بيـأسٍ شـديدٍ غطـى علـى عمـق تفكيـره وهوسـه، أبعـده عـن الواقـع المحـيط بـه. أوهامـه الغيـر محسـوبة، وافترائـه علـى ذاتـه، وسـهو ذهنـه، قـادوه لنهايـة الجولـة قبـل أن تبدأ.

فـي أفـق ذلـك الصـمت الـذي يرهبـه يكمـن صـوت زنـم، صـاخب، ينفـذ مـن داخلـه، يجعلـه لا يـرطن إلـى قـرار لمـا يـدور فـي فكـره ومـا حولـه مـن منغصـات، رهبـة جـائرة كانـت قـد تملكتـه، بـات لا يـرى أمامـه سـوى خـط مسـتقيم يـؤدي إلـى نهايـة المطـاف، ولا يـرى فـي تلـك النهايـة سـوى وحـش قـابع خلـف ذلـك الخـط ينتظـر افتراسه.

هـو لا يـدرك زغـب الرحمـة المـرتعش فـي ضـميري وضـمير القاضـي، ولا يسـمع صـرخة الحـق التـي تزمجـر فـي فضـاء قاعـة التحقيـق. ذلـك السـيف الغيـر مرئـي يرافقنـي فـي حـش أشـواك الحـدث، مـذ أن طُلبـت للشـهادة أمـام دائـرة الأمـن. كـان اليـأس قـد

استباح كيانه، رسم له سرابه، ونزع عنه قدرة التفسير. كانت مستشعراته العاطفية قد تعطّلت عند مدخل زنزانته؛ فلا حرارة الرجاء تصل إليه، ولا نسمة رحمة تلامس وجدانه. كأن الزمن قد اختصر كيانه في هذه اللحظة: بين فقد أطفاله وزوجته، وبين الشهادة التي تقف على شفتي. بينما اصبحتُ بين قوس القرار، في المنتصف البأس، بين أن أكون شاهدًا.. أو أن أكون إنسانًا.

لحظات عجفة، ثقيلة، كان قد تَحَمَّلَ قساوتها وهو مارٍ بمحطاتها الضبابية محطة بأثر أخرى؛ حتى أدرك نهاية الطريق. وهو يدرك جيدا - لا ينجده من تلك المشكلة سوى خيط واه لا يُرى بالعين المجردة، أحد طرفيها معلق بالسماء، وطرفه الآخر مشدود بطرف لساني.

كان يترقب تلك اللحظة بشغف، لينهي معاناته التي باتت لا تحتمل، ينتظر النهاية أو الفرج بتأفف، للغُلة التي هو فيها، فيما كان يتنفس الصعداء من حين لآخر عبر دائرة الأضواء المنيرة من حوله، كان يستمد منها أمل في ظل جو مشحون باليأس والترهيب، كان قد قدر بأن هناك نور في القاعة وهو لم يأتي من فراغ.

لحظات صمت وترقب ماجت في ذهنه، اخترقت حياته بصخبها، تزينت بسكينة وهدوء عام، أكتنفها غموض، قد يكون ذلك الهدوء والسكون الوصلة الأخيرة قبل أن تحل العاصفة. كل لحظة منها فيها وجس، كل لحظة منها تسرقه من عالم الوجود لعالم الغياهب والافتراء، صار يتمنى أجله

على حالة الاهتراء التي أفسدت حياته، لم يعد يستطيع تحمل ذلك العناء والفراغ المدوش وهو لا يقدر أن ينفض غبرة التهمة عن أسماله البالية.

غدتْ الروح تستشيط وتتسامى مع تفاعل الموقف، تطير أمامه كدخان ينفذ من كوة محترقة في صدره، بل انه يهجس بها تنفذ مع زفيره الساخن، هكذا يرى اللحظة تدور حوله مع تخيله حز الحبل لرقبته قبل أن ينفذ به القرار. ادرك بأن موته معقود في صرة التنفيذ، أضحى قاب قوسين أو أدنى من الواقع، الحقيقة المرة التي تغزه، تذكره بنهاية المطاف، ذلك ما يستشعر به وهو يرى ذاته وحيدة على خط العجز بعد أن كان قد استمع لشهادة داوود..

في واقعه المريض أضحى نجاته أو موته سيان من وجهة نظره، لقد جُرد من إحساسه، ما عادت عناوين الحدث تثيره أو تكسره بعد أن لم يبقى فيه شيء يكسر، لم يعد صبره يحتمل المزيد بعد أن كهل في ذاته وتكور، أضحت النتيجة بالنسبة له مجرد قرار أعمى لا يزيده حلما ولا يؤخر- تسمم البدن بما فيه من كفاية، تجمد العقل عند حدٍ أغبر، به نضّ كل افكاره وقوته، أضحى فراغا يدور في فراغ أعسر....

لكن من يتقي الله يجعل له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، (وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا). صدق الله العظيم.

لقد تجلد أمام تلك العاصفة الهوجاء التي ضربت خيمته على حين غفلة، ظلَّ واقف على قدميه كشجرة نزعت كل أوراقها فلم يبقى فيها سوى أعواد نافلة، رغم الانتكاسة كان قد حافظ على كياسته، صَبُرَ صَبْرُ الجمل على جلده، تشبث بحبل الله المتين بصمته، قاوم ذلك المد الهيولي بخشوعه وزهده، أبتهل إلى الله، راجيا رحمته تعيد له توازنه.

3- مجريات المحكمة

دخلت قاعة المحكمة والوجل يتملكني، بل أطبق على جل أوصالي، شعرت باضطراب عام في الفكر والنفس والقلب، صرت اتخبط بين يقين أمسك به ووجس تلاعب بمشاعري، بين أن أفلح في الشهادة وأن افشل بها، بين أن أصيب أو أخيب بسعيي، شعرت بخدر يدب في أطراف القدم، كأني كنت بحاجة لمفازة أطول من تلك التي بين غرفة الاستراحة وقاعة المحكمة، لأعيد بها توازني وضبح أنفاسي للوضع الطبيعي، قبل أن أقابل السيد قاضي المحكمة.

احتجت لدقائق إضافية أخرى لتهدئة الذهن والقلب وترتيب مفردات أوراقي التي تلخبطت نتيجة اضطراب الفكر المفاجئ، فمواجهة القاضي ليس بالأمر الهين، وبالذات في قضية فيها حياة أو موت. لذا احتجت لدفقة عزم يساعدني على الثبات ونطق الحق....

أنها لحظات حسم أخيرة، لا مجال للمماطلة والمناورة، يجب أن أكون أو لا أكون، يجب أن أصيب الهدف بدقة، أي انحراف في التصويب ستتجه رصاصتي إلى صدر حسن قبل أن يصدر القاضي قراره. يجب أن أكون جبلا أمام زحمة التحديات المحيطة بي، يجب أن أكشف لغز العقدة للقاضي، يجب أن أجعل لبصمتي هالة في أعين المخدوعين والمشككين والمنافقين والعابثين بحياتنا، ليرتفع صوت الحق عاليا، صوت لا يعلا عليه صوت.

يجب أن أحسم القرار الذي ما عاد يحتمل مماحكات جديدة، وأني لأراه يُكتَب بضميري وضمير القاضي معا، فالحالة لا تحتمل التأني والتحميص ونسيان القدر فوق الرفوف...

المشكلة التي واجهتني حينها هي كيف سأبدأ الحوار؟ كيف سأوصل الفكرة؟ أنا لا أعرف سبل المشوار الذي سيعتمده القاضي. من أي نقطة سأنطلق؟ وأين سأستقر؟ إلى أي مدى ممكن إقنع القضاة؟.. كيف ابتدئ النقاش؟ لم تكن لي تجارب سابقة في المحاكم لتعينني، لم تكن لي خبرة في هذا المجال قط غير بعض المعلومات السطحية التي أستقيتها من بعض أفلام السينمائية.

دخلت متوكلاً على الله، متسلّحًا بصبرٍ يبدّد ظلمات الليل، فيما الرهبة تكبّل جسدي، ويقين يشدّ قلبي. لم أكن سوى شاهدٍ فحسب، إلا أن للمكان هيبة، وللقضية وقعٌ عظيم، إذ تتعلق برئيس الجمهورية شخصيا. ذلك الجبروتُ الخفيّ يسكن خلف سُحُب الهواجس، يتسلّل إلى النفوس، فيقوّض كبرياءَ الشخص، ويهزّ المشاعر بسطوته. فليست هذه المحكمة كسائر المحاكم، بل إنها محكمة أمن الدولة - حيث تُقرّر الحياة من عدمها، ولا مكان فيها للون الرمادي؛ فهي لا تعرف سوى الأبيض أو الأسود.

بات مصيرُ حسن وعائلته معلّقًا بكلمةٍ عالقة في فمي، كل خيطٍ من خيوط الإنسانية، وكل معنى في الدين، وكل رجاءٍ في الله، وكل عينٍ رجاء بين الناس، وكل ومضةِ إحساسٍ في داخلي- كانت تلاحق خطاي وتترقّب همس كلماتي. ففي تلك

اللحظة، وتلك المواجهة المصيرية، أصبح ضميري موضع ترقب، وكأن عدسة الزمن ترصد اختياري وتتّخذ منه شهادة على ما سيحدث بعده.

كان الوجل يسكنني، منبثقًا من قلة التجربة، وكنت أستشعر ثقله في محيطي؛ فكم من أناس تورّطوا في هذا المكان وهلكوا لأسباب تافهة. ذلك المشهد ترك أثرًا في نفسي، فشدّدت على ذاتي الحذر، رغم أن مشاكلهم بدت أقل تعقيدًا وخطورة مما يواجه "حسن"... فقد أُعدم كثير من الشباب فقط لانتمائهم إلى حزب معارض، وآخرون أُعدموا لأنهم كانوا محتاجين.

ما زلت أذكر مجيد ولي، الذي أُعدم بتهمة سرقة ثلاث قضبان حديد من محطة السكك الحديدية- قضبان مهجورة، أراد بها تسقيف غرفة في بيته المتواضع. لم يرحموا فقره، لم يقدّروا عجزه، لم يصغوا لتوسّلاته. تجاهلوا ضيق حاله، وعجزه عن الشراء، الحصار كان قد نهش قدرتهم على العيش، لكنهم لم يروا فيه محتاجًا، بل رأوه متجاوزا على مصالحهم.

بتعسفهم المفرط المبالغ به؛ كانوا قد قشروا تفاحة العدالة بحيث نزعوا عنها جِلد الرحمة، جعلوها تنزف وتتعفن في أعين الناس؛ لقد تجلدت حيثياتها ويبست، أضحتْ لا تعني المعنيين بها والمحتاجين لها بشيء. ومع تعاظم جرائمهم وتفننهم في الترويع، كانوا قد تجاوزوا حدود الله والإنسانية، لتوالي قصص الجرائم والتعذيب صارت العامة تنبذ افعالهم.

منذ الأزل، والدنيا قائمة على صراع لا يهدأ بين الحق والباطل. ومهما تفرعن الباطل في غلوّه، لا بد أن يقع يومًا في شِراك الحق. هو ذاته صراع ضمير ووجود، بين الجاني المتلفع بظلال الكذب، والمجني عليه أسير القلب والحقيقة. بين القاضي المتلحف بالحكمة وميزان العدالة، والمتهم الملاط بعناد الذنب وقسوته. إنها دوّامة تدور في فلك الحق بفعل خبث الباطل، لا تعرف سكونًا، تلقفُ الوجوه المتنازعة وتطحنها في رحى المصير... حيث يمنحُ القدرُ نصيبهُ لمن يشاء، ويُترك فتاتًا في قِدر الآخرين.

الدوامة التي افتعلها داود كانت كالثعبان تلقفت الجميع بغلها، جعلت الحق يتشح بخمار الباطل على مدى سنتين من العناء والعصف المستمر، لم تبقِ من الثقة إلا شظاياها، لفّت الجميع بغلّها، حتى باتت المواجهة مرآة للخوف ذاته - خوف من شكله، من أنيابه، من صديده الأسود. يا ترى؛ أيمكن أن يزهق الباطل وتعود المياه لمجاريها؟ حيث الخوف من المواجه يكمن في الخوف نفسه، في شيطانية شكله وغله، الخوف من أن يعتلي الباطل سنام الحق، حينها ينهار الحلم في نفوس المتورطين بالقضية، تلك هي الفوضى الدائرة في فكر الجميع.

ترقّب الجميع بزوغ شمس الحق في سماء القضية، علّ السكون يعمّ الأجواء المضطربة. وكان أشدّنا لهفة وانتظارًا كان قاضي التحقيق، ذلك الرجل الذي بدا جليًا حجم هشاشته وتورطه العميق في خيوط القضية، بحكم حساسية موقعه.

أحسست أنه أكثرنا اضطرابًا، يتهرب من حدّ القرار كمن يعلم أنه إن أخطأ، حكم على نفسه بالفناء.

خالجني شعور بأنه يعيش صراعًا داخليًا تمزقه نوازع الإيمان وخيوط الفتنة. كان رجلًا مؤمنًا، ولكن إيمانه ذاك شدّ وثاق يديه، غرس العجز في قلبه، فعجز عن اجتياز المأزق. سكنت الرهبة أعماقه، خشية اتخاذ قرار يبدّل المصائر. ما كان يخشاه هو الله، وما أربكه هو سمّ تقريرٍ غراب البين الذي حمل الخبث بين طيّاته. كان يدرك ذاته محاصرًا بعيونٍ تترصده من كل اتجاه، يعلم أنه إن أقرّ الخطأ، حمل وزره وحده، تحمل الذنب كاملًا. هكذا وجدته معلقًا بين شفا الحق وأناء الباطل، كغريق يتخبّط في لجّة التجاذبات بلا طوق نجاة.

لذا، حسب تقديري، لم يبقَ أمامه إلا منفذ ضيق، معلق بما سأتفوه به، وكأنَّ كلماتي هي حبل النجاة له ولكل المعنيين في القضية، ستنقذه من النفق المظلم إلى برّ الأمان.

وجدتُ الوجس ماثلا بين عينيه خوفا من أن تميل كفة العدالة لجانب الباطل وهو مجبر دون إرادة أن يقر ذلك، أنه واثق كل الوثوق من أنها قضية كيدية وقد كُبلَ بها دون رغبة، انبجس قلقه نتيجة حرصه على صورة العدالة، خوفه آتٍ من أن يخرس صوت الحق في ميدان الشر، حيث لحالات الشواذ نصيب في كثير من أمور الحياة وعقدها.

لحظات حرجة مررت بها وكأني اعيش فلما سينمائيا، لحظات عصيبة تحترق في الذات كالجمر، أثقلت انفاسي بدخانها، لوت لساني بثقلها، كانت ذاتي قد مسها الارتباك حين دخلت في نفق الصمت الأخير من المواجهة، حين تأكدت بأنها أزفت وعستْ بالدخول في لحظة التحدي الأكبر، عندها ايقنت بأن ليس كل شيء هناك سيء، لابد من ومضة أتمسك بها ليبرق المساء الآتي.

ببساطة كنت خائفا من شكل الغموض الدائر حولي والطارئ في ذهني، خاصة حين علمت بأن داوود قد شهد في التحقيق ضد حسن مثلما أخبرني بنفسه.. كما أن لـ هيبة المكان تأثيرا على الشخص مهما علا شأنه ومركزه، إضافة للوجل المرسوم في نفوس وقلوب العراقيين من ذلك المكان الموبوء بالعقارب والعناكب والثعابين السامة، المسكون بالجن والشياطين والعفاريت - أنها مديرية أمن العراق – أي أكثر المواقع تحسسا وخطرا في الدولة، وأكثرها أمنا وصرامة. أنها أقدس مكان لدى النظام، لن يدخلها إلا منتسبو الدائرة والمتورطون بقضايا سياسية فقط.

دخلت قاعة المحكمة والتي هي عبارة عن غرفة 5× 8 تقريبا، كان المتهم حسن يقف في قفص الاتهام والموضوع في أقصى الزاوية اليمنى من مدخل القاعة، فيما القضاة الثلاثة يجلسون على منصة الحكم القابعة في وسط القاعة من جانب الأيسر من المدخل، قرب المدخل توجد طاولة صغيرة مربعة بطول متر موضوع عليها كتاب الله المبجل (القرآن

الكريم)، وهو المكان الذي يقف به الشاهد. المشهد للرهبة التي تتوجسه كانه يوم القيامة.

كان حسن واقفاً في الزاوية خلف القضبان، تغلف ملامحه سحابة من الرعب والارتباك وكأنَّ عزرائيل يقف على رأسه، بتوجس ينتظر صافرة نهاية الشوط الأخير من لعبة التهمة. عندها التقت عيناي بعينيه، وما أن استطاعت العدسة من تجريده من غبار عتمة القاعة؛ حتى وجدت فيهما اتساعاً موحشاً من العناء والألم، وتجعّداً يكشف عن شكٍ عميقٍ في داخله. كان وجهه متجهماً باليأس، عزيمته منكسرة، قواه منهارة، كأنَّ الحياة انسحبت من ملامحه تاركة صفرة الشحوب تكسوه. حينها تملكني حزن شديد عليه، ها أنا أراه بعد فراق دام أكثر من سنتين بهيئة منكسرة..

هجست في نظرات عينيه الغائرتين خلف الألم موجات اتهام صريحة لي، سخط مراء في قسمات وجهة، نظر إليَّ نظرة الهميم المكسور، تائه، تلفه دوامة صمت مطبقة على ذهنه، هوان لازب في بدنه، حيرة مرة تغمر فكره، غارب بعصف من التيه والشرود لا حدود لهما.

رأيته واقفًا في وسط العتمة، بين ثنايا الرعب واليأس، الحزن يوشم قسماته. بدا لي في ذلك الدجى كعمود نور عطب مصباحه، يفتقد مفاتيح الصبر في لجة تنذره بما سيحل به من كرب بعد أن تطفأ أنوار قاعة التحقيق... بنظرته لي كأنه أخبرني بما آلت إليه الأمور في الدروب المغلقة، بما ترسبت عليه من عقد ومصاعب تراكمت في جحره. كأنه أخبرني بما

تجـرّع مـن مـرارة العلقـم مـن فلتـات لسـانه. تبـدو علـى قسـماته انـزلاق خطـوط عبـث شـاحب. هالـة سـوداء خيمـت فـوق عينيـه، حتـى غـدا لا يبصـر الأشـياء كمـا هـي، ولا يلمـح فـي الوجـوه إلا الخــواء. لــم يعــد يقــرأ الأحــداث بمعانيهــا، ولا يحــسّ نــبض المشــاعر فــي مــن حولــه، الكــل عنــده أصــبح أجــوف، منــزوع الضمير، وضع الجميع في كفة ميزان أعدائه بلا تفرقة.

حيرتـه قادتـه إلـى التشـكيك بـ نيـة الجميـع، لـذا حـين دخلـت قاعـة المحكمـة كـان قـد تمـتم بكلمـات لـم أتوقعهـا منـه. لقـد أخبـر القاضـي قائلا:...

- سيدي هذا واحد منهم، هذا واحد من المتآمرين عليَّ...

كـان ذلـك قبـل أن أتفـوه بكلمـة، نتيجـة العقـد الملتفـة علـى عنقـه، بــات لا يميــز بــين طيــف الالــوان، لا يعــرف كيــف يتصــرف ويتعامل مع الرموز التي تقف أمامه.

حينها طلب القاضي منه السكوت لتسيير الجلسة.

أنهـا لحظـات الحسـم الأخيـرة، لحظـات حرجـة، خاطفـة، بعـدها سـيكون أمـام أحـد الخيـارين، أمـا أن يكـون أو لا يكـون، أمـا أن يكـون فـي موضـع مبتـدأ متقـدم ليتـرك الجمـع خلفـه، أو يكـون فـي موضــع خبــر كــان فــي آخــر الركــب، وعلــى ضــوء المعطيــات القادمــة ســتفرز جلســة المحاكمــة الأخيــرة النتــائج أمــام عينيــه، معتمدة على بزل الأقاويل من نفيي وتأييدٍ للتهمة.

الـزمن القـادم هـو زمنـي المطلـق، سـأكون المحـور الرئيسـي فـي توجيـه القضـية لجهـة مـا، سـأكون المحـور الـذي يسـتند عليـه القاضـي وكـل مـن تـورط بالقضـية بالإضـافة لحسـن وذويـه وأصدقائه، أو سأكون الهوة التي سيدفن فيها حسن إلى الأبد.

سـأدحرج الفكـرة بـين يـدي القاضـي فعليـه أن يتفحصـها ويفسـر مضـمونها بحنكـة، وإلا سـتفلت مـن قبضـة يديـه لبحـر التيـه كمـا تنزلـق السـمكة. سـأمتثل بـين يديـه لأضـع الـنقط علـى الحـروف لأوضـح معنـى الجملـة للصـورة المغشـية أمـام عينيـه. كنـت عازمـا علـى قـول تفاصـيل القضـية بحـذافيرها وبالـذات فقـرة تحريض غراب البين لي....

فـي نظـر حسـن كـان القـرار قـد أتخـذ مسـبقا، فالقاضـي لا ينتظـر مـن الجلسـة الأخيـرة سـوى توقيـع القـرار. القاضـي هـو الآخـر كـان فـي يـأس مـن نجاتـه، كـان ينتظـر بفـارغ الصـبر شـهادتي ليفلـت ذاتـه مـن قبضـة اليـأس التـي خدشـت ضـميره، ينتظـر أن أرفـع غطـاء الصـدف عـن اللؤلـؤة الثمينـة المكنونـة فـي قلبـي. تـرى مـا ذنـب القاضـي الـذي درس العدالـة مـدة سـت سـنوات مريـرة، ليـأتي مجبـرا أن يحكـم بقضـية لا تعتبـر قضـية مـن وجهـة العدالـة؟، ليقـر حكمـا لصـالح طاغيـة مـن وجهـة نظـر قـانون مسيس؟.

كـان داود قـد أقـر التهمـة علـى حسـن، بـل ثبتهـا بمسـمار الـبغض علـى جبينـه، وهـذا يعنـي أنـه أقتـرب مـن خـط الخطـر كثيـرا، أوصـد عليـه منافـذ الهـرب. لـذا كـان يـدرك بانـه قـد قطـع مشـوار الطريـق وأنـه يقـف علـى خـط النهايـة، فمـا بقـي منـه لا يعـد سـوى

جدولة عمل روتيني في نظره، ولن يستطيع أن يحَرِّف مسار فكر القاضي عن حد السيف الذي ينتظره قط...

كل شيء معلق بما سألفظه أمام القاضي. لحظات متأرجحة بين وهدة الرجاء والقنوط، لم يسبق له أن مر بموقف كهذا. الحالة أثقلت كاهله حد الانكسار، فلم يجد في جعبته منفذ سوى أن يسلم أمره لله وللقدر، مستسلماً لعاصفة لا يملك لها دفة، وقد غدت الإرادة متفرجة، عاجزة عن تأخير المصير ولو خطوة واحدة. كان يقف على الحجر الأخير من الزاوية التي وضع فيها، فالهوة بانت واضحة تحت قدميه.

في تلك اللحظة، لم يرَ نفسه سوى طائرٍ منكسر الجناح، العقاب الجارحة تحوم فوق رأسه دون أنْ يستطيع تفادى خطرها، دون أن يستطيع فعل شيء ما حيال سوء طالعه، كان قد أذله سوء الطالع، ولا حيلة تُرجى لدفع غيض القادم المُبهم. كل ما في وسعه فعله؛ هو أن يتوارى داخل نفسه، أن يتوارى خلف الفزع، أن يدفن رأسه تحت الرمل كالنعامة التي لا تود مواجه مصيرها.

حالة يُرثى لها، تطوّقه شقشقة ضجيج حادة، تربكه قعقعة السيوف التي تشتد في صوان أذنيه، فيما يجلجل أعماقه صراخٌ وعويلٌ وسخطٌ وسكونٌ يعصف بذهنه كزوبعة لا تهدأ. لا حيلة له في مماطلةٍ لا تُجدي نفعا، ولا نجاة من سلطان قَدَرٍ لا يُرد. خارج قفص الاتهام تتربص به ذئاب شرسة. إنها أيامٌ تتثاءب كالدهر، وساعات صبر تُقطِّع النفس كمخارز النَدَم.

كنتُ قد تحسستُ انكساره، التمست توسله بنظرات عينيه، في الحقيقة كان يستجدي الرحمة من الله، مني، من القاضي، من الحيطان. يتأمل أن تصفع الرحمة ضميري لأنتشله من واقعه المزري، الأجواء مغبرة من حوله، لا يستطيع تحديد اتجاهه، وهو يضبح بأنفاس مختنقة خلف أمل مغشي بالغسق.

وجدته في تلك الدوامة دون يقين، يتأمل أن أزيح عن كاهله هموم الزمن، هكذا سلم أمره لله وللقاضي وللساني.

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) صدق الله العظيم.

4- لحظة الشهادة

ومـا أن نـادى المنـادي علـى أسـمي حتـى دخلـت قاعـة المحكمـة والرهبـة تتملكنـي، هجسـت بانكمـاش تـام فـي جسـدي وكـأني واقـف علـى حـد السـيف، يـداي وقـدمي تكبلتـا بهـم غيـر محتمـل. مـا أن دخلـت القاعـة حتـى سـقطت نظـرات عينـي علـى وجـه حسـن، بـدى لـي شـاحبا كشـمس الغـروب. اختزلتـه أيـام الزنزانـة إلـى شـبح باهـت، الخـوف يركبـه مـن رأسـه لأخمـص قدميـه، تحسست ضعفه وهوانه ومشاعره ورجائه....

صوت القاضي قطع عليّ تأملي:...

– اسمك؟

– عصام فاضل محمد.

– عمرك؟

– ستة وثلاثون عامًا، سيدي.

طلـب القاضـي أن أضـع يـدي علـى كتـاب الله لأحنـف بـاليمين، ثـم قال بلهجة صارمة:

– ردد خلفي: أقسم بالله العلي العظيم أن أشهد بالحق.

– أقسم بالله العلي العظيم أن أشهد بالحق.

ثم قال:....

– يا سيد عصام، أنه سؤال واحد فقط، وأريدك أن تجيب عليه بكل صدق.

– حاضر، سيدي.

– هل فعلاً المتهم حسن، كما هو مدون أمامي، قد تهجم على السيد الرئيس صدام حسين حفظه الله بالقذف والشتم أمامك؟

رفعت بصري بثبات، واستحضرت ضميري، ثم أجبت:

– أشهد بالله العظيم بأن الأستاذ حسن...

قاطعني القاضي بغضب:

– هو الآن متهم، وليس أستاذًا. هل فهمت؟ – نعم، سيدي.

ثم أكملت بثقة:

– أشهد بالله العظيم بأن المتهم حسن لم يسب السيد الرئيس صدام حسين حفظه الله، ولم يذكره بسوء أبدًا.

وإذا بحسن يقطع سكون القاعة بصوته المرتجف، كمن لم يسمع ما نطقت به، وكأنَّ غشاوة الحنق غطت على سمعه وبصره. صاح وهو يشير إليّ بسبابته المرتجفة:

– سيدي، هذا واحدٌ منهم! هذا واحد من المتآمرين عليّ!

ساد القاعة همس مكتوم، أما أنا فوقفت وفي داخلي صمتٌ مرير. لم أنبس بشفة، بل رمقته بنظرةٍ حملت كل أسف الدنيا.

مـا اسـتوقفني لـم يكـن اتهامـه، بـل ذلـك اليـأس المتفجِّـر مـن ملامحـه، الحنـق الـذي اسـتبدّ بعقلـه حتـى عبـث بتفكيـره، فشـوّه نوايا من حوله.

أدركـت حينهـا كـم هـو يحتضـر فـي داخلـه، حيـث ذاب فـي تـأويلات مغلوطـة أودت بـه إلـى حدٍّ لـم يفقـه أننـي أنقذتـه للتو مـن قبضـة التهمـة. عنـدها رأيتـه بعـين القلـب، لا بعـين الخصـومة: أعمـى البصـيرة، أصـمّ الوجـدان، أبكـم الفهـم... لا يفقـه مـا يجـري حوله.

عنـدها التفـت القاضـي إلـى حسـن، وكـان وقـع كلماتـه يحمـل مزيجًـا مـن الغضـب والشـفقة، وقـال لـه بنبـرةٍ فيهـا شـيء مـن التأنيب:

– يـا هذا! ألا تـدرك مـا قـال الشـاهد؟ لقد بـرّأك مـن التهمـة، أنقـذك من العقاب.

ثـم عـاد بنظـره إلـيّ، وخفّـت حـدّة وجهـه، وكـأنَّ اعترافًـا ضـمنيًا بالعرفان سكن ملامحه:

– شكرًا لك يا بُني. مهمتك انتهت. تفضل بالخروج.

وأشار بيده نحو باب القاعة.

أطرقـت برأسـي امتثـالًا، وسـرت نحـو البـاب بخطـى واثقـة، لا فيهـا رهبـة ولا وجـع خفـي. لـم أكـن أعلـم وأنـا أغـادر إن كنـتُ قـد قـدمت شـهادة، أم ودّعـتُ بـين يـدي القاضـي مـا تبقـى مـن معنـى للثقة بين البشر.

حينها هجست بأن القاضي يود أن يفتك من المصيبة، كما لو أن جمرةً تلتهبُ تحت مقعده. كانت شهادتي له طوق نجاة تطلّع إليها بلهفة، فارتخت اساريره وتنفّس الصعداء، كمن أُعتق من قفص تهمة ظلّ يرزح فيه ظلمًا، كنت قد جردته من الغلطة التي كادت أن تودي به إلى الشرك والجريمة. لقد تحسست مشاعره. رغم موقعه، فهو إنسان له قلب يخفق بالقلق والرجاء، ورغبة خفية بالعدل تُكبلها نصوص صارمة وقوانين تتواطأ أحيانًا مع الباطل، مهمته الحقيقية تمييز الحق عن الباطل، لا أن يفاضل بين آراء المواطنين في شخصية الحاكم. لقد كان يدرك عبثية التهمة، لكنه قيد بسلطةٍ لا تسمح له بتجاوز ما كُتب، مهما كان جليلا.

ما أحزنني حينذاك، أنني لم أُمنح الفرصة لبسط الحقائق التي أعددت نفسي لإيضاحها أمامه، خاصة ما تعلق بتحريض "غراب البين" لي، والعقد التي دسها بيننا. لقد بدا القاضي أمامي كالسد المنيع، حجب عني سعيي، منعني من الإفصاح عن تفاصيل كانت تبين جوهر القضية، فصادر بذلك ما كنت قد صغته بعناية في أعماقي من كلمات منمقة. كأنه لمح في القضية طابع الكيدية، وأراد أن ينأى بنفسه بعيدا عنها، أما ما تبقى من شوائب، فاعتبرها قضية ثانية لا شأن له بها. بدا كمن يسعى للتنصل من فخ خبث داود صنعه، وقد أدرك تمامًا أنه لا مهرب له إلا أن أنفي بذاتي التهمة وأنقذ الجميع.

القضاء في جوهره، تجلٍّ للعدالة، وتطبيق لقواعد الشريعة الإسلامية، وإيمانٌ عميقٌ بكتاب الله. لطالما أقسم على ذلك

حين تخرّج من دار القضاء، أن يُحقّ الحق ويُرسّخ العدل، وأن لا يُظلم في قضائه أحد، فعذاب الضمير ثقيل جدا، لن يحتمل جلده وآثاره أن أخفق.. لذا بظني ود أن يتجنب حالة الالتباس الحاصلة والسم المدسوس في كأس داود، فالحكم على أنسان بالموت لإرضاء حاكم، هو قمة الاسفاف والتفاهة، وهو يدرك بأنَّ المتهم بريء وأن كان قد تجاوز على الرئيس بالسب، نتيجة ظرف البلد البائس، حيث قسوة كتم الأفواه هيَّ أقسى من الجوع والحرمان، قسوة ما بعدها من قسوة، وذنب لن يغتفر له يوم الحساب..

لا يستوجب أن يقتل الإنسان لهذه الاسباب التافهة،" وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً"، وفي موضع آخر يقول سبحانه تعالى " أنا خلقنا الإنسان في أحسن تقويم". أيمكن التجاوز على الخليفة والذات التي أحسن تقويمها الله لتلك الأسباب التافهة؟.

المسبة إن وجدت؛ أنما أوجدها الحاكم لنفسه بسبب تبدل أوضاع الوطن، فهي تتبع الجور الحاصل في الواقع المفروض على المواطن، فالخطأ لا يصلح بالخطأ، وإذا ما أقر القاضي جور الحكم في نفسه، أنما يكون قد خالف شرع الله، سيجعل نفسه تعيس حظ بقية حياته. الرسول محمد صلى الله عليه وسلم كان يعفو على من يتجاوز عليه.

بعد أن أدليتُ بشهادتي، التمستُ في نفسي اعتزازًا عميقًا، كأنني رفعتُ عن قلبي حملًا ثقيلًا من الهم. برأتُ ذمتي أمام الله، ثم القاضي، ثم المتهم، وتركْتُ للتاريخ ما سمعته أذناه

المصكوكة بالحنق من صدق كلماتي. حينها انسابَ في جسدي شعورٌ نقي، كالذي شف جلده من القيض بدلو ماء بارد. بعد أن جردته من العقاب الأكيد، شعرتُ بالراحة تتسلّل إلى ضميري، وكأن البال قد خُلي من الأمراض والعُقد.

يا لروعة أن يكون القلب كورقة بيضاء خالٍ من الشخابيط، وأن تمرح الروح في بستان الضمير بحرية. أن تُصغي لزقزقة العصافير وتهمس لك رفرفة الطيور، وتستمتع بجمال الطبيعة، بعبق الورود وروعة المناظر الخلابة... وأنت تعلم في قرارة نفسك أنك قلت الحق، وأحسنت الأمانة.

عدت إلى مكاني مشرق الوجه، بنظرة واثقة، وقلب تخلص للتو من قيدٍ ثقيل. كانت نشوة الإقرار بالحقيقة تسري في عروقي، وكأنها تطهّر روحي مما علق بها من ذنبٍ خامد. شعرت بخفةٍ لم أعهدها، كأنّي نجوت من حُكمٌ كنت فيه القاضي والمتهم. لقد رفعت ستار الشكّ عن بصيرة حسن، وأنرت ذهن القاضي بالحقيقة التي كادت تضيع وسط الزيف. لا أستطيع أن أغفر لنفسي لو تخاذلت ولم أمد يد العون لإنقاذ إنسان كان في متناول نجاتي.

لا ألقي باللوم على أحد، فنحن جميعًا كنا ضحايا لما ورد في تقرير "غراب البين": أنا، القاضي، جهاز الأمن، وكل من تورط في هذه القضية. غير أن القاضي لم يمنحني الفرصة الكاملة للحديث، بل اكتفى بجوهر القضية ليبرّئ نفسه أمام الله. هذه هي لبّ القضية، وكأن القاضي أراد أن يجد لنفسه مهربًا من نافذة الحق بعد أن اضطر إلى دخول نفق الظلم.

حينها قطع عليّ سُبل الاسترسال، بدا كأنه يريد أن يحصّن نفسه من التفرعات التي قد تؤدي إلى مسارات جديدة في القضية هو في غنى عنها. لذا آثر طيّ الملف برمّته، لينام قرير العين.

في تلك اللحظة، شعرت أن حاله لا يختلف عن حالي، فكلّنا تجرّعنا مرارة واحدة، وارتشفنا السم من ذات الكأس. كان واعيًا أمام الله، سبحانه وتعالى، الذي قال: ...

"وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل"

وقال أيضًا: ...

"من قتل نفسًا بغير نفسٍ أو فسادٍ في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا" صدق الله العظيم.

فكلام الله سيفٌ مسلَّط على رقاب المتقين. ولا شك أن القاضي، وقد نهل من معين الشريعة الكثير، وأكيد هذه الآيات مرّت عليه وبصيرته مرارًا. غير أنه كان مضطرًا لحمل عبء وظيفته، تلك التي أراد أن يكسوها ثوب العدل، لكنها جرّته إلى وادٍ من الذلّ لا يُرضيه على نفسه.

حين سطّر داوود تقريره المشؤوم، لم يكتفِ بأن يورّط أحدًا بعينه، بل لفّ الجميع في لفافة مكيدته، كمن رمى شباكه في البحر ليصطاد الأبرياء. ابتدأ بنفسه، ثم أدرجنا خلفه من ضابط الأمن، والسجّانين، والقضاة، ومؤسسة التربية والتعليم،

وحسن ورفاق حسن وأسرته وذويه، وحتى أصدقاؤه وتلامذته، بل والمجتمع بأسره. لقد جعل من القضية مادةً للغو يتداولها الناس في الشوارع والمقاهي. جمعنا جميعًا في خيشٍ من الخبث، ثم قذف بنا في مجرى ألسنة الناس، ولم تغلق أبواب القضية إلا بشهادتي، التي كانت أشبه بالمقصٍ مزّق ذلك الخيش وأطلق سراح الجميع والحقيقة من بين أنيابه.

كنت أراهم جميعًا ضحايا، لا يقلّون عني ألمًا، ولا عن حسن ظلمًا. حتى داوود، الذي انزلقت روحه في ممرات أناه وهاجسه، كان ضحية نفسه الأمارة بالسوء. تاه خلف نواياه، ضلّلت طريقه بانتمائه الأعمى للحزب. لم يكن القسوة في تعاملهم مع حسن نتاج خبث، بل انعكاسًا لوظائف كلّفتهم بأداء محدد، أولئك الموظفون اللذين ينتظرون رواتبهم نهاية كل الشهر. إنهم في نهاية المطاف أدوات داخل آلة ضخمة..

كان من الواجب أن يُحاسب ذلك الإنسان، الذي الصق بنا وصمة الغبن، كنقطة سوداء علقت بثيابنا لا يغسلها حتى الزمن. مع أننا عشنا حياةً طبيعية ظاهريا، ولكن في أعماقنا كانت الغصة تنام كجمرة، تلهب أحشاءنا بين الأحايين، تنذرنا بعبثية القدر وبفظاعة التهمةٍ التي لم نرتكبها، جعلنا نتبعه بمسارٍ ضحل من حيث لا نشعر.

لا أفهم كيف كان يغمض عينيه وينام قرير عين، بعد أن سلب منّا النوم والراحة؟ ذلك الذي جرد شريحةً كاملة من الناس من راحتهم، كما لو أنه دسّ السُّم في فم الجمع بلحظة غفلة... لم نبرح أثر تلك الواقعة، ظلّت كالندبة السوداء في الذاكرة،

عالقة فينا كقوقعة منتنة تزكم أرواحنا قبل أنوفنا. رأيت ملامحها حاضرة في نظرات الناس المشبعة بالملامة والاتهام الصامت، بالنفور الذي لا يُمحى. وكم حاولت أن أخلع عني تلك النظرات، أن أتحرر من وطأتها... لكن دون جدوى.

أنها جزء من العلاقات الانسيابية والإنسانية في المجتمع، كانت ترمي بثقلها النفسي على عاتق التخاطب والتعامل فيما بيننا، أضحت جدلية المراس.. من الصعب أن تجد نفسك منبوذا من قبل شريحة واسعة تحيط بك وأنت بحاجة إليهم، مع أني لم يكن لي دخل بحيثيات القضية، لكنهم اصبحوا غير مطمئنين على أنفسهم مني، مع أنهم غير مطلعين عن لغز الحدث، إلا أنهم تسوقهم ظنونهم ومشاعرهم... طالما ذكر أسمي في المشهد، إذا لي يد في ذلك المجال، فلا دخان من دون نار، أنه عين الظلم الذي تكبلنا به.

ما إن عدت إلى غرفة الانتظار التي كنت فيها، لم يقوَ على الجلوس مكانه، وجدته واقفًا عند الباب ينتظرني، يتأمل في ملامحي إجابة تشفي غليله، متشوقًا لسماع ما دار في التحقيق، راغبا تأكيد فحوى شهادتي لغايته، لم يسعفه الانتظار، أفحمته النار التي أشعل فتيلها، أصطلى بها خلال فترة إدلائي الشهادة. وجدته كمن فقد صوابه، كأنما يبحث بجنون عن مخرج من الخسةٍ التي اقترفها. ورط نفسه في قضية لم يدرك تأثير ارتداداتها، فوضع ذاته في دائرة الاتهام بين المطرقة والسندان. ربما كان يرتعد من فكرة أن يستدعيه

القاضي، وقد انكشف زيف إلى الملأ. ما حاول أن يبنيه من أوهام سقط في هوتها.

استقبلني بوجه مصفر نشف منه الدم، مستفسرا عن ما آلت أليه شهادتي، أو بالأحرى عن نتيجة ما تقيئت به قريحته من سموم، والذي صار يلعق من ذات الكأس الذي سقانا منه.

استقبلني قائلا:.....

- ها... أبشر! كيف كانت شهادتك؟

وقبل أن أطلق رصاصة الرحمة من لساني، أطلقها حارس بوابة المحكمة، ذلك الشاب الذي تبعني لاهثا لغاية غرفة الانتظار بوجهه المبتسم، ليبشرني بقرار القاضي قائلا:.....

- يا أخي؛ أبشرك؛ صاحبك طلع براءة...
- الحمد لله يا رب، شكرا لك يا طيب (حضنته وقبلته شاكرا سعيه).

ما أن فهم القصد، حتى خرَّ في مكانه كجبل الثلج أقحمته شمس الإدراك. ذبل، استكان في مكانه، كبالون فض خبثه، جثم على كرسيه متجهم الوجه، كمصباح أصابه العطب، لم يحتمل طاقة البشارة فانطفأ بغتة. حينذاك التمستُ الفارق بينه وبين الحارس الذي لم يحتمل وطأة الظلم، الذي أسرع نحوي بوجهه المشرق، يعتمر قسماته الفرح بنجاة حسن من الموت. ذلك الغريب أنصف ضميره في الوقت الذي به أسخم وجه غراب البين...

مـا عـادت بـين يديـه أوراق بيضـاء يشـخبط بهـا، اسـودّت كـل أوراقـه بسـواد ضـميره. صـار يتمـتم بكلمـاتٍ لـم أميزهـا، كمـن سـبّ القـدر وسـبني فـي سـرّه، لاعنـا حظـه العـاثر وتقـديره الخـاطئ الـذي أوقعـه فـي شـرك خبثـه.. مـا أن علـم بشـهادتي، حتـى شـف فاهـه وانحنـى رأسـه كجـذع لـم يحتمـل ثقـل الخـزي. خسـر رهانـه، وأختفـى ظلـه، أسـقيته مـرارة العلقـم مـن ذات الكـأس التـي جرّعنـا منهـا. جرّدتـه مـن قـوام الإنسـانية، حتـى غدت رائحته الفاسدة تسبقه إلى الأمكنة التي يبغيها.

5- مقياس حسن

بعد أن تسلّقت شمسُ الحقّ سُلم الأفق، أحرقت بأشعتها أوراقَ الزيف، فتصاعد دُخانها كشهادةٍ لا تخفى على أحد، وغدت الحقيقة جليّة كالبدر، تفضحُ ما خفي منها... أما أنا، ما إن خطّت يدي توقيعي على أقوالي في سجل التحقيق، حتى غادرتُ غرفة الانتظار دون أن أدقق بما دون فيها. لكنّني كنتُ أعلم دون شك ببراءة حسن، مثلما أخبرني حارس غرفة التحقيق بيقين صريح.

عندها سألت المسؤول عن التحقيق إن كنتُ قد أنهيتُ مهمتي وإن كان باستطاعتي العودة للبيت فأذن لي بذلك، حينها أخذت بعضي وخرجت منزويا تحت ظل الأمان والسلام عائدا دون أن أودع غراب البين، ذاك الذي تركته ينعب في زنزانته النفسية، يتلظى بنار بغضه، حانقًا عليّ وعلى ذاته المريضة.

ما أن عبرتُ عتبة المكان، حتى بتُ أتنفس ظلّ الأمان، أسير نحو البيت خفيفَ الخطى، كأنّي تحررتُ من قيد سجنٍ غير مرئيّ. تركته منشغًلا بخيبته، يندب سوء طالعه، ويضمد جراحاته التي لا تندمل. تركته مهمومًا بسواد فعله وجهم وجهه، يعالج أمر الدمامل التي باتت تتفجر في وجهه وتحرق أعصابه.. ما أنفك الفكر بقيَّ منشغلا بما طرأ في قاعة المحكمة في حينه بما يخص مشاعر حسن..

يا ترى... ماذا دار في خلده حين سمع شهادتي؟ حتما دخل ضميره في صراعٍ مع الذات العنيدة والوعي المستيقظ؟ لعل صمته لم يكن مجرد حيرة، بل كان أول تمرد على السرديات التي تشكل بها وعيه عبر سنتين من العناء والوحدة. تلك الثواني القليلة التي تبعت كلماتي؛ كانت أشبه بارتجاج داخلي، هدّت معظم اليقينيات التي كان يؤمن بها والتي عاكست الحقيقة، والذي التمس هشاشتها بعد أن فتحت نوافذ النور.

في لحظات التبصر، لا يحتاج الإنسان إلى وعظ أو صراخ، بل إلى صدع بسيط في جداره النفسي ليتسلل من خلاله شعاع الحقيقة. حينها لا يعود السؤال لماذا خالفت داود بشهادتي؟ كمجرد استفهام، بل يصبح مدخلًا لإعادة بناء المعنى والهوية في فكره.

أنا واثق من أن الحقيقة تسربت إلى فكره الأصم كالماء، حتى لان وتجدد. أزاحت عنه اليأس والضجيج، ليستكين في صمت. مع سكونه تساقطت أغبرة الوهم من لوحته، تغيرت الرؤيا، لا لأن العالم تبدّل حكمه؛ بل لأن الظلام من داخله انقشع. ربما لأول مرة هجس بنور الحقيقة لا يخيفه... وأن الرحمة لا تهبط من السماء فحسب، بل تنبع من اليقظة. حتما شريط القضية مرّ على ناظريه من جديد، ليحذف منه تكهناته الغبية.. أكيد تغيرت حساباته، وأن الرؤية باتت أوضح من السابق. حتما أعاد ترتيب مراكز الإدراك في عقله، تبددت غمامة الأحكام السابقة التي طالما ألبسني إياها. صار يرى بانوراما الحدث بوضوح، أدرك أن الشك ليس سوى مرحلة

عـابرة فـي طريـق اليقـين. اتسـعت مجـالات الرؤيـا لديـه، فلـم يعـد ينظـر بعـين واحـدة، بـل بـأفق متعـدد الزوايـا. يـرى فيـه مـا لا يُـرى، ويشـعر بمـا لا يُقـال. ومـا كـان غامضًـا أصـبح الآن وامضًـا تحت ضوء وعيه المتقد.

أكيـد بـات أكثـر اتزانًـا، يخطـو علـى أرض صـلبة، لا يهـيم فـي متاهـة الظنـون، بـل يسـير بـوعيٍ نحـو غايتـه. لقـد انجلـت لديـه ملامـح الفوضـى، ارتسـمت حـدود القـيم بوضـوح: صـار يميـز بـين النبيـل عـن الخسـيس، والصـادق عـن الزائـف، والعفـة عـن الابتـذال. ولـم يعـد يتيـه فـي ضـبابية المفـاهيم، بـل أصـبح فكـره مصـقولًا، يـزن الأمـور بعقلـه لا بأهوائـه وتحسسـه، ويقـرأ العـالم بنـور بصـيرته لا بانعكاسـات ظلالـه. قطعـا تغيـرت مراكـز القـوى فـي تفكيـره، حتمـا انقشـعت غمامـة السـخط التـي كـان يكيلهـا لنـا حسـب تصـوراته السـابقة. أكيـد صـار يمشـي بـأكثر مـن سـاق ليصـل مرامـه بعـد أن تعبـد الطريـق، لـمْ تعـد تعشـي عيونـه ضبابية الأفكار...

أكيـد بعـد جلسـة المحاكمـة التقطـت كـاميرات وعيـه صـورًا كانـت مدفونـة فـي زوايـا النكـران، مشـاهد عبثيـة لعناصـرٍ ظنهـا يقينًـا، فـإذا بهـا تنهـار أمامـه عصـفي كـأوراقِ وهـمٍ فـي مهـبّ الحقيقـة. صـار يتأمـل "زجليـة الألـوان" التـي طالمـا تجاهلهـا، يقرأهـا سـطرًا بعـد آخـر، لـيس بعـين العـابر، بـل بعـين التجربـة، علـم كيـف تتخفـى الـدلالات خلـف الأقنعـة. بـدأ يراجـع حسـاباته، يعيـد تموضـع القـيم فـي سـلّمه الـداخلي، ليفـرز الخـيط الأبـيض عـن الأسود، ويضع كل لبنة في مكانها الصحيح.

لـم يتـذوّق حـلاوة الإنصـاف إلا بعـدما نبهـه القاضـي بحقيقـة شـهادتي، حـين كشـف لـه أننـي مـن أزاح عـن وجهـه سـتار التهمـة، لا لأبرّئـه فحسـب، بـل لأوقظـه مـن سـبات الظنـون. حينهـا وقـف مبهوتـا، تلاشـت الكلمـات مـن شـفتيه، تحـدّق عينـاه بـي وكأنهـا تكتشـف وجهـي مـن جديـد. كنـت قـد نقلـت لـه رسـالة تسـتحق أن تُقـرَأ. عنـدها تبعثـرت حسـاباته القديمـة، سـقطت كـل تنبؤاتـه القديمـة كتماثيـل رمـل. نظـر نحـوي نظـرة مشـبعة بالدهشـة والامتنـان، نظـرة مـن أدرك كـم كـان أصـمًّا، رغـم أن الصـوت كان يدور في فلكه ينتظر أن يلتقطه.

عنـدها ارتسـمت علـى وجهـه علامـات اسـتغراب، خرشـت وجومـه، مـع ابتسـامة خرجـت مـن حشاشـة قلبـه، سـحبت معاناتـه مـن أحشـائه. كانـت شـهادتي ولادة جديـدة لـه، بعـد شـعر بلـذة الحيـاة، لـذة لـم يـذقها مـن سـنتين، عـاد الـدم يتـدفق فـي وجنتيـه التـي أبيضت من السقم.

أخيـرا شـعر بالراحـة تسـري بعروقـه، حيـث تـنفس الصـعداء دون وجـل. ربمـا بشـهادتي صـفعته علـى وجهـه، لينتبـه علـى انحـراف أفكـاره، وعـن الدسـائس والشـكوك المتربصـة بـه، جعلتـه يميـز بـين ألـوان الطيـف التـي امتزجـت فـي خـاطره وأغشت بصيرته.

أخيرا توقفت المعاناة على حد الصرخة المكبوتة في داخله، وكأن نسمة من رحمةٍ إلهية قد عبرت فوق حطام الروح المتعبة فلملمت أجزائه.

غير أن الجرح لم يندمل، فالزمن لا يعود إلى الوراء، ولا تعود الأرواح إلى بهجتها الأولى بعد العصف الكبير. منذ يوم الاعتقال، لم يعد كما كان، ولن يعود كما كان. ترى ماذا عن التعذيب الذي لاح الجسد؟ ماذا عن الكرامة التي انتهكت؟ من يعيد له إصلاح الشأن، مَن يعيد ترميم جدران القيافة التي هُدمت؟ من يملك القدرة على جمع شظايا زجاج مكسور لأصله؟ كيف يرتقي عالم الوجود مرة اخرى بذات الوجود؟ لقد خسر الكثير والكثير حتى يبس عوده، تبدت طاقته، المسألة شائكة، تحتاج لمعجزة لينسى ذاته ويبني كيانه من جديد. سنتان من التآكل البطيء قضاها في دهاليز السجون بعيدا عن أسرته. تحولت الزنازين لمأوى، والجدران لشهود على تفتّت القيم والجسد، وتلك الكرامةٍ التي نُزعت عنها الأظافر.

الرحلة طويلة، والمهمة أشد تعقيدًا من مجرد شفاء. إنها إعادة خلق الكيان من رماد الذات، من ترسبات الخوف، ومن خطوط الزمن التي بهتت. يحتاج إلى إعادة ترميم الذات إلى حياة، إلى ترويض الألم ليتقبّل فترة غيابه القاسي إلى ما كان مألوفًا.

سيحتاج إلى عقلٍ جديد دون شوائب، يحتاج لمرونة توافق قدميه المتخشبتان على الحركة، بعد أن تعود جلسة القرفصاء في زنزانة باردة، لا يعرف الليل فيها من النهار. وليتخطى

عقبات الزمن القادم.. ورغم كل هذا، فإن في كل غروب فرصةٌ لبزوغ. وفي كل ندبة على جسده دليل على نجاته. ما خسره كثير، نعم، لكن ما بقي منه قد يكون النواة لبعثٍ أعظم.

أخيرا حلت الرحمة الإلهية وتوقف النزف..... ولكن من المستحيل أن ترجع الأمور إلى ما كانت عليه قبل يوم 1992\06\03...

من ذا الذي يعوّضه عن دفء الشمس، وهدوء المساء، ونقاء النسيم بين أحضان أسرته؟ من سيمحو من ذاكرته رواسب القلق وآثار السياط، ووحشة الخوف المتجذّرة في روحه؟ من يردّ إليه ضحكات أطفاله اللذين كبروا بعيدًا عن عينيه؟ ومن يعيد له تلك القبل الدافئة التي أفتقدها من شفاه زوجته؟ من يعوّضه ليالي الود الملاح؟ ، من يمسح كل هذا الغياب؟ من؟

بعد تلك المعاناة الطويلة لن يُشفي غليله إلا الانتقام، لم يبق ما يشفي القلب الا أن يكيل لغريمه بما كال له. لن تُخبى نارُ الألم، ولا تُمحى الندب عن الجسد والروح حتى يفنى العمر. وفق تلك المقاييس ترى؛ كيف سيواجه غريمه بعد أن طويَّ قرطاس القضية؟ كيف سيتعامل معه؟ بعد تلك الخسارات التي نالها، سوف لن يجد في ساحة الحياة جوابًا لتساؤلاته. الحياة خيّبت ظنّه، إلا أذا شذّ عن قواعدها، وأعاد رسم معانيه بأسلوبٍ لم يعهده محيطه. عامان من الظلم المضني، جرّعته الحياة خلالها كأس السمّ حتى اعتاد مرارته... يبست شفاهه التي افتقدت خاصية الابتسام، لقد تعود في زنزانته على شكل الوجوم والبؤس، ما عاد يستسيغ لمعة الفرح والفتنة.

تغير مزاجه، تعكر صفوه، افتقد حلة البهجة، أصبحت حياته صرة مليئة بالعقد بعد أن صدأ فكره في ظل شتائه القارص طوال سنتين من المرار، تحولت نغمة الطيبة التي كان يتقنها إلى جذاذ يقرح المحيطين به، تحولت أحلامه الوردية لفقاعات صمت، باتت الروح تتسامى مع الريح بمجرد أن تلامس ظنه وطفة شك. اختلطت عليه الأبجديات، أضحى لا يميز بين الجيد والسيء من البشر، لا يفرق بين الناعم والخشن من القدر، صار ينظر إلى الجميع بذات المقياس.

تبدلت ظنونه وأفكاره ومعاني الأسماء عنده، تغيرت في ذهنه المفاهيم والقيم، تحولت العلاقات في حياته من طبيعية سلسة إلى رسمية معقدة؛ حتى تلك العلاقات التي تربطه بالعائلة أختلف لونها وطابعها، أضحت شيء من المساء الذابل، تنقصها الحيوية والحركة والبهجة، يركبها الخمول والبرود. كل تلك الرموز التي ذُكرناها قد تغيرت ألوانها وصفاتها ومعانيها عن أصلها، ترى..... من سيعيدها لطبيعتها ورونقها؟ من سيعوضه تلك الخسائر الجسيمة؟ من سيعيده لسابق عهده في نظر المجتمع؟.

لقد تسامت في نظره الأشياء، لذا حين شهدت في قاعة المحكمة ببراءته، لم تطرق مسامعه كلماتي، لم يميز بين شهادتي وشهادة داود، تهجس به أصم بيننا، لذا صار يردد:...

- هذا واحد منهم هذا واحد من المتآمرين!!

وحين التمس الشهادة من فم القاضي تفاجأ، بدت الصدمة على وجهه جلية؛ صُعق، تجمّد في مكانه، بهت لونه، وتاهت الكلمات عن لسانه. لم يصدق ما آلت إليه الأمور، كأنَّ الأرض زلزلت تحت قدميه.

وبعد مضي خمسة عشر يومًا من نهاية المحاكمة، أُفرج عن حسن، وأُعيد إلى وظيفته ومدرسته الأصلية مكرّمًا، مرفوع الرأس. عاد إلى مهنته رغم ما اعتراه من انكسار داخلي ومهانة ثقيلة، حاملاً همومًا كالجبل. شرع في ترميم ذاته المتصدعة، ولمّ شتات أسرته التي أنهكها الغل والجوع والخذلان. عاد ليرفع عمود البيت الذي مال عن اساسه، ليقيمه على حجر الصبر والعزيمة، ذاك الذي بُني عليه وجوده منذ البدء.

بعد عودته إلى الحياة، آثر الانزواء في بيته، كأنما في عزلته ود شفاء جراحه الخفية. راح يكشط ثقل الوجوم الذي التصق بروحه وجسده، يغسل الأرق اللابد في دمه، راح يترنح تحت اشعة الشمس، لتعيد لجلده المتخشب نظارته، ليونته ورونقه. لم يكن مجرد استشفاء جسدي، بل محاولة لأن يرمم ذاته، ويستجمع ما تبقى من رزانة ليواجه العالم بصيغة أكثر تماسكاً وثباتا.

وخلال تلك الأيام التي تجمد فيها زمن حسن، كان داوود قد تسلق بصمت سلالم الوظيفة، حيث بلغ منصب مدير متوسطة خانقين خلفاً للأستاذ محمد. المفارقة أن هذه المدرسة هي نفسها التي كان حسن يدرّس فيها اللغة العربية؛ كأنما لعب الزمن

لعبتـه، فغيّـر المواقـع بينمـا ظـل الماضـي يلقـي بظلالـه علـى الحاضر. يا ترى كيف سيرحب داوود بعودة حسن للتدريس؟؟

مـا إن انقشـعت غيـوم الظلـم عـن صـدر حسـن، حتـى غـط داوود فـي سـبات عـن المشـهد، غـاب داود فـي ديجـور عجـزه، متواريـاً عـن الأنظـار فـي زوايـا قريتـه التـي لا تعـرف ضـجيج المـدن ولا صـخب المواجهـات. انطـوى علـى نفسـه كظـلٍ هـاربٍ مـن شـمس الحقيقـة، شـهريْن كـاملين مـن الصـمت والعزلـة، كـأنّ الأرض ضاقت به بما رحبت.

لـم يكـن انسـحابه مجـرد غيـابٍ عـن موقـع إداري، بـل كـان انهيـاراً داخليـاً أمـام مرايـا الـذات، حـين تتكسـر فيهـا صـورة الإنسـان الـذي خـان رفيقـه. نظـرات المعلمـين والمعلمـات، همـس الأروقـة، صـمت الجـدران... كلهـا أشـارت إليـه بإصـبع الاتهـام دون أن تنطـق. وهـا هـي الآيـة تُتلـى علـى لسـان العـدل: "وَقُـلْ جَـاءَ الْحَـقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ، إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا".

لـم يعـد داود إلا شـبحًا يتعقبـه النـدم والخـوف مـن انتقـام حسـن، مطـاردًا بعيـون تعـرف الحقيقـة، وألسـنة لا تنسـى. لـم يكـن فـراره خجـلاً مـن المواجهـة، بـل انكسـارًا مطبقًـا، وجبنًـا نحـت فـي روحـه أخاديـد الـذل. لـم يجـرؤ أن يُقابـل حسـن، لا بكلمـة ولا بنظـرة، وكأن العدل حين نهض أسقط عن وجهه قناع الزيف.

تكاثفـت عليـه ظـلال الحيـرة حتـى خنقتـه، جعلتـه شـبحاً يتهـادى بـلا قيمـة فـي ممـرات مدرسـته. كـل الأصـابع تشـير إليـه بالخطيئـة، بالـذنب، بـالكبيرة. صـار يعـن بالقـذر، الجبـان، الحـانق

على ألسنة الأساتذة والتلاميذ والعاملين. وإن عاد محتمياً بظل أصدقاء حسن، فإن الكلمات الجارحة ظلت تطرق مسامعه، والأعين تحيطه بنظرات شزرة فيها بغض وتهديد. أحسّ أن المرآة التي تعكس ذاته قد تهشمت، فلم تعد تبرق برمزية شخصيته أو تلمع بسطوة وظيفته ومركزه الحزبي. لم يبقَ له إلا الفرار من الحدث، فألتجأ إلى إدارة التربية يلتمس منها الرحيل لمدينة أخرى بعيدة، لعل المسافة تخفف من ثقل النظرات والوعيد.

لكن حسن ظل طيفاً يهدده، وإنْ لا يُنفّذ وعيده لكنه يُحيي فيه رعشة الخوف كلما مرّ بذاكرته. بات يمشي وقلقه يُطارده كظلٍ لا يزول. وهكذا، في مفارقة قاسية، ما عاد منافسُه في الحياة شخصاً، بل نفسه المتعبة صارت تراجعه في كل فضيلة، وتزجره في كل موقف، تطارده إذا ود بلوغ المعالي، حتى وإن حاول العصيان فلن يستطيع أن يعد لنفسه كرامتها. كل ما آمن به من يقين، ومن كبرياء، صار وهماً في زحمة الهزيمة.

"نفسي تُنافسني في كل مكرُمةٍ - إلى المعالي ولو خالفتها أبتِ."

وإن انتهت الحكاية؛ لكنه لم ينجُ من ظلال الحكاية. فصوت حسن وإن تلاشى صداه، بقي عالقاً في جدران ذاكرته، يهدده بالصمت، يلدغه بالاحتمال... لم يكن انتصار حسن كاملاً لجبن قابع فيه، ولا سقوط خصمه نهائياً لغل يركبه، بل كانا وجهين لوحدةٍ مأزومةٍ بين ذاتين متناقضين؛ أحدهما يصرخ من الألم، والآخر يتغذى على الصدى.

وفـي قلـب تلـك العتمـة، تسـاءلت روحـه: هـل كـان قـراره كتابـة تقريره الخبيث نهاية قدر، أم بداية جولة من التيه؟

أنتهت

عباس مدحت البياتي

النهاية

للكاتب ستة عشرة كتابا بين
رواية ومجموعات قصصية

مجموعات قصصية:-

1- فرصة هدف
2- عصير الرمان
3- لغة العود والحجر
4- زيارة طبيب
5- كرستال
6- الأنتقام
7- المجموعة الكاملة الجزء الاول
8- المجموعة الكاملة الجزء الثانى

مجموعة الروايات:-

1- لغز اللؤلؤة
2- فتاة الكاظمية
3- جنوح النفس
4- عبير
5- شذرة العقد
6- طريق الجحيم
7- غراب البين
8- الاقدام المتكسرة
9- عواصف الجنين
10- الفراغ
11- القمة
12- عقاب الذات

أنا واثق من أن الحقيقة تسربت إلى فكره الأصم كالماء، حتى لان وتجدد. أزاحت عنه اليأس والضجيج، ليستكين في صمت. مع سكونه تساقطت أغبرة الوهم من لوحته، تغيرت الرؤيا، لا لأن العالم تبدّل حكمه؛ بل لأن الظلام من داخله انقشع. ربما لأول مرة هجس بنور الحقيقة لا يخيفه... وأن الرحمة لا تهبط من السماء فحسب، بل تنبع من اليقظة. حتما شريط القضية مرّ على ناظريه من جديد، ليحذف منه تكهناته الغبية.. أكيد تغيرت حساباته، وأن الرؤية باتت أوضح من السابق. حتما أعاد ترتيب مراكز الإدراك في عقله، تبددت غمامة الأحكام السابقة التي طالما ألبسني إياها. صار يرى بانوراما الحدث بوضوح، أدرك أن الشك ليس سوى مرحلة عابرة في طريق اليقين. اتسعت مجالات الرؤيا لديه، فلم يعد ينظر بعين واحدة، بل بأفق متعدد الزوايا. يرى فيه ما لا يُرى، ويشعر بما لا يُقال. وما كان غامضًا أصبح الآن وامضًا تحت ضوء وعيه المتقد.